المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

سمير الحاج شاهين

مدونة أبو عبدو

صعلوك المدينة

رواية

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً: موكيالي - بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

صعلوك المدينة

رواية

تأليف
سمير الحاج شاهين

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

طيف ليلى هدوان يزورني في المنام. فادس رأسي في صدرها، ممرغاً شعري عليه، مقتحماً أزراره بوجهي. انبطح تحت الأرض التي تمشي عليها، **منبثقاً** عندما تمر، متحداً بها. وأسافر قربها في السيارة في يوم ماطر، خالعاً معطفي، **ساتراً** تحت تلابيبه يدها، التي عتصرها على قلبي. وقبل ان نصل إلى بيروت يكون قد تم الاتفاق والتفاهم بيننا على كل شيء بلغة اللمس. وهناك ستنقطع الطريق، وربما تعذر علينا الرجوع عشيةً في هذا الطقس الرديء، فتوقفنا في بلدة ما: حمانا، صوفر، بحمدون، أو أيٍ من تلك القرى والمحطات المزروعة على درب قافلتنا ضائعة في العاصفة، مغمورة بالضباب. لن نعثر في الفندق إلا على غرفة واحدة. وإذ نضطر ان نتقاسم المأوى لهذا المساء، نروح نتأوه في العتمة معاً. وإني لأسمع بالفعل تنهداتها المثيرة منبعثة من السرير المجاور **المهجور**. حتى اني أكاد أناديها محتضناً اللحاف، مطمئناً إلى الظلام، حيث استطيع ان اختلي بها في أحلامي، كلص يلتهم ما سرقه في ديناميس زاوية حميمة بعيدة عن الأعين، متغلغلاً في الفراش، الذي تدفعني الرغبة الجامحة إلى **هجره**، والخروج للبحث عن ساحرة أحلامي في متاهات الأزقة المقفرة، أو عن أي شبح آخر يروي ظمأي في هذه الليلة، واثقاً من حتمية العثور على موعد مع الشهوة مضروب لي في عرض الطريق. لكن ما أن أهمّ بالنهوض حتى أكون قد وصلت إلى درجة من الوعي تؤكد لي جنون افتراضي.

عندئذ ألوذ بمهجعي من جديد: فلأكمل حلمي الأول قبل ان يتبدد. لقد فات الأوان، ولا يسعني إلا أن أبدأ واحداً ثانياً: فيما أنا نائم تأتي ليلى هدوان لتعانقني، واضعةً خدها على خدي، تشدني وتضمني، ثم تقف في الشباك المطل على الحديقة، حيث أهجم عليها أقبّلها بضراوة، وإذ تقع في أحضاني، يخيل إلي

أنه الواقع، واني أبلغ حقاً أقصى درجات النشوة واشباع الرغبة، منحلاً من اللذة. بينما أمي وأخي يتفرجان عليَّ من شرفة البيت، ويضحكان من الدهشة والعجب متغامزين أن: ها نديم أخيراً مثل أقرانه يحب ويستجيب لشهوة الجسد. وهذا مما يملؤني فخراً واعتزازاً. لكن ما ان أدخل الدار حتى أخجل بالاصفرار البادي على وجهي، وأثر التعب والانهاك الذي أود اخفاءه عن أهلي، كي لا يعلموا بقصر باعي في ميدان الغزل. وإذا أحاول الالتمام في الفراش كي أنام وارتاح، علني أعوِّض بعض طاقتي المهدورة، أفقد القدرة على التنفس والنطق والصمود، يجف ريقي، وانشلّ مكاني.

وها أنا في حلم ثالث أصادف امرأة تحكي لي مأساة طلاقها من رجل عقيم، فتشفق على الزواج بعد أن أعاشرها وتحمل مني. وإذ تبشرني بانها حبلى أعدها أننا سنعقد قراننا في الغد، وأمضي لإعداد الترتيبات اللازمة. لكن حكيماً فحلاً يستوقفني وسط الغابة ليسألني: «هل بلغت بك السذاجة حد الاعتقاد انك والد الجنين. إن هذه السيدة عاهرة وملعونة، وهي تضاجع الكثير من الشباب. لقد أخصبها غيرك. وهل تزعم حقاً انك ذلك الأب المنجب؟...» ثم يدلني على طريق الهرب في الأدغال. وفيما أنا أركض أجدني فجأة مأخوذاً بين أسوار حديقة جيراننا، التي عبثاً ما أحاول تسلّقها. لكن رغم كل الضجة، التي أحدثها وأنا اقفز وأهرول هلعاً، فان أحداً من سكان البيت لا يستيقظ أو يلاحظ وجودي.

ثم تنشق الستارة عن هذا المشهد: الألسن تلوك سمعة ليلى هدوان، التي أحاول ردعها دون جدوى. لقد أفلت زمام أمرها من يدي. انها ترتدي الفساتين الخلاعية، تدخن، وتعمل على رأسها. وفيما أنا خارج من المنزل لأرد هذه الشاة الضالة إلى الحظيرة، اودِّع جدتي التي لا تسمع صوتي. فاصرخ بنبرة عالية ترتعد لها العجوز المسكينة، وتصاب بنوبة قلبية تصرعها على الفور. حينذاك أروح أبحث عن أمي الغائبة منذ مدة طويلة إلى ان أهتدي اليها أخيراً: انها في غرفة قريبة من القبو، مغلقة منذ عهد بعيد، لم أكن أعلم ما يجري داخلها. وإذا بي اكتشف سرها الرهيب: أخي الذي هاجر من أعوام وأعوام، والذي كنت اعتقده سعيداً نجى وحده من الجحيم الذي نتلظى في نيرانه جميعاً، وناجحاً لم

يعرف مرارة الخيبة التي هي قدرنا المشترك، هو طريح السرير خلف هذا الباب المجهول، مريض بداء غريب لا علاج له، تسهر أمي على راحته، وتدعك له دون توقف ظهره المحروق. لقد أصبح عاجزاً وفقدنا كل أمل بالخلاص، إذ أن أمر انقاذنا كان منوطاً به.

بينما تمر ليلى هدوان بأزمة باطنية حادة أثر وقوعها في حبائل زئر نساء، تفرك يديها بعصبية، وتولول محاولة ان ترمي بنفسها من النافذة دون ان ينجح أحد في كبح جماحها، أرسل انا ثلاث مقالات انتظر خروجها من المطبعة دون طائل. هذه المرة اعتقد انها ستظهر، لكن الجريدة تصدر ولا يرد ذكر لها. هذه الدورة اتوقع شفاء حبيبتي، فاذا بها لا تزال تتردى في حمأة الجنون. هذا الاسبوع سيُنشر نتاجي، لكن دائماً لا شيء. هذا الاسبوع ستمر النوبة بسلام، لكن دائماً لا شيء. وتستمر الحال على هذا المنوال، الكلمات لا تُسَّطر على الورق، والمريضة لا تبرأ من علتها، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

عندئذ يعصف بي الحنين إلى سنوات العمر الأولى في بيتنا القديم، حين كانت سعاد بُعد عذراء لم تتزوج، ولم تفقد الأمل في ان تصبح أماً. لو نرجع إلى ذلك العهد، وتتاح لنا فرصة تجريب حظنا من جديد. لو نقف، ثانية، عند نقطة الانطلاق قبل ان نقطع الخيط الرفيع ونمضي. اذ ذاك ربما لم نصادف على طريقنا نفس الوحوش الكاسرة التي واجهناها في الواقع، ولم نقع في المآزق إياها التي سقطنا فيها فعلاً. لو نلغي دورة الأيام، ونعيد عجلتها إلى الوراء، نحو ذلك التاريخ المبارك، الذي لم تكن فيه جدتي قد ماتت بعد: أراها في المنام مضطجعةً في سريرها تعانق سعاد وتهدهدها. الأولى الآن في القبر، والثانية محرومة من نعمة الأمومة، ومن دفء صدر اليف يضمها إليه بحنان. فكأن الصخرة الكبيرة، التي تتدحرج علينا من أعلى الجبل، تهمُّ بأن تطمر «وادي المروج» تحتها. لا، لا، اتركوا هذا العالم الجميل، ولا تدعوه يختفي تحت الأنقاض. الأمان هو ان تكون أمي قرب النار، ونحن حولها، وان لا يكون أحد منا قد خبر نصيبه، أو بدأ مصيره بعد وان لا يكون دولاب الحياة قد كرج بنا على هذه الصورة المؤسفة، التي تملؤني حاجة إلى بكاء ما راح ولن يعود: تلك الحصة التي متناها من عمرنا المثير للشفقة، وذلك البلد الذي غادرناه، وأصبح من المستحيل علينا أن نطأ ثراه مرة أخرى.

وهنا تتغير الصورة على شاشة الحلم: اني واقف على شرفة ناطحة سحاب في نيويورك، استرق النظر إلى داخل غرفة طعام في فندق «الواحة» طالما أحببت التلصص عليها في طفولتي، التي يتهيأ لي اني أعيش أيامها بالفعل. كل معجزة الآن يمكن ان تحدث. الارتداد إلى هذه الفترة البعيدة من الماضي تبدو معقولة لدرجة **اني أتوهم** اني انتقلت حقاً إلى مرحلة الغفلة والبراءة، محققاً ما لم أكن أؤمن بالحصول عليه في الصِغَر. أبواب المغارة السحرية مشرَّعة في وجهي، وأنا أرى الكنوز المثيرة بوضوح تام لم أكن أحظى بمثله في حداثتي، حين كنت اعتبر **نفسي سعيداً إذا اتيح لي أن المح، من خلال فرجة النافذة الضيقة، أو اثناء فتحة** الواجهة ثم اغلاقتها السريعة، بعض الطاولات، وحفنة من المصطافين يتناولون طعامهم. أما الآن فان الأسرار المغرية مباحة كلها أمامي، والظلال الخضراء المريحة تنشر عتمتها في باحة الفندق الخلفية، حيث تتيح لي نداوة المياه، وطراوة الأعشاب، وفيء الأغصان فرصتي المنشودة في عزلة الريف.

يلي ذلك منظر قاتم: اختي الغائبة تصعد درج البيت، وتدخل فجأة. ترى ما سبب حزنها الدفين وتجهم وجهها المخيف؟ كما ان اخي يعود من الغربة هو أيضاً، يشتري لنا سيارة، ويروح يصرف علينا، يقدم لنا الهدايا، ويؤمن لنا كل الحاجات التي كنا نحلم بها. فكأنه يُنيلنا أقصى رغائبنا وآمالنا بعصا سحرية بفضل هذا المال الذي رجع مُحملاً به. لكن عندما يهمّ ان يتكلم أحاول منعه فلا يمتثل لارادتي، وإذ يجاهرني بأني فاشل، فضحتهم أمام الناس، وجعلت منهم مسخرة بين أهل الوادي، أصرخ من الغضب: الحق عليك، انت الذي تُعرِّضنا للإهانة والعذاب، أنت مصدر همومنا جمعاء. أنت آخر من يجوز له توجيه الانتقادات إلى الغير. لماذا لا تستقر في حياتك؟ وأهرب من البيت لكنه يطاردني. اقفز عن قمة الدرج لكنه يطير ورائي. أروح أركض دون وعي. لكن فيما أنا أعدو بين الحقول اذا به يهيم في الدنيا هو أيضاً راكباً على حصانه، فاقد الرشد، عبثاً ما أناديه وأستوقفه. أنه يتجاوزني بصلابة وإباء والغم الشديد بادٍ على محياه، بما يدعوني إلى الصياح رعباً لولا اني أبكم لا يخرج من فمي بعد جهد طويل سوى شهقة ذعر استيقظ على أثرها مقشعراً من البرد، واعياً المي الذي لا ينجح حتى النوم في تخديره أو **إنسائي إياه**.

هوذا اخي يثب عن التل ويوعز لأمي ان تتبعه، فتقفز بدورها خلفه. لكنه لا يكاد يمسك بها، ويشير لها بأصبعه إلى قرية «خربة الجوز» حتى تضع يدها على قلبها وتغيب عن الوعي بين ذراعيه. عندئذ أشبّ نحوها فيما تفتح هي عينيها، لحظة، ثم تغرب بهما مخطوفة اللون. لكني أدفع بها قرب السراي القديم، كي اتخلص منها، إلى الجل التحتاني، وإذ أجدها حية بعد أرشقها بحصاة على صدغها لا تكفي هي أيضاً للقضاء عليها، فاقذفها بحجر كبير يصيبها على رأسها ويرميها أرضاً، تهرول نحوها شقيقتي مولولة، نادبة. وأهرع إليها بدوري اسمع حشرجتها الشبيهة بتلك الزفرات التي انبعثت من صدر جدتي على فراش الاحتضار. إلى ان تموت أمي بين أيدينا غير سامعة صراخاتنا، واستغاثاتنا، وتفجعاتنا.

وسرعان ما يعرض عليَّ شريط الليل لقطة جديدة. لقد غمر فيضان نهر الكرمة رصيف منتزه **«عين الغزلان»**، وسمعنا كثيراً عن المارة الذين جرفهم الطوفان، وذهبوا ضحية هذا المد الطاغي. لكننا لا نرعوي، ونصرُّ على دخول قهوة معرَّضة للخطر والجلوس فيها بعد انحسار الماء عنها. فاذا ما خرجنا بعد قليل زلَّت قدم جدتي، **وحادَت** بها إلى منطقة الإعصار، الذي يحملها على تيار هائج عبثاً ما نسعى إلى انقاذها منه الزخم الجامح يقذفها نحو النهر، الذي تقف أمي على حافته تحاول امساكها من طرف يدها وانتشالها معولة مستغيثة دون جدوى. السيل العاتي كالقدر لا مرد لإحكامه، وهو يأخذها معه غير مشفق على شيخوختها، فارضاً عليها هذه الميتة الشنيعة وسط الشارع.

أما الآن فان مسرح الأحداث ينتقل إلى المقابر، حيث تقف عجوز متوكئة على عصاها، مجعدة الوجه، شائبة الشعر، تتفرسني بعناد حتى لأكاد أحسها هنا قرب أذني مما يصيبني برعدة **قوية** تتضاعف لدى دخول تابوت أخي من الغربة. فانتحب لدرجة ان الناس الملتفين حولي يدمعون معي. وها انا في السرير اشاركهم البكاء على نفسي. عندئذ أرتفع فوق المخدة علني اتخلص من هذا الكابوس المرعب، تبحث عيناي الهلعتان عن برهان يثبت لي انه مجرد حلم مزعج، وان اخي لا يزال حياً. لكني لا أجد غير الظلام. حتى اذا ما عدت إلى الوعي حمدت الله. لا، لا، اني أقبل بحالتي، استسيغ المي، **أرضى** بكل شيء

شرط ان لا تقع علينا مصيبة كهذه. إني لأذكر يوم كنت في شجرة التين، وجاء رفيق راكضاً ليجلس لاهثاً في ظلها، حيث أخذت أقشر له الثمار بحنان، وراح هو يأكل من يدي بثقة وأمان... لا، لا استطيع ان أتصوره في النعش ذلك الوجه المؤرد الجميل، الذي احتضنه بين ذراعي بالوهم، إلى ان يغلبني التأثر فأبكي متلهفاً إلى ان ألوذ بانسان يطمئنني إلى ان أخي بخير. لكن الجميع نيام الآن.

وإذ أغمض عينيَّ من جديد، أرى نفسي في كنيسة مزدحمة تئز الرياح الثائرة في شبابيكها، تهز بابها، وتبغي اقتلاعها من الأساس: فلا أكاد ارتاح إلى انعتاقي من ذلك التابوت اللعين، الذي أقضَّ مضجعي، حتى أُفاجأ به يتزحلق على البلاط، تدفعه بزخم أيدٍ غير منظورة الى ان يستقر عند أقدام المذبح. وبينما احتمي بجموع المصلين مرتعداً، ضائعاً وسط حشودهم، يدوي، بغتةً، نداء خطيبة الميت عن العتبة. الكل يفسحون المجال لصوتها، وينفرجون ليتركوها وحدها في ممر يفضي إلى الجثمان، معجبين بعمق حزنها. تصرخ أول مرة فترتعش فرائصي، واخبىء رأسي بين اكتاف الوفود المتراصة، ثاني مرة فيتمزق قلبي حرقة عليها، وأناشدهم ان يسكتوها. لكنها تظل تصيح وتصيح إلى ان يهبَّ الميت من رقاده ويروح يستدعيها بدوره. فيتملكني هلع جنوني يحفزني إلى الركض في أنحاء الكنيسة، والالتجاء إلى روادها، أقرع على صدرهم كأني أريد الدخول في جلدهم للاختباء من هذا الخوف، الذي يلقي في روعي ان شبح العاشق الذي يتواثب نحو حبيبته قد يمر قربي، قد يلمسني، أو ينقض علي. فأهرب وأهرب وأهرب إلى ان تنقطع انفاسي، وتتلمس جفوني سبيلها إلى اليقظة كأصابع غريق يائس تتشبث بسطح الماء.

ثم انتقل إلى الحلقة الثالثة من هذا المسلسل الليلي الرهيب: هذه المرة القضية جدية: رفيق سيفارقنا نهائياً، يرتمي في أحضان أمي يقبِّلها العناق الأخير. وعندما يتملص من بين ذراعيها أقرأ على وجهه، الذي لا ينمّ مع ذلك عن أي من دلائل الموت، الأسى العميق المعبِّر عن صعوبة هذه اللحظة الوداعية على قلبه لسببين: أولاً لأنه سيغادرنا إلى الأبد، وثانياً لأنه يشعر معنا، ويقدّر مدى الحزن العميق الذي سيخلِّفه لنا، والذي لن يكون معنا هذه المرة ليشاركنا

إياه كما اعتاد ان يفعل دائمًا بالنسبة لجميع آلامنا. بينما أنطرح أنا عند أقدامه الثملها كما لاستبقيه، واثبّت رجليه على هذه الأرض التي يوشك ان يهجرها، ويتركنا عليها وحدنا. وهكذا يمنحني الحلم خبرة بعض الأحاسيس التي لم يُتح التعرف عليها في الحياة عملياً، وكأنني أعيشها بالفعل كما هي في كامل قوتها وحقيقتها. أذوق غصة الموت وأعاني مرارة افتراق الأحباب. لكن هناك في داخلي مشاهداً يتأمل هذا المنظر يعيه ويسجله من الخارج كالغريب. إني الممثل والمتفرج في آن معاً. ممثل لأني أندمج كلية في هذا الدور إلى حد التخيل أنه الواقع. ومتفرج لأني امرٌ في حالة وهمية مفروضة علي بصورة آنية ولا أحياها بأصالة. وهذا مما يضاعف انفعالي بها، ويجعلني أنوء تحت زخمها المرهق بمزيد من القوة.

وأخيراً يحل هذا الفصل الختامي: رئيس مركز البريد يزورنا، فاضطرب واتهيب الموقف. لكني أظهر له أقصى ما يمكن من الحفاوة، أسايره وألاطفه كي أجرف الحديث بعيداً عن نفسي، وأمنعه من التطرق إلى أسراري المهنية، فيفضح أمر احتقار زملائي لي، ويهتك الستر عن فشلي في وظيفتي. لكن هيهات ان أنجح في تفادي توبيخاته التقليدية من نوع: «أما قلت لك ان تضبط نفسك قدام زملائك وتعاملهم بشدة وحزم لماذا تعصي دائماً أوامري ولا تفرض سطوتك وشخصيتك على الغير...» فانفجر غيظاً عاجزاً عن تحمل هذا الوجه الصارم الآمر، مرتمياً على السرير في غرفتي، حيث انخرط في البكاء إلى ان تلحقني أمي حانقة شامتة: «... بينما كان رفاقك يهزأون بك دخل المدير ليزجرهم، فلم يستطع ان يتمالك نفسه هو أيضاً، وأخذ يضحك معهم. يا عيب الشؤم عليك، صرت مسخرة بين الناس...» فانهض متضرعاً جاثياً عند قدميها، وأجذبها إلى صدري ممسكاً بذراعيتها «...لا، لا، كفى أرجوك... إني بائس. لماذا ينكلُّ بي الله على هذا الشكل. لا تعذبيني يا أمي...» عندئذ يجف ريقي، يختنق لهاثي، ويرتعد بدني في رعشة من البرد القارس: انهم يجرفون الثلج علي قصداً كي يقتلوني ويطمروني تحت ركامه. أحيد مرتعباً عن يمين فيهوي علي فيض آخر عن يسار. وأظل هكذا أتجنب كتل الجليد مكزكزاً بأسناني إلى أن أهبَّ من الرقاد مردداً «كابوس! هذا كابوس!» دون أن أتوصل إلى اقناع نفسي بذلك. فأروح اشرِّع أهدابي، وأتحرى ما حولي: العتمة لا تزال مخيمة حتى اني، رغم الديوك العنيدة التي تتجاوب بغصة، ولا تعرف ان تكف عن الصياح، أرفض التصديق

أنه الفجر، إلا عندما أسمع وقع حوافر دابة تمر تحت شباكي، وجلجلة الجرس المعلّق في رقبتها، ورنين باب معدني يُفتح في البعيد.

ترى أي حافز خفي دفعني إلى الاستيقاظ في هذه الساعة الباكرة، التي لا تزال فيها وادي المروج غافية، وقد أقفرت ساحاتها وخلت مسارحها من الممثلين. بنوع ان لا يتلقى أبواق النفير أولئك القوم النيام فقط، بل كل الأرواح التي سبق لها ان سكنت هذه الأزقة والحارات. إنه الصدى ذاته يتردد في نفس الموعد والموقع كزمور عربة خيل بطل استعمالها مفكوكة عن حصانها ومتروكة في ركن مهجور، تنفض عنها الغبار، وترسل ترجيعاتها المبحوحة. إنه النداء عينه الذي طالما استجاب له أبي وعمي وجدتي، وكل أسلافي في الماضي. فالأحياء المضطجعون الآن في بيوتهم، يتساوون من حيث الغياب مع الأموات الهاجعين في المقابر.

ثم يستقبلني قرع الجرس، الذي يحمل دائماً في جعبته بعض الأخبار ينقلها للآذان الصاغية. فأشد أجفاني على هذه الدقائق الثمينة الهاربة، واستوقفها ضنيناً بها، مخرساً إنذارات الفجر التي تغص في قلبي، وتمنعني من الاستغراق في نوم لذيذ وسريع الزوال بنسبة ما هو ثمرة محرَّمة وامتياز مهدد **بالإلغاء**. من أنا؟ لماذا لا أعمل واستقر؟ كيف عساني أشق طريقي في الحياة وأؤمن رزقي؟ هذه هي التساؤلات المفزعة التي تهاجمني في أول دقائق اليقظة. لكن تفكيري بما سأفعله في المدنية ورغبتي في ان أبلّ ريقي الصادي من الماء المبرَّد في تلك الجرة المُسحَّرة في فناء الدار ينشلني من السرير منتفخاً بالأمل على درجات صياح الديك.

الهدوء ينتشر على العالم وعلى رؤوس تلال هي مسرح لأول رعشات من الظل والنور ترسلها الشمس المحتجبة بعد على نثرات الغيوم المبعثرة فوق الأفق كشموع مضاءة أو نجوم، أو شظايا ثريات متفجرة تشع بلون وردي خافت هو من جملة المستحضرات التي تحتاج إليها السماء كي تحقق الحدث الجليل الذي تتمخض عنه، والذي تشارك في مجراه الأسطوري الرائع خصلات الصوف القريبة منه، مكتسبة قيمة كبيرة، نائلة حظوة عند شخصية الشمس الرئيسية، التي يتعلق بها الجميع في لحظة ظهورها الحاسمة، ويتوقف عليها مصير النهار،

والتي تسلّط أنوارها على الغيوم الواطئة، فتدمغ نصفها بالأحمر، بينما يبقى النصف الثاني رصاصياً أو رمادياً يفقد لونه ويتحول إلى صبغتها بنسبة صعودها، ودنوا أضوائها منه، واشعاع فوانيسها كمكبرات صوت تذيع نبأ الوصول المرتقب، أو مراسيل مبثوثة في كل الاتجاهات تنشر موعد القدوم المنتظر، تترك قوافلها خلفها سكة ترابية منوَّرة، فيما تنبثق من وراء الأفق كتلة بيضاء متوهجة توهم انها قرص الضياء المرتجى. لكن لا هذه قطعة غمام هي الزبد أو الرغوة التي أفرزتها الشمس من شدة وعنف مجهودها لأن تبزغ، أو طرطشة الماء التي يقذفها غريق يحاول الارتفاع إلى السطح.

إنها مهلة من التوقع والأمل يسجد أثناءها عبَّاد الكواكب عند السفح المعتم، يترصدون بروز إلاههم، فلا ينفد صبرهم مهما تأخر، ولا يحقدون عليه مهما تخلَّف عن الموعد، بل يتقبلون ظهوره في النهاية كمِنة من لدنه وتواضع جسم. يطلق كهنتهم الساهرون عند الهياكل أضحيات عن المذابح هي هذه العصافير الذي تحلِّق نحو الأعالي كابتهالات صاعدة في وجه الشمس المحتجبة بعد، والمُوَّجهة انعكاساً بسيطاً على سحابة تظللها بجناحها الهفهاف، وتتوهج كالهالة المنثورة فوق رأس قديس، أو الضوء المسلَّط على مسرح مهجور ليعلن ان الحفلة قد أصبحت وشيكة. في هذه الأثناء يخترق الوادي عصفور ثم آخر كأولاد ممثلين يفلتون من بين الكواليس، ويعبرون الخشبة من طرف إلى طرف لا يعون ما يفعلون، ولا يستهابون حلول المشهد الطليعي الذي تشير إليه انسكابات النور. أو كأطفال يجتازون الشارع من رصيف إلى رصيف قبل البدء باستعراض مهم. تقتدي بهم طيور أخرى تغطس إلى الأعماق أو تنبثق عن الجوانب، وكأن يداً لا منظورة تشدها إلى الوراء وتمنعها من دخول المنطقة المحرَّمة. لكنها تندفع غير آبهة، عالمة في سرها ان الجميع في هذه اللحظة المباركة يتغاضون عن تجاوزاتها للنظام، بل يهللون له كأمر يبعث على الضحك، يثير حماسهم المتأهب للانطلاق، ويفرِّج عن فرحهم المكبوت.

ثم يقتحم سرب جديد فضاء الوادي تحت امرة زعيم يتلفت خلفه مستحثاً اتباعه أن: هيا! الموقف حرج للغاية ليس أمامنا إلا فرصة قصيرة كي نمرق من وجه هذه القنبلة الموقوتة. بعد قليل يفوت الأوان، ويصبح المرور ممنوعاً، وكل

المواصلات مقطوعة. عندئذ يُقبل عصفور من الاتجاه المعاكس حادياً كتيبة كبيرة، كفارس استطلع الجبهة، وجاء ليجرَّ القبيلة إلى قتال سيبدأ فور شروق الشمس، التي ستعلن بصعودها في الفضاء فوز أحد الفرقاء، رافعة أقواسها فوق رأسه اكليلاً من النصر. لكن سرعان ما يعود ثلاثة من النفر خائبين: الغزوة لم تكن بالنجاح الذي علَّلهم به الكشاف المتحمس والرائد المتهوِّر. ثمة عقبات وصعوبات لم تكن بالحسبان برزت في وجههم، فاضطروا إلى الانسحاب من المعركة، منذرين بالمصير المرعب الذي ستلاقيه بقية الفصائل، التي انطلقت منذ برهة بكل هذه الحمية والتفاؤل. أحدهم يحذِّف بجناحيه ويتوقف قليلاً. ثم يتابع سيره وكأنه يرسل نداءً إلى الرفيقين اللذين تقدماه بالتمهل قليلاً ريثما يلحق بهما، مراعاة لحالته وأخذاً لوضعه بعين الاعتبار.

الشمس الغاطسة بعد تبادر إلى بذر شعاع من النور، يخلق من الغيمة المخيمة فوقها جزيرة من الضوء تتأهب وتشعل كل مصابيحها لاستقبال باخرة تزداد وهجاً بنسبة اقترابها من الميناء. ماذا أكل هذا الانتظار المليء بالوعود والأماني من أجل هذا الأصبع النحيل من اللهب الذي ينبت على الرابية؟ نعم فان لسان النار عندما يتفشى ويعمّ سيسيطر على الفضاء بكامله، والشرارة الصغيرة عندما تهبّ وتنتشر لن يعود هناك قوة في العالم قادرة على اخماد الحريق الكبير الذي توقده. فاذا بالممثل العظيم، الذي كان الجميع مرتهنين به، يطل برأسه، فتتألق المنصة بنسبة تقدمه: نطفة يمسكها خالق خفي بيده، وينفخ فيها، فتأخذ بالنمو والتكوّن، وبالون يملؤه ولد بالهواء فيكبر تدريجياً، ثم يشرع بالصعود كسطح مدخنة مضاءة يرتفع منبثقاً من الأعماق التي كان محتجباً فيها.

وما إن تصل الشمس حتى تخنقها غيمتان كانتا تتربصان بها الدوائر عند الأفق كفارسين ملثمين كانا ينصبان كميناً عند لفتة كثيب في الصحراء، لبطل يصح توقعها ويمر في اللحظة المرتقبة، فيهجمان عليه، يكمَّان فمه، ويعصبان عينيه. ولبرهة خاطفة يلوح ان الغلبة ستكتب لهما. لكن الغبار لا يلبث ان يتصاعد، ولا يلبث العملاق ان ينتصر على خصميه، فيتبددان من وجهه كالدخان. ولا يكون من نتيجة ذلك سوى هرب بعض العصافير، التي تريد ان تتجنب الرذاذ والشظايا التي قد تلحقها من المعركة.

ويواصل الموكب الظافر ارتقاءه ببطء، وكأنه يسير في جنازة هاتين الضحيتين اللتين جندلهما دامع العين، آسفاً لأنه اضطر للجوء إلى هذا الأسلوب العنيف.

وأخيراً تزيل الشمس، وقد حققت نفسها، كل ما لم تعد بحاجة إليه من حوشيات كانت من مستلزمات ظهورها، وكانت تتركها حولها غير خائفة من منافستها، عالمة انها تستطيع ان تمحوها بلمسة يد واحدة أول ما تصل، وتقطع الوريد الذي يربط بين الجنين وأحشاء أمه، ويوثق العروة بين غيمتين بخطين رفعين كحد الخنجر، وكأنه يدشن مشروعاً حيوياً، أو يفضّ بكارة عذراء طاهرة. لكن هذه الزوائد والنوافل التي استهانت بها الشمس، ولم تتخذ أي استعداد أو تدبير احتياطي لمواجهتها، بل ترفّعت عن ان تلقي اليها بالاً سرعان ما تستقوي عليها وتأسرها في شباكها، حيث تروح تتعثر وتتخبط كمارد جبار وقع في أحابيل أقزام وضيعي الشأن يأنف عن مقاتلتهم. ورغم هذه الكبوة المؤقتة ها ان الجبل في ختام الجولة يغمض عينيه، ويضع يديه على رأسه المحني رافعاً بهما تاج الصباح.

ـ «ما كان ألذ عيشة العصافير لولا الصيادين!...»

هذه أول كلمة تبادرني بها أمي بعد طلوع النهار بمثابة تحية، ناظرة إلى الطيور التي تحط على الأرض المفروشة بحصيرة الفجر. فأشخص ذاهلاً إليها، لأنها هي في حد ذاتها عصفور نادر فريد يحلو لك أحياناً ان تروح تتأمل الألوان الرائعة الغريبة التي يصبغ بها ريشه. ثم تصرِّح، عندما تفطن إلى اني سأتوجه اليوم إلى العاصمة:

ـ «... الله يلعن بيروت وساعتها، وينجينا من فحشها. اذكر، بشهر العسل، كنا باوتيل «الأرز»، وقفت أنا قدام الشباك أتفرج على الطريق. ما لاقيت إلا بنات عن السطوح تراشق الشباب المارقين تحت في الشارع. يه! تعجبت. قلت انا بقلبي: يا ربي ما معنى هذه الحركات. سألت والدك، الله يرحمه، جاوبني: تعالي، تعالي! فوتي إلى جوّا... وافهمني القصة. قلت له: لمحت واحدة نادت على بحّار صغير عمره أقل من ست عشرة سنة قام طلع لعندها. قال لي: لا تستغربي أنا كنت في سنّه وقت وقعت بالتجربة أول مرة.

كانت الماظة بنت خالة غندورة سهرانة عندنا، خلصت السهرة طلبت مني ان أوصلها إلى البيت، وبما ان الأمطار كانت نازلة بقوة خلتني أنام الليلة عندها. . . يخرب ديارها هاتيك المرأة ما خلق ربنا أجمل منها: عيون خضر كبار ووجه أبيض أحمر. . .».

ـ «. . . وأين صارت اليوم؟»

ـ «. . . ماتت بالسل. كانت مخطوبة لابن منصور. هذا غني كبير من البرازيل، وهو الذي عمّر مأوى العجزة. أخذها إلى أحسن مستشفى، حط عليها مال الله، وما كانت تصحّ. كل عيلتها ماتت بالسل. بالآخر أحرقوا لهم بيتهم».

ثم تعلن لي، بمثابة تشجيع وتطمين إلى اني سأعثر على عمل في بيروت وأوّفق في مسعاي:

ـ «. . . أنت طول عمرك وجهك سعد. نهارَ خلقت دفق المال على أبيك وعمومتك، وكانت سنة خير عليهم. وكانت قوافل العرب تظل تعبىء وتفرّغ الجمال بالساحة من الصبح للمساء. وما عادوا خلصوا بيع قمح. ربحوا ثقلك من الذهب سنتها. يا حرام أبوك كان يعزّك لدرجة انه كان يسميك حبيب القلب. خليفتك ما كلفتنا ولا قرش، وكسب أبوك بظهر البيعة خمسين ليرة من ثريا، لأنها اشترت منه يومها كمية ضخمة من الطحين. وكانت هي تحمل شنطة كبيرة تحط فيها كل عدة وأدوات التوليد. وكنت انت دائماً تسأل: من أين جاءت اختي سعاد. كنا نجاوبك: الداية جلبتها معها بالشنطة. مرة فاتت ثريا قلت لها انت: دائماً هاتي لنا معك بنات مثل اختي سعاد. هلكنا من الضحك وقتها. . .».

ثم تنصحني بعدما انتهي من ارتداء ملابسي وأصبح على أهبة الرحيل:

ـ «صل بالكنيسة ياحبيبي وتبرّع للعذراء لئلا يصيبك شيء على الطريق، لا سمح الله، وتقصف لنا عمرنا».

فاذا ما خرجتُ من البيت راحت تتطلع اليَّ من وراء النافذة، ثم فتحت

الباب، ووقفت على عتبته تشيعني بنظرها الحبيب، فاشفق عليها. مسكينة هل تحدس شيئاً؟ هل تدري بعذابي؟ إذاً ما لها ترمقني بعطف وحنان؟ كل ما أعلمه ان قلبها يرافقني إلى بيروت.

بو سليم يفتح باب القفص الكبير، يضع فتات الخبز للدواجن. بينما مجموعته من الحمام قد تمترس بعضها على قرميد بيته؛ وهبط البعض الآخر ينقد الحب من باحة الكنيسة، التي يقبّل حائطها القندلفت سبيع حسواني، ويدخل بوابتها عائداً برزمة من الخبز، مسرعاً خوف ان يكون قد تأخر عن قداس الصباح. واصطّف فريق ثالث على طرف السطح، ترفرف واحدة منه بأجنحتها، وتقفز لتحط على حافة الشباك، فتحذو حذوها جارتها، وتنتقل العدوى إلى الجميع، ولا يهدأ الاضطراب إلا عندما تعود الهاربتان التائبتان إلى الشوار، ويكتمل النصاب، ويلتم شمل السرب بكامله، كلفيف من الراهبات بثيابهن السوداء والبيضاء واقفات مكتفات الأيدي على الشرفة حكماً في مباراة حامية تدور في ملعب المدرسة.

فهذا هوجو الهدوء المؤاتي لأفواج السنونو، كي تعزف أناشيدها بين أنقاض البيوت الخربة، ومضائق الأزقة والمباني؛ وكي تنزل عن عروشها، وتحط، كأطفال يلعبون ويسرحون قليلاً أمام عتبة منازلهم، على أديم الثرى الآمن، من حيث سرعان ما تلتحق بالأفنان ثانية كباقات من الورد، تسحبها يد لا منظورة من أحضان التراب؛ وكي تتنقل مفرفرة على الرصيف المحاذي لأسوار المطرانية المغلقة، وكأنها تطالب بنفاد صبر بفتح مصاريع الحديد المطبقة، وإعفائها من حالة الأنتظار في الخارج.

سيارة أجرة تصفّ أمام بيت هو بين القلة المضاءة في مطلع هذه الصبيحة. يفتح سائقها الصندوق الخلفي، ويشقع الحقائب مستاءً، متذمراً، سائلاً الصبي الصغير الواقف وراءه:

ـ «عندكم بعد أغراض؟! استفهم لي من أمك ان كان عندكم بعد أغراض».

هذه الدار تصدِّر الآن مغترباً جديداً. إنها لحظة الوداع المريرة، ترافقها

بنغمتها الحزينة، المفعمة بالحنين ونداءات العودة، غصات ديوك هي، حين تصمت، إغفاءة مريحة بعد يقظة مغتصبة، وهي، حين تنبعث من أحد منازل الحي الغافية، علامة تميِّزه عن بقية الحارات، ككوخ حقير يضفي عليه العبقري الفقير الذي نشأ فيه أهمية اسطورية، حتى ليتحول مع الأيام إلى متحف. إني متضامن مع أبناء قريتي الآن وأنا موشك على مغادرتها، متآخ مع المهاجر الذي تتمخض عنه هذه العائلة، التي أشاركها ألم الفراق في هذه الدقائق الحرجة، التي سبق لي ان عشتها إبان سفر سعاد ورفيق. كما ان الكراسي التي تتقدم بها الشاحنة نحو مقر المأتم هي كلمة لوم موجهة لي، لأني سأكون غائباً اليوم، ولن يتاح لي ان أحضر الجناز، وأشاطر أهل ضيعتي أحزانهم.

نجلاء زوَّجت وحيدتها الى ابن الجيران ربما كي تتمكن من القيام بزيارتها التقليدية لها كل صباح، فتجلس في تكية شباكها المطل على الطريق مدلية رجليها إلى الأرض، وتشرب فنجان قهوة واضعة الركوة قربها. وبنتها هذه أم وربة بيت لا يعدم في أية ساعة متقدمة من الفجر ضوء يتسرب من مطبخه أو غرفة نومه، تتجول صاحبة الدار النشيطة على هدي نوره الخافت، تهيىء وترتب قبل استيقاظ زوجها وأولادها. ولا يخلو من نشيش غلايات وفحيح بوابير كاز تتناهى من وراءنوافذه المغلقة، من طرطقة صحون تتجاوب في أرجائه النائمة، ومن يد تخرج لتكنس سطحه، معلنةً أنها قد باشرت تحضيراتها للنهار الجديد.

هيفاء عانس تتربع على الطزر وراء شباكها متخذة نفس الوضع الذي كانت تجلس فيه عمتها التي ماتت بتولاً هي أيضاً. وإذ تصبّحني بالخير، وتدعوني أن اتفضل وأشرب معها فنجان قهوة، يترجع صدى تحيتها في جنبات الحي المقفرة. بينما تحمِّص اختها البن الذي يتصاعد منه حريق بخاري على ايقاع هدير الطبَّاخ، مقرفصة في باحة بيت فقير، نظيف، ومزدان بأحواض الزهور النضرة، حيث يبقى تمثال العذراء الصغير المحاط بالورود مضاءً طوال الليل بنوَّاصة شاحبة.

ما مصدر هذه الوشوشة؟ اتطلع من خلال نافذة واطئة فالمح وجهاً أمرد: انه شفيق سلمان، المشهور بالأرق، الجالس في الدار بعد ليلة بيضاء، يناجي أمه ويشكي لها همومه، مدلياً باعترافاته وكأنه في عيادة طبيب نفساني. انه يعيش

منفرداً معها، ويجد فيها الكائن الوحيد في هذه الدنيا الذي يفهم ويعطف عليه. ها هي تخرج بقميص النوم تبحث عبثاً عن صيدلية مفتوحة، لتشتري له، ربما، مسكّناً لأعصابه المتوترة.

امرأة على الشرفة تشرب القهوة مع زوجها، وكأنها تعضده، تشد من أزره، وتقوّي من عزيمته قبل ان ينطلق الى ساحة القتال، مراقبةً بائع الحليب، الذي يحمل صفائحه، ويتمترس في مكانه المعهود تحت عمود الساحة. ثم تناديه عندما يخرج من بوابة بناية، ويقترب من بغلته المثقلة بالبضاعة والمربوطة بوتد، وكأنه ضيف انهى زيارته لصديقه، وها هو يستقل سيارته، ويمضي في حال سبيله، أو فارس يفك رسن حصانه المعقود بأفريز الحانة، ويرحل نحو المغامرة:

ـ «ظل معك حليب بعد؟»

فيجيبها:

ـ نعم».

ـ «من أي جنس؟»

ـ «بقر.»

ـ «أعطني نصف رطل».

القصّابون يترجلون من سيارة عتيقة قذرة عائدين من المسلخ، واضعين أيديهم وراء ظهورهم، ويخطون بتجهم وأبهة نحو دكاكينهم كجلّادين يتقدمون نحو غرف الإعدام عند الفجر. دوي كقرعات الطبل. هل هو صادر عن ارتطام الأيدي وهي ترقّ العجين على دفوف الفرّان؟ لا انه اللحام غانم عواضه وهو يهرم الكفتا بالساطور في محله المضاء كقمرة قبطان وسط سفينة هجع بحارتها. بينما يقيِّد أخوه في دفتر الحسابات، ثم ينهض ليقصّ القصبة من المعلاق حالما يقف على يده أول زبون وافد بلباس النوم. وأخيراً يكشح جلد الخروف، فتشع شحمته البيضاء الشفافة. حتى إذا ما وصل إلى منتصف عملية الشق ساعده اثنان من جيرانه في السوق على حمل الذبيحة وتثبيتها في حلقة فوق عتبة الدكان، حيث يتابع الجزّار تعريتها من صوفها وفسخها من الجوف. بينما تصفّ أمام بابه شاحنة تتدلى داخلها الحملان المذبوحة النظيفة والمجرَّدة من لبدتها.

الفرن يهدر كالنهر، يتداعب صبيته في أرجائه مرحين، في هذه الساعة الحاسمة من دوامه. ويكرعون حثالة القهوة المترسبة في قعر الركوة. يبعثون أصداء وشوشاتهم من خلفية الباب المغلق، حيث تتراءى من خلال الشقوق أكياس الطحين في المؤخرة. ويتقافزون بين **طسوت** تفيض منها الخميرة، وبين آلة تقطع قرص العجين، ثم ترسله إلى حيث يتم تسطيحه نسيجاً هلامياً كصفحة خارجة من تحت أضراس المطبعة، وجرفه على درج متحرك نحو غرفة وقود تسيرٌ محرك باخرة، يتلقفه قبطانها المعلم قبلان، عاصباً محرمة بيضاء على رأسه، ويلصقه على راحة خشب يزجّها في أتون تزمجر العاصفة في جوفه، حيث تنضج جبلة الحياة في أجلّ وأقدس هيكل. ثم يرّدها محملة بثلاثة أرغفة منتفخة شهية كحارس ينجح في صد هجوم غزاة يحاولون اقتحام برج حصين، قاذفاً بهم عن السلم الذي تسلقوه لشن عدوانهم. فيما تنبطح ثلاث رقائق أخرى فوق سعير النفق. وأول ما ينتفخ أحداها يبدو لي كبالون فرح، بل كروح تتململ وتنهض من رمسها، كزوّادة مطروحة في نصف الطريق، بل كمفاجأة ملقاة في عرض الشارع على شكل علبة مختومة يعثر عليها سعيد الحظ، فينتشلها بالصنارة، ويضعها جانباً، مرجئاً فضّ الهدية حتى وصوله إلى البيت، أو كفقاقيع من الصلصال سرعان ما ينفخ فيها فم الخالق ليصنع منها قوالب من فخار. أما شقيق الفرّان، المنتصب وسط المخبز يهلّ العجين على يديه الخبيرتين، ويمغطه على الطارة التي يطبعها على حائط التنور، من حيث لا يلبث ان يسلخها، فانه أشبه بمحارب صليبي يسحب السهام العالقة بدرعه، ويعيده إلى أمام صدره محتمياً به من جديد. ثم يقتلع العصيدة الشقراء من بئر اللهب، وينشرها على طاولة قرب الواجهة الموصدة، تحت لمبة خافتة، وبين أناس يتزاحمون في جو حميم رغم اقفار الدروب في الخارج، بما يوحي بأمسية شتائية يتجمع فيها بشر متآلفون حول دفء الموقد بقلوب فائضة بالحنان. وبعد أن يستخرج المعلم قبلان جميع السبائك الذهبية يطبق فوهة المنجم المتأجج **اتقاءً لوهجه** المحرق، متنهداً، ماسحاً العرق عن جبينه، مبتعداً ليرتاح قليلاً من هذه الحرارة الخانقة في جوار أبنائه، الذين يزن أحدهم الشطائر اللذيذة المكتنزة كخدود ريانة بالصحة، ويوّضبها في رزمات يشقعها ثانيهم على سطح السيارة المرابطة أمام المدخل، أو ينطلق بها ثالثهم لتوزيعها على دراجته، مودّعاً والده، الذي يخرج مُبيَّضاً من أم

رأسه إلى أخمص قدميه ليشرب عن حاووز يعبىء عنه كادح بقميص النوم محروم من التجهيزات المائية في بيته سطلاً كبيراً.

ماسح الأحذية يعقوب كيوان يتقدم بفطيرة ساخنة مسيلة للعاب، يقلبها بين يديه بحنان، ويقصد بها دكان السَّمان فرج قميح، حيث يودع عدة الشغل على العتبة، ويشتري قليلاً من الجبنة ليأكلها مع عنقود من العنب يغسله عن النبع. وبعد ان يمكث برهة قصيرة عند صاحب المحل، مداعباً هرته الصغيرة البيضاء **الغافية** قرب أكياس الأرز، يهبط الطريق متوجهاً إلى مركز عمله، حاملاً بيد صندوقة الدهان، وبالأخرى الكرسي الواطئة التي يقتعدها على حافة الرصيف. بينما يُنزل صبي الفرّان رف الخبز عن رأسه، ويسلِّمه للسمَّان، الذي يتولى من جهته تموين الشغيلة والعتالة. أحدهم يقرفص على العتبة يلف سيجارة، وآخر يتبضع داخل دكان هو حانة في إحدى مدن الغرب الاميركي يستعملها رعاة البقر بمثابة محطة لروحاتهم وغدواتهم، ونقطة افتراق والتقاء لهم، منها ينطلقون وإليها يعودون. ينتظر أمامها شقي عند مربط فرسه ان ينتهي رفيقه في استراحة المحاربين هذه من احتساء كأس من الكحول كي يرودا معاً مجال الأخطار.

من خلفية باب الحلواني أرى النار تهدر وتتوهج تحت دسوت كبيرة يتصاعد منها البخار، ويغلي فيها حليب هو في طريقه لأن يتحول إلى سحلب ومهلبية وقشدة كأنها صهاريج في العتمة تغذي وحدها بصمت طاقة باخرة ضخمة يأوي كافة ركابها المرفهين إلى النوم.

هيكل الحمصي جالس على كرسٍ واطئة على عتبة دكانه واضعاً قربه ركوة مغطاة بصحن الفنجان، يدخن سيجارته، ويرشف قهوته، صارخاً:

ـ «أركض أجلب اللوبياء بسرعة وإن ما لقيت حمَّانية ما عليه شيء إذا كانت عريضة...»

في وجه العتال الذي ينزل نحوه بزيه الرسمي متمنطقاً بحبلته كسفير يَشكْل وشاح الشرف من كتفه إلى خصره، معلِّقاً على صدره كل ما يحمله من أوسمة. ثم يعمد وهو أول بائع خضار مستيقظ حتى الآن إلى صفّ صحاحير

الكوسى والباذنجان والخيار والملفوف قبالة دكانه، في ظل حائط حيث تتكدس كعجائز مقرفصين تحت سور حديقة يستدفئون بشمس الربيع. وأخيراً يضع يديه في جيوبه، ويروح يقبّل أحجار الكنيسة، وكأنه أب حنون يحضّر الهدايا لأولاده النيام الذين سيجدونها عند اقدام السرير أول ما يفتحون عيونهم، فيعلمون ان هناك قلباً رحيماً يرعى مصلحة العائلة، يسهر على راحة أفرادها، ويفكر بهم حتى أثناء غيابهم وغفلتهم عن مجهوده المخلص المنزّه عن الغايات.

نور خافت يتسرب من خلال فسوخ باب مغلق: انه المنجّد وقد انكسر عليه بعض الشغل الذي يفاجئه الصباح وهو دائب على انجازه، كطبيب مناوب يقضي الليل قرب فراش مريض في حالة الخطر. والمعلم كريم العرموني أيضاً عاد باكراً من كرمه، وهو مكبّ الآن بخشوع وانتباه على آلة الخياطة يدرز عليها بذلة محدودب الظهر. أما الاسكافي العجوز والد الحلاق فؤاد حوا فانه يضيء لمبته الخافتة، يضع عويناته، ويدشن يومه بان يبدأ برفو سترته بيده المرتعشة، وهيئته المثيرة للدهشة. فكل القوم الذين أراهم الآن مؤثرون. لقد كشفتهم في ساعة غير مألوفة حطمت قشرة العادة التي كانت تحجب عني ما ينطوون عليه من جمال وشاعرية. فكأني أدخل الكواليس حيث أفاجيء الممثلين في حياتهم الخاصة، قبل ان يعتلوا خشبة المسرح.

وفي الضحى يعبر كل مستيقظ جديد ساحة القرية متوجهاً نحو حيِّز على الحائط تُلصق عليه أوراق النعوة كنشرة الأخبار الصباحية. يوجد اشعاران حديثان لهذا النهار يقترب منهم شاويش البلدية باثارة وفضول معلّقاً:

ـ «اليوم التوابيت اثنين اثنين!...»

يسأله المعلم قبلان:

ـ «يا فتاح يا رزاق من التفح وأعطاك عمره؟!...»

فيجيبه:

ـ «امرأة الحصروني من حي المعاصر».

ويروح يومىء بيديه للتعريف بالميتة، وتوضيح هويتها، والاشارة إلى الجهة

التي تسكن فيها.

أحب أبناء قريتي المتجولين في الأزقة، وأشاركهم عضوية فرقة مسرحية تقف على نفس الخشبة، حتى إذا ما أُسدل الستار ذهبنا كلنا معاً. لقد ظهرنا في وقت واحد، وسنختفي سويةً حين ينتهي دورنا في هذه القصة المسحورة. هنيئاً للأجيال التي ستأتي من بعدنا. إنها لن تُطرد كلية من الساحة كما أننا لم ننسَ المواكب التي مرت في صفوف الاستعراض من قبلنا.

«بائع الثلج يمسك بالمنشار ويشطر لوحاً مخاطباً زبونه:

- «خذ أي قسم تريد. شغلة كلها خسارة بخسارة ١٥٠ ليرة كأني لقطتهم ورميتهم بالنهر».

ثم يسحب النصف الكاسد بالشنكل، يشيله على ظهره، ويلقيه على عتبة دكان يجلس عليها عتال مشيراً إلى الموضع المناسب لانزال حمله. بينما يتحوقل على حافة الرصيف فريق من الفَعَلة يتحادثون مع القهوجي المتربع بينهم واضعاً يداً في جيبة مريوله، ممسكاً بالأخرى إذن ابريقه النحاسي الكبير. وينتظر فريق آخر رزقه على المصطبة، حيث ينعم أفراده بأول شعاع شمس طارحين عدة العمل قربهم، يدخنون، ويتمازحون مرحين. أحدهم يرفع قدم زميله، ويتظاهر بانه ينوي قلبه من الحجر الذي أستوى عليه إلى أسفل المنحدر. فكأنهم موظفون يستأثرون ببعض الوقت الطيب في المكتب قبل بدء الدوام الرسمي، أو طاقم باخرة على وشك الإبحار يتولاهم الحماس والفرح لازوف ساعة الرحيل.

دهّان يتوجه نحو الورشة بثيابه الملطخة بالطرش الأبيض وأصباغ متنوعة الألوان. وثلاثة عمال يتأبطون زوّاداتهم ممتصين أعقاب سجائرهم. مغالبين النعاس الذي لا يزال عالقاً بمعاقد أجفانهم، هارعين نحو معقل الكادحين الذي ينتمون إليه. فاذا ما سأل أحدهم رفيقه عن الساعة، وأجابه هذا الأخير:

- «إلا عشر دقائق. وقت الشغل من السبعة الصبح إلى الثنتين بعد الظهر».

تراءوا لي رجالاً على غاية من الأهمية وخطورة الشأن، يحثون الخطى برصانة لأداء مهمة جليلة كالمجوس المتسارعين لشهود ولادة يتوقف عليها مصير

العالم. يسرع ساعي البريد وراءهم نحو مقر وظيفته، حاملاً رغيفاً ملفوفاً بورقة جريدة، نافخاً في يديه، آمناً بجسده النحيل داخل بذلته الكاكية، برفقة أبنته معلمة المدرسة، المتوجهة هي الأخرى نحو مركز عملها.

الزبّال يجر النفايات على طرف الرصيف بمكنسة كبيرة: أوراق إعلانات، أكياس فارغة، علب من الكرتون! أو التنك، وورود ذابلة تفح منها رائحة الجنازات. بينما يفرغ صاحب مزرعة الخنازير محتوى صناديق القمامة في مؤخرة شاحنته الصغيرة، الراسية أمام مدخل «نزل الأمراء للمنامة» الموصد، المعلّق وسطه يد حديدية سيطرقها مسافر غريب طلباً للمأوى، أو يهتدي إليها تائه منهك يدق باب الحانة الحقيرة الضائعة في الغابة، موقظاً أصحابها النيام، مستعطياً منهم مبيتاً لليلته. ثم يوقف ابن الفرّان دراجته أمام الفندق، ويناول رزمة من الخبز للمعلمة، التي تنتظره في باب المطبخ الخلفي، مصدرة أوامرها إلى خادم يكنس الدرج، ناعساً كسكير ماجن أفاق غصباً عنه بعد ليلة حمراء.

عساف، الذي لم يكتمل ركاب سيارته بعد، جالس على مقعد أمام باب مكتب النقليات. عن يمينه سمسار ينادي:

ـ «على بيروت!... على بيروت!...»

وعن يساره سائق يليه بالدور، ويحاول تيسير مهمة زميله المتقدم عليه، كي يزيل من طريقه العقبة التي تمنعه شخصياً من الانطلاق، كأخت صغيرة على شيء من الحسن تسعى إلى توفير عريس لاختها الكبيرة الأقل جمالاً منها، كي تمهد السبيل لأن تتزوج هي. وإن عساف القابع في الوسط، حيث ترفُّ أهدابه ويخي رأسه بذل، كعانس ستخذل كل الغيورين على مصلحتها، خجولة بكسادها، وبكل هذه الجهود التي تُبذل لأجلها عبثاً، ليناجي حيناً ابن مهنته متحسراً على عهد الخير الذي ولى:

ـ «لو كان للمازوت أم لتبكي عليه!...»

ويخاطب حيناً آخر ماسح الأحذية، مشيراً إلى صندوقة دهان نحاسية فاخرة موضوعة على حافة الرصيف، لعل صاحبها غير المتمترس خلفها يعرضها للبيع:

ـ «خمّنوا له سعرها بـ ٢١٠ ليرات...»

فيستنكر يعقوب كيوان غير مصدق:

ـ «يا لطيف!... أسيارة هي؟... طرحوا للبيع صندوقة أحسن منها بـ ١٥٠ ليرة. على كل حال يجوز... اليوم كل شيء غالي...»

وفيما يصبّ القهوجي الفناجين للسائقين فيرتشفونها، والبخار يتصاعد منها ومن أفواههم، يستوقف عساف بائع الحمام، الذي يمر أمامه على الرصيف:

ـ «انتظرتك، البارحة، وما جئت. تركتني بلا عشاء حتى نصف الليل...».

فيكمِّل عنه السمسار حملة التنديد:

ـ «... حَطَّ الكأس وقعد ينتظرك إلى الصبح. الله يقصف عمرك. بعثنا الزغاليل، بعدما ظلوا سنتين بالطنجرة، فتحناها لقيناهم عائشين بعد، وقاموا طاروا...».

فيضحك الركاب لخفة دمه، بينما يطرح هو سؤاله الأزلي على بائع يانصيب يعبر من قربه:

ـ «على بيروت؟... على بيروت؟...»

وبعد ان يجتاز هذا الأخير الرصيف يتصدى عساف للسمسار بشماتة وانهزامية:

ـ «بائع يا نصيب ينزل إلى بيروت؟!...»

فيجيبه:

ـ «نعم ينزل. وما يمنعه؟».

فلقد علمته خبرته المهنية، وحرفة انتظار السراب دائماً في الصحراء، ان كل عابر سبيل هو مسافر محتمل إلى العاصمة.

وفيما يتشاجر السائقون ويتشاتمون إذا بأعمى يقطع من رصيف إلى آخر،

فيهدأ صخبهم واضطرابهم، ويهرعون نحوه بكل نخوة ومروءة كمجرمين أشقياء يصلّون للعذراء راكعين ببراءة الأطفال، أو كلصوص أفظاظ ترق قلوبهم العاتية لعجوز فقير، أو طفل مريض، أو امرأة ضعيفة. وهوذا عساف يمسكه من يده اليمنى وآخر من يده اليسرى. بينما يحمل له ثالث العصا، ويقوم رابع بمهمة شرطي السير فينتصب وسط الشارع، ويأمر العربات بالتوقف ريثما يمرق الضرير المسكين.

لكن ما ان يراني عساف قادماً حتى يتوجه نحوي ويرحب بي هاتفاً:

ـ «أهلاً... أهلاً **إشبيني!...**»

ويفتح لي باب سيارته باحترام ليجلسني على مقعدها الخلفي. ثم يفتح جارورها، حيث تشوي كومة من المال ليسلّف زميله خمسين ليرة، مستلماً منه سيجارة يودعها خلف اذنه، ممازحاً إياهُ:

ـ «ايمتى ترد لي المبلغ يا ابن الكلب؟!...»

فيما يقترب منه المعلم بركات، ويطلب منه ان يفتح الغطاء ليعاين المحرك، واضعاً يديه وراء ظهره **كمفتش في الجمرك أو الأمن العام**.

أول ما أجد المختار داخل السيارة يتفرسني بعينيه الصافيتين، ويلف بيديه الضخمتين مشلحاً حول رأسه كالعمامة، برفقة امرأته الفاقدة الوجود خلف زنده القوي، أجفل وأهم بالنزول. لكني وقعت في الفخ ولا سبيل للتراجع بعد. فأصّبح بالخير وأجلس قرب النافذة مشيحاً وجهي بجفاء، متضايقاً من الصمت المرهق المخيم فوقنا، المهدِّد، بين لحظة وأخرى، بالانفجار عن سؤال محرج يمنعني ان أكون مجهولاً، ووحيداً مع حريتي من هنا إلى بيروت.

رغم أن أبو سليم المنكمش هو الآخر على المقعد الأمامي، راغباً، بتهذيبه المعهود، القيام بواجب اللياقة معي، خائفاً بذات الوقت ان يكون ردي على مجاملته وضع أصبعي في جرحه مثلما يفعل غيري، يرسل لي تحية خاطفة ويهرب من نظري، كلص يعود إلى السجن الذي يقيمه حول نفسه اتقاءً لعيون الناس وألسنتهم، سانداً ظهره إلى الباب تأهباً للفرار والارتماء في الظلمات حالما يستفسر أول فضولي عن مهنته، ويوِّجه إليه تهمة البطالة، التي يفعل في النهار الف شيء بالمجان، ويحمل ألف سلم بالعرض لينفيها عنه: من تلاوة فعل الندامة في الكنيسة، إلى قراءة الرسالة، أو الانتماء إلى جمعية دفن الموتى، إلى تعهّد توزيع أكواب الليموناضة على رجال الدرك المتصببين عرقاً في مهرجان «خميس الجسد» على نفقته الخاصة، والتي يتكلم دائماً ليطرد عنه شبح لعنتها. ها هو يفيد امرأة المختار التي تستوضحه:

ـ «أصحيح أن سوسن رعد منضامة؟»

ـ «نعم زرتها من مدة أسبوع، وقال لي الحكيم ان حالتها ميئوس منها. ضربها زوجها وهو سكران على رأسها. صار معها نزيف جواني، ونقلوها إلى

المستشفى على آخر رمق».

ـ «الورشة تشتغل؟»

فيجيب أيضاً:

ـ «نعم أنها تصلِّح الطريق. في الانتخاب الماضي عرَّضوا لنا الدرب في الضيعة. وقفت على يدهم ونصحتهم أن يكملوا حتى بيت قبلان، ولولاي لما وصلوا إلى فوق».

بينما يترجل الضابط ويرفض السفر في السيارة احتجاجاً على تأخر اقلاع عساف، الذي ينهمك في تحميل الصندوق الخلفاني بشتى البضائع. ثم يحاول عبثاً ان يستميل ويعيد إلى الحظيرة الراكب المتمرد الواقف على عتبة الدكان، معلناً باصرار:

ـ «لا تفتكر اني زعلان من شيء، لا، لكني غيرت رأيي وعدلت عن النزلة إلى بيروت».

فيأخذ الواقفون في الساحة بلوم السائق على طمعه، واستمراره في شحن المزيد من الأغراض، التي يضعها، لضيق المكان، بين أقدام الزبائن ووراء ظهرهم شاتماً لاعناً:

ـ «قلبهم عليّ! قال! خافوا على السيارة من الثقل. يا حرام. تفوه على هذه الضيعة كلها حسد وضيقة عين».

إلى أن يفر ديك أمام الدولاب، ويسمح للعربة ان تنطلق نحو المجهول، عابرة تحت شريطة بيضاء منشورة من منزل الرجل الذي قُتل في حادثة اصطدام منذ يومين، والذي اتعرّفه الآن هو وابنته، التي طالما اثارت خيالي حين كنت المحها على هذه الشرفة اثناء رجوعي من الكروم. **وإذ امتثلني** بعد الغروب، عائداً إلى البيت، متعباً سعيداً لدخولي أخيراً مجال القرية الحيوي رافعاً نظري إلى السطح، حيث أرى الفتاة تتحادث مع رفيقتها، وتجود علي بنظرة أسكر لها وأمضي ناسجاً أحلامي، يدهشني أن «وادي المروج» علبة متجاوبة بالأصداء. كل حي ودار كل حائط أو حجر عليه بقايا من ذكرياتي. كل شخص هو بطل

مسرحي. كل مصير مادة لرواية. وكل نافذة مضاءة عند الفجر عائلة تبدأ نهارها خلف الزجاج، يتجمع أفرادها قليلاً ليشجعوا بعضهم قبل ان يتفرقوا كلٌ إلى مسعاه الخاص. يكفي لو اني أحد أعضاء هذه الأسرة ان يطلع عليَّ الصبح، ان استقبل يوماً جديداً، وان التف مع أخوتي حول نور خافت، لتذليل الصعاب والاستعداد لمواجهة معركة الحياة.

- «سقيت؟»

يسأل أبو سليم المختار عندما تقف السيارة أمام درج ينتصب على رأسه مهرِّب الحشيشة فايز السبع مودِّعاً **عميله**، الذي ينضم إلينا فيكتمل عدد الركاب:

- «نعم. ثلاثة آلاف شجرة تفاح.»

- «من أين؟»

- «سحبت من الجبل».

- «من الضروري ان نبني خزانات نحتفظ فيها بمياه الري إلى وقت الحاجة، بدل ان نتركها سائبة ومهدورة بدون فائدة».

- «عندك بعد ماعز وغنم؟»

- «معلوم. خصصتهم كلهم للمرأة. هي تبيع الحليب، تقبض ثمنه أكثر من مئتي ليرة بالشهر، وتخبىء المال لجهاز وعرس البنات».

- «إن شاء الله تكون الحارة الجديدة فاتحة خير عليكم. يا الله ما أعظمها!...»

- «ما في الحياة أفضل من ان يكون للانسان بيت خاص. يزرع له جنينة، يربي دجاجتين وثلاث أزواج حمام **ويقعد حد البحرة**».

يجيب المختار عندما تمر السيارة أمام قصر فاخر ابتناه المغترب العائد من أميركا، أحلم أنه ملكي وان جمعاً من أقاربنا يزورنا للتهنئة بعيد أمي، ويطلبون رؤيتي. وإذ أخرج لمقابلتهم مرتدياً أحلى الثياب كنبيل انجليزي اعتزل الحياة العامة، واعتكف في منزله الريفي، اطبع قبلة حنونة على رأس والدتي مُظهراً لها

تعيش وحيدة مع والدتها، التي ترقب مجيئها عند الظهر، تحضّر لها الطعام، وتجلسان معاً في المساء تتسامران، تتناجيان، وتتشاكيان الهموم. إنها لا شيء بالنسبة للجميع، لكنها معيلة أمها ومحور وجودها. إنها عانس شوهاء، لكنها تملك مصيراً، ولو مبتوراً، تلعب بمقدراته. المقابر، المعهد، قبة الجرس، البئر، النهر المحيط بالقرية، كلها معالم أثرية أغادرها بأسى، وإمكانية سعادة أتركها تفلت مني، شارداً بخيالي مع رجل يتقدم حماته وزوجته، ويمضي مسرعاً: لقد استدعوهم على عجل لتوديع محتضر من أنسبائهم، أو حضور مأتمه. وهذا نهار تاريخي في سجِّل عمرهم: أتأمل وجه المرأة الشابة. إنها تعيسة تمشي في المؤخرة، تجتر تارة أفكار الهرب، وتستسلم تارة لمشيئة الله، متلذذة بشعور الظلم والمهانة. مع ذلك أتصورها محظوظة لا لسبب إلا لأنها تعيش قدرها، تسوسه مرة، ويتحكم فيها مرات، يسمو بها نحو الأعالي، أو يهوي بها إلى الأعماق متقلباً بين خير وشر.

أرضى بقسمتي ونصيبي. أقبل بمغامرة عمري كما هي، وأحب أن أمضي بها حتى النهاية. كما أود أن أهاجر إلى أقاليم الغير، فأدخل في جلد هذه المرأة، أتقمص دورها، أحث الخطى في هذا الصباح المشهود لملاقاة حدث حاسم: مرض أو وفاة شخصية رئيسية تؤثر على مستقبلي، وأزحف خلف رجل أحبك في رأسي مؤامرة للفرار منه.

عندئذ تخرج امرأة المختار من الظل حيث كانت مختبئة وراء زند زوجها، تفتح بحركة مسرحية ورقة ملفوفة في يدها، وتعلن:

ـ «الفستق مليح للدوخة. تفضل!».

فيلتفت نحوها أبو سليم أولاً، ويأخذ حصته موافقاً دون تردد، شافياً من دواره سلفاً. وبعد أن يرفض المغترب مغمضاً عينيه برقة وحنان، يصل الدور إلى عساف، الذي يغترف، رفعاً للكلفة، وبرهاناً على أنه من أهل البيت، ودفعاً لتهمة القرف، بضع حبات يروح يزدردها بشراهة. فيرمقه المختار بعطف، ويتلفت صوب امرأته بإعجاب لأنها وفقت بين القلوب، وأقامت بوثاق الخبث رباطاً أخوياً بين ركاب السيارة.

بينما أنصرف انا إلى التشاؤم بالماعز المنتثر عند هذه السفوح، والتفاؤل بالغنم المبعثر فوق هذه الرابية؛ إلى ملاحقة كلب ينبعث البخار من فمه، ويتوغل في عزلته الموحشة التي أحسده عليها، وإلى تأمل عصفور يحلّق وحيداً فوق جدول ماءٍ منساب من الأعالي مترقرق على العشب الأخضر. وعندما يستنفد زخمه يجمد قليلاً، يضغط على أجنحته ليعتصر طاقتها المخزونة التي تقذفه إلى مسافة معينة، يتوقف بعدها. ويظل هكذا كمحتضر يزحف نحو محجته على آخر رمق من الحياة، إلى ان يتوارى نهائياً، مشيِّعاً المكاري الذي يركب حماره، ويجر وراءه ثلاثة جِمال يجلجل جرس خافت في رقبة أحدها، متعالياً فوق زعيق الزمامير وهدير السيارات، وكأنه وحده مسموع متعارضاً مع إيقاع العصر الحديث، ناجحاً في إسكات صخبه وضجيجه، مشيراً لي ان أتبعه إلى قرية هناك تبدو بصمتها البعيد والسلام المخيم في أجوائها، وكأنها تنتظر وصول مراسيل يحملون إليها أخباراً مرتقبة أو هدايا موعودة، وينتمون بركبهم إلى غير عالمنا، إذ أن قدرهم المبارك هو كل هذه المروج الخضراء، ومُرافقهم هو هذا النهر الذي ينعزلون معه، يبثونه أسرارهم، ويحبونه كصديق، عابرين الهوينى تحت هذه الأشجار، سالكين هذه الدروب، التي يعلّق عساف على حادثة الدركي الذي قُتل على جنباتها.

ـ «لا أصدق أن السيارة ضربته، وما أنخمش شيء بجسمه إلا رأسه.»

فتصرخ امرأة المختار على صوت عال، ثائرة منفعلة، وكأنها ترافع عن قضية حق في المحكمة:

ـ «لو ما كان شحاده فرح بين الحاضرين، وخبرّنا القصة المضبوطة كنا قلنا فيها وما فيها. لكن سمعنا التفاصيل الدقيقة من شحاده فرح: نهار الحادث سأل المرحوم أصحابه عن لعبة قمار مليحة. دلوه على «روضة الرعيان». سبقهم ليوقف سيارة. طلعوا بعد دقيقتين لاقوه غرقان في بركة دم. الظاهر انه أنحنى حتى يربط شريط جزمته، أصابته الضربة على مخه...»

عند ئذ يقر السائق:

ـ «معقول!»

ثم يستطرد:

ـ «تقبر الحكومة ووظائفها. العتال بنظري أحسن من مأمور الدولة. قال لي ابن عمي، وهو قائمقام المتن: تعال لأوّظفك. جاوبته: يبعث الله. حلوة الحرية. اتعب ساعة يخطر على بالي، أرتاح ساعة يخطر على بالي، وكيفما دارت الأحوال أظل اؤمن مصروفي اليومي. مدخولي اذا اشتغلت طول النهار ٥٥ ليرة: ٤٥ ليرة قسط سيارة وحق بنزين، يبقى معي عشر ليرات صافية لجيبتي، نعمة كريم. والحمدلله ما عاد علي ولا قرش دين براني.»

فيناشده أبو سليم.

ـ «عافاك على قد بساطك مد رجليك! اسمع هذه الحكاية: كان في قديم الزمان ملك طلب ان يعملوا له فرشة تكون على قياسه بالتمام والكمال، لا أطول منه ولا أقصر منه. صارت الناس تجيء من أطراف المملكة. واحد عامل له الفرشة قصيرة يقطش له رأسه. الثاني عامل له إياها طويلة يقطش له رأسه. إلى أن وصل منجِّد ذكي، وطلب منه: تمدد على هذه الفرشة يا جلالة الملك. طلعت ضيقة. أمسك قضيب الخيزران ضربه على رؤوس أصابعه، وقال له: على قد بساطك مد رجليك. جاوبه الملك: انت **وحدك برهنت انك اشطر مني!...**»

فيرد عساف:

ـ «الرجال عند حاجاتها نسوان. قررت أن أعلِّم أولادي حتى ما يصيروا مثلي. اتريدني أن أعمل مثل قيصر نمور. باع الرخصة العمومية وقعد بلا شغل. يخرب بيته هذاك من كثرة ما هو أهوج بالسواقة تشرقط النار من الصبابات وهو ماشي».

ـ «طيب من أين يعيش اليوم؟!»

ـ «امرأته تشتغل بتصفيف الشعر. مهنتها من ذهب. شهريتها ثلاثمئة اربعمئة ليرة. خبّرني انه كيفما ضرب يده بالخزانة يلاقي الانصاف والأرباع بين ثياب الأولاد. سمعتها مرة تقول له: ضيّعت خمسين ليرة، وهو يجاوبها: وما

دخلي أنا بالموضوع. يفتح عينيه قبل الضوء على السكر. فظيع الشكل أربع خمس قناني عرق لا تؤثر عليه. . . »

تعجبني هذه الطبائع الجامحة، أولئك المدمنون الذين يحققون من خلال آفاتهم المتطرفة مصيراً اسطورياً، ويغدون قصة يرويها أهل الوادي: فكأن الخمر غاية نبيلة يضحون من أجلها بحياتهم، منعزلين عن المجتمع، خارجين على قوانينه، مستشهدين إيماناً برسالتهم السامية كالفنانين الكبار والرجال الأفذاذ. . .

ـ «أما عنده مورد ثاني؟»

ـ «بلى عمه سعد يساعده من وقت إلى وقت. يخزي العين سعد صار عنده أربع بنايات وثلاث سيارات أجرة».

فأتمنى، وأنا أرى هذه العمارات الفخمة على جانبي الطريق، ان يوفّقني الله، وأصبح مالكاً عقارياً، اؤمن لأهلي عيشة كريمة، وأشيّد لهم منزلاً كهذه الدار الجميلة بالذات نؤثثه على ذوقنا، حتى ليدرجني أبناء قريتي تحت تصنيف: «نشل اخوته وعمل لهم أحسن مركز».

ـ «ألا يطلع من البيت؟»

ـ «بالشهر مرة. يقضي كل النهار بالسكر والنوم».

ـ «مع ان الست ناذرة العفة يا حرام».

ـ «هي الثانية من جهتها موضوع قابل.»

ـ «كيف انحلّت قضية اختها بالآخر؟»

ـ «تركها زوجها بعدما سحب منها عشرة آلاف ليرة، وهرب إلى البرازيل».

ـ «الله يساعد أمهم عليهم. يكفيها ان ابنها نايف أكبر حشاش. كل ليلة يسهر إلى نصف الليل، ويظل بالفرشة إلى الظهر. وأول ما يقوم يطلب خمس ليرات، إن ما أعطته ضربها. مرة تشكت عليه للحكومة حبسوه. رجعت ندمت

وعملت مئة واسطة حتى خلصته . . . »

على سطح هذه التلة الخضراء، وبين أنقاض هذا البناء المهدوم، سيرتاح فارس من العصور الوسطى، خرج مهزوماً من المعركة، ثم يوالي بعد ذلك رحلته. أما الشاب الذي يعبر بهذه الأطلال، هائماً على وجهه في الفلوات، واضعاً بندقية على ظهره، فلعله صياد أو طريد عدالة طائح في البراري، راكض نحو الجبال، التي أرنو إلى قممها متشوقاً إلى الرحيل والتجول منفرداً في البلاد المجهولة، الموجودة وراءها، الغريبة عن عالمنا، البعيدة عن همومه ومشاكله. هذه هي طريق الخلاص التي سيسلكها الخارج على القانون، فيبلغ، بعد مسيرة أيام، المرتفعات المكللة بالثلج، المغمورة بالضباب، المتوَّجة بالغيوم. ولا يقطع إلى الجهة الأخرى، حيث يبدأ حياة جديدة، إلا وقد نفد زاده، وأضرم النار بين الوهاد والشعاب، وجلس مراراً يصطلي قربها وحيداً. هنيئاً له لأنه منبوذ متمرد على كل الأنظمة، يحقق مصيراً متوحشاً عاتياً لا يخضع للتقاليد والضغوط، وينسج أسطورة رهيبة وقصة متميزة عن الحكايات العادية.

سأسلك هذه الدرب الرفيعة حتى إذا أصبحت في المضيق الكائن بين السطود الأول الأجرد وسلسلة الجبال الخلفية المكللة بالثلج، اختفيت عن الأبصار، وضعت نهائياً عن أجوائي القديمة. هناك أعيش حياة متوحشة رهيبة وطاهرة كنصاعة هذه القمم الجليلة، لا أخضع لقوانين الناس، بل لميولي الخاصة ونواميس الطبيعة السامية. وهذه هي الطريق المؤدية إلى الذروة: خط دقيق مشقوق وسط طبقات الكلس، يلتمع تحت الشمس كخيط من الحرير الأبيض امتداداً لتلك السكة المتعرجة بين شعاب الجبال، التي تغيب عن النظر بعد انحدارها عن الهضبة، لتعود إلى الظهور على مسافة بعيدة، معلنة ان هذا السبيل الذي اعتبرناه مسدوداً يفضي إلى منفذ، أن هذا الاتجاه المشكوك في سلامته يقود إلى الغاية المنشودة، وان هذا الانجاز المستحيل سابقاً هو ممكن التحقيق بكل سهولة ونجاح.

- «لا يا دولاب النحس. لا تعملها معي بنصف الدرب! أوصلني إلى بيروت. وإن ما قدرت ترجعني إلى الضيعة ما عليه شيء . . . »

يهتف السائق مضيفاً:

- «. . . مرة افتكرراكب قاعد حَدي اني على وشك الاصطدام بصخرة. برم لي يدي. ناولته أول كف والثاني. اعتذر بانه خاف من المهوار. جاوبته: موسى نفّاع أنا؟!. . . هذاك يلف المشلح على أذنيه، ويلتصق أيام البرد بالنار، ويقرّب مني ليوشوشني: لا تؤآخذني اعطني سيجارة. . . لا تذل نفسك يلعن عرضك معك عشرة آلاف ليرة بالبنك، اصرف، البس، استمتع بالحياة مثل العالم والناس، اشترِ علبة دخان من عشية، تحرّك، لاحق الراكب. لا، يقعد ينتظر ان تجيىء الرزقة لعنده. المعلم بركات يوبخه دائماً على صوت عال: تلحلح، انهز، حرّك دمك. مرة تقاتلت معه، وتعرف موسى نفّاع طولي مرتين. كنت على الموقف، وكان معي أربعة ركاب عن طريق مرجعيون. صار يقنعهم ان خط «ضهر البيدر» مفتوح حتى يأخذهم يعذبهم بلا فائدة ويردهم بعدما يدفعهم الأجرة، ويقطع لي نصيبي. هذه نذالة. زل عقلي، وعلقت أخبط مثل المجنون. أنا رب عيلة تأكل شعر الذقن، عندي أربعة خمسة أولاد، ابتعد عن الشر وأغني له. لكن الكرامة فوق كل شيء. تشكى عليّ. أخذني الشرطي إلى المحكمة، وعرّض عليها القضية. قال له المستنطق: ما عليه ذنب أبداً. إما أنه لا يطعمك، إما انه لا يوصلك إلى بيتك، أتركه في حال سبيله. . .».

إن السباق، الذي تجريه الشمس الملّحفة بالغيوم مع السيارة، هو من الشرف بحيث إنهما تتوقفان معاً، كي لا تكتسب أحداهما أفضلية على الأخرى بصورة غير شرعية، وكي تتفوق إذا أمكن بمجهودها الخاص، وبالحق، الذي سيكون عادلاً معي أيضاً، ويتركني أحقق المصير الذي أهواه. فالورود البرية من كل لون والأعشاب المنثورة حول خطوط السكة الحديدية هي زينة مفروشة على الأرض موطئاً لأقدامي، تفقد أهميتها بعد ان يتجاوزها القطار، الذي لم يأتِ بعد، لكنه على وشك المرور، لذلك تظل محتفظة برونقها بل تكتسب قيمة اضافية. والقرية الغارقة في الضباب لم تكن ظاهرة قبل وصولي، لكن عندما دنوت منها انبثقت من تحت التراب لتدعوني إلى الارتماء في حضنها الرحيم، حيث تلفني بكفنها الأبيض، وتغور معي من جديد إلى الأعماق، وهناك تخفيني عن العالم والناس، وتحميني من الشرور والأخطار.

حتى لأكاد أفتح الباب واتقافز فوق الجلول مخترقاً طبقات البخار نحو قاع

الوادي، الذي تتقدم أشباح الهبال عن جانبيه لتلتحم مصاعدةً دخانها نحو السحاب، الذي يمتصها، مغتنياً بشحنة جديدة، يروح يرسمها أشكالاً غريبة في الفضاء، حيث يزحف جيشان من الغيوم فوق الجبل في اتجاهين متعاكسين. الأول يمضي بصمت وجلال نحو غاية محددة يؤمن بحتمية بلوغها، فلا يلتفت وراءه إلى كل هؤلاء الشامتين، الذين يقولون في سرهم انه لن يصل، لأنه يعرف قدره ويذهب لملاقاته ببطء واصرار لا يلوي على شيء. أما الثاني فلقد قصرّ عن الهدف، وعجز عن الركون إلى مكان، وهو يعود خائباً، يهز أكتافه علامة استحالة النجاح، ويهبط المنحدر بذل وانكسار مطأطئاً رأسه وسط عاصفة من غبار الهزيمة، لائماً الغيوم الأخرى الساذجة الغافلة عن الأخطار التي تنتظرها والعقبات التي تسد في وجهها المنافذ، المتسارعة في نفس الطريق الذي يرجع هو منه، متقهقراً، محاولاً بابتسامته الرواقية الصفراء ان يثنيها عن عزمها، وينصحها ان ترتد وتتعظ، وتأخذ درساً وعِبرة من إخفاق الذين سبقوها.

بينما يرجوني السائق ان أناوله طاقية منسية في مؤخرة سيارته، يأخذها بين يديه، ويقلّبها متسائلاً:

ـ «قدِّروا سعرها! تركها من يومين راكب، حرق ديني أخو الملعونة وهو يكح حدي. هيئته مريض. ما لبستها. فزعت ان يعديني. نحن غلطنا تركنا الأغراب يدخلوا ضيعتنا. حطهم وانزل فيهم الضرب حتى يرحلوا!...»

يتكلم هكذا بصوت مختنق من الحنان، لا سيما عندما يقرّه المختار:

ـ «معك حق.»

وعندما يرى كل هذه العيون الموافِقة تواكب حديثه، متآلفة في قلب هذه الأخوَّة الروحية التي يقيمها العدو المشترك بين الركاب، الذين يمدحهم عساف لمجرد انه يذم أضدادهم، مسبغاً عليهم كل الصفات التي يسلبها من هؤلاء. حتى لتنبري السيدة للخطابة:

ـ «أمس زارتنا امرأة من «روضة الرعيان» حاملة ابنها. سبحان الله وجوههم غير شكل غير شكل. تلتفت إلى ولد من عندنا ينفتح له قلبك. بينما طفلهم تقرف، صدقني، ان تبوسه...»

لكن في حين يرمق المختار امرأته بإعجاب، **سعيداً للصدى** الطيب الذي يتوقعه لتصريحاتها، يحتج أبو سليم، ، عاجزاً عن ضبط نفسه:

ـ «مع ان نقطة الماء التي نشربها من نهر «الكرمة» لا تغيِّر وجوهنا. . .»

ـ «يا عيب الشؤم. إذا كنت أنت لا تعرف بعد انها تغيِّر وجوهنا لنرفع **العتب** عن الغريب. . .»

ثم تتهيَّب ويهدأ صوتها، متخشعاً كصلاة محارب صليبي، مرتجفاً كصوت الخوري أثناء الكلام الجوهري.

ـ «بواسطتها تحل نعمة الله فينا.»

وترتد إلى خلف بغضب راسمة إشارة الصليب، بينما يرسل عساف من وراء المقود نظرة شزر نحو أبو سليم الذي يرسم على شفاهه ابتسامة المغلوب على أمره، كأنه يعني بها: ماذا استطيع أن أفعل ضدهم؟لا يحق للعاطل عن العمل ان يبدي رأياً، وإلا نكأوا جراحه. لكني أغفر لهم لقلة إدراكهم.

عندئذ يتوقف السائق على حافة الطريق أمام بائع مقرفص قرب بضاعته، ويسأله عن سعر الخس:

ـ «مثلما يأمر خاطرك.»

ـ «يعني؟!»

ـ «الأربعة بليرة».

فيترجل يختار باقة يقلِّم قرمياتها الموحلة، ويضعها في كيس يرده إلى السيارة المشرفة على أحراش من الصنوبر تغطي جوانب الوادي العميق متماوجة بألوانها الخضراء الغامقة أو الفاتحة، و الصفراء المتوَّجة ببعض أحمرار أو المشوبة ببعض خطوط ليلكية تخبئها البنفسجات بين الصخور. لو تدهورت سحيقاً إلى هذه الأغوار الرهيبة لما أسفت أبداً، لأني سأستقر بين أحضان هذه الأشجار وفي هدأة هذه الغابات. فأنا من الأشخاص الذين يملك الأخضرار عليهم مفعولاً سحرياً عجيباً. أموت وسرعان ما أُبعث حياً تحت هذه الأفياء. وفيما يكون الآخرون قد

طووا صفحتي نهائياً، انخدعوا بوفاتي، وشطبوا اسمي من دوائر النفوس، إذا بي أنهض وقد عادت إليَّ الروح وتبلسمت جراحي. ثم أجلس على حافة هذه الدرب الضيقة إلى ان تمر بي عربة كتلك التي يعبر بها الآن، متبوعاً بابنه، طنبرجي، سيقف لي ويحملني معه إلى ضيعة صغيرة معمَّرة هناك في جوف الوادي، نصلها أخيراً، فيتجمع حولنا القرويون يرحبون بقدومي، ويدهشون لهذا الغريب الذي هبط عليهم من المجهول مسافراً بلا أمتعة ولا هوية آتياً إليهم ليصنع حياته من جديد.

نعم سأركض بين الوهاد واخترق الهضاب حتى أبلغ تلك الجنة الضائعة على سفح الجبل، أتلصص من وراء زجاج النافذة، علني أفاجىء بعض سكانها آخذين في عيشتهم المنزلية الهادئة، التي أطلب مشاركتهم فيها، متناسياً سيرتي الماضية وارتباطاتي السابقة. إنها سهرة الميلاد وأهل البيت يستعدون للخروج إلى قداس منتصف الليل. لكنهم يضطرون، عندما أدخل، إلى تأجيل مشروعهم ريثما يعطوني مكاناً قرب المدفأة، يقدمون لي الطعام، ويسألوني ان أخبرهم قصتي، التي سارجىء سردها لأقوم بمرافقتهم إلى الكنيسة. سوف يحبني أبناء هذا الوادي المهنوء متفهمين وضعي بعطف، لأنهم أناس طيبون لا يراود الشر قلوبهم، يحيون كما في الأحلام عهداً آمناً كقراميد سطوحهم الحمراء، سعيداً كخضرة مروجهم وبساتينهم الزاهية بالأمل. وسوف يمنحوني مأوىً كهذا الكوخ الصغير المغمور هناك في الظل، وحقلاً كهذه الفسحة من السندس المشعة تحت في الأعماق.

الأشجار جمهور على رصيف المحطة؛ القرية قطار يطل منه مسافر عزيز يلّوح بالمحرمة مودِّعاً، فأركض للحاق به عله يسحبني بيده ويأخذني معه؛ والدرب المؤدية إلى تلك الربوع هي نقطة التواصل التي سيتم بفضلها اللقاء بيننا، افتش عنها بنظري كالغريق الباحث عن قشة النجاة، مغتبطاً أخيراً لعثوري عليها، وكأني امسك بطرف حبل سينشلني من البئر إلى نور السعادة الأصلية.

ثم تتمزق فجأة أغشية الواقع عن مشهد وهمي. إذ تنفرج الأشجار كستارة من القصب عن مئذنة عالية تنتصب وسط قرية بعيدة خارج عالمِنا العيني وعصرنا

الراهن، يُقبل من صوبها خيَّال على صهوة جواد أبيض هو طريقة المواصلات الوحيدة السائدة، طالما اني خرجت من إطار المدنية الحديثة، وانتقلت ضائعاً بين الحقيقة والخرافة إلى عصر الفروسية الأسطوري.

هذه واحة للسلام وسط أرضنا المضطربة. إنها مجرد رؤيا أو سراب يتبخر ويزول بين طرفة عين وأخرى. لم تكن موجودة من قبل، لكنها ظهرت فجأة أمامي كالأعجوبة، لتدعوني إلى الانطلاق نحو فرص جديدة، وتعدني بأن هناك ركناً للفرح لا يخضع لقوانين هذه الدنيا استطيع أن الجأ إليه.

ـ «بو سليم لمحتك، أمس، على عتبة الحلاق، قلت لك مرحباً ما سمعتني...».

يهتف المغترب لاكزاً عن يمينه، غامزاً عن يساره كما ليناشدنا: شاركوني في هذه اللعبة المسلية، ودعونا نضحك قليلاً، فيتجاوب معه عساف الذي يعلّق هازئاً:

ـ «كان عنده شغل إلى فوق رأسه كل يوم ينتظر ان يفتح الحلاق حتى يفوت يقعد، وكأنه موظف واصل إلى مكتبه في السراي. يعلّق برنيطته كأنه من أهل البيت، وينساها قصداً حتى يصير معه حجة ليرجع ثاني نهار...»

فيضحك الركاب، ويمتقع لون أبو سليم، الذي يجمد مكانه لائذاً بالباب ممسكاً بالرتاج، وكأنه حقاً سيفتحه هذه المرة ويرتمي في الظلمات. ولبرهة يصمت مذعناً مستسلماً. ما فائدة المقاومة قضي الأمر، ووقع الذي كان يخشاه. لكنه يعود إلى الحديث كي يرأب الصدع، مراكماً الكلمات فوق الاهانة عله يطمس معالمها، ويمحو آثارها من بالنا، مستفهماً من عساف:

ـ «أبوك كيف حالته؟»

ـ «الحمدلله».

ـ «ما عادت رجله ورمت؟»

ـ «أقل من قبل. لا يداري صحته، يا عمي، مع ان معه ملوحات وسكري. الرز يضره ولا يقبل ان يذوق البرغل. الخبز يضره ولا يقبل ان

يخفف. كل يوم يمشي إلى «المحطة» إلى عند أولاد خاله. يلعن دينه ودين أولاد خاله. بالآخر قلت له: يا أبي إن ما انتبهت لحالك أحطك بالمأوى. هذيك السنة دفعت عنك ٢٥٠٠ ليرة على العملية، وأنا امكانياتي ضعيفة. الله يلعن العرق، قتله العرق...».

- «كل الناس تشرب».

- «أي لكن هو غير شكل. قضى حياته كلها سكران.»

كل شرفة أمر بها حلم بمصير جديد. كل بيت ركن آمن اتنسك في عُلاه للكتابة، وأنذر نفسي في محرابه لخدمة هدف مثالي. يثيرني كل شباك، كل باب، كل مخفر درك مغلق على نفسه، منعزل وسط هذه الفلوات الموحشة، التي تغريني بالحياة الهادئة المتوافرة بين حيطانها، حيث اتخيلني جالساً قرب المدفأة، موصداً نوافذي على العاصفة، أو زاهداً عن الدنيا اعتكف في حرمة صومعة هي هذا البيت المطوَّق هناك بأشجار السرو من كل جهة.

حتى إذا أباحت هذه المنازل عن أسرار الضاحية الدفينة، وتعرَّت أمامي، خلال لمحة خاطفة، عن سراب من الماضي في الحاضر هو سراي قديمة غنية بكل جلال وأحلام التاريخ، تصورت الأهالي في القرن السابق يلاحقون معاملاتهم داخل جدران هذا المبنى المتآكلة، وبين أروقته المتقوضة، فزادني الشعور بهشاشة الحياة وزوال كل هؤلاء البشر، الذين تزاحموا بين هذه الردهات المهجورة في جيل ما، رسوخاً في الوجود الذي لا أزال استمتع بنعمته.

- «تعديل قانون الإيجارات».

يزعق موِّزع الجرائد، ماراً بين السيارات، عندما ندخل بيروت، حيث يفرح السائق كموظف انتهى دوامه أو تلميذ دق جرس انصرافه. بينما أكاد أتقيأ إن قرأت عناوين الصحف التي يلوِّح بها الباعة أو اللافتات الملصقة على أبواب المتاجر، والمرفوعة على شرفات المكاتب؛ إن رافقت الأغنية المنبعثة من المذياع إلى آخر مداها أو فهمت معنى كلماتها؛ إن رأيت سحنة المختار الضخمة الحمراء النابضة بالصحة كوجه بقرة سمينة مطمئنة إلى علفها، أو نظرت إلى لحية عساف الكثة ويديه الملطختين بالشحم، والكعكة التي يأكلها بشراهة مثيرة للعجب.

الفجر ينتفض على بلاطات المرفأ في رعشات من الأمل، أخطو فوقها وكأني أسير في مدينة أجنبية لملاقاة مصيري المجهول، بمحاذاة مستودعات عابقة برائحة الخيش، أبحث عبثاً عن لافتات تعلن عن نوع البضاعة المخزونة فيها. لكن العينات المنثورة على العتبات تُغني على كل ايضاح: رز، قمح، طحين، ترابة. يقصدها مستخدم تجاري على دراجته حاملاً لائحة بيده؛ تعسكر أمامها عربة هي كناية عن مطعم صغير متجول مليء بشتى أصناف المأكولات والسندويشات وتتدلى من حيطانها صنابير الماء المفتوحة دائماً ليشرب منها ويغتسل العمال والحمّالون.

الرافعة تُفرغ حمولة باخرة «هسبريس» الضخمة على الأرض. فيتقدم رجل بآلة تشيل البراميل بخرطومها، وتحطها على عربات مقطورة خلف بعضها إلى جرَّار يقوده شاب، عندما يتأكد ان جميع الوحدات وراءه قد امتلأت، بينما يجلس عتال في مؤخرة الموكب الذي يتجه نحو المستودع رقم ٤ المشرَّع على مصراعيه. هناك يقف موظف عند الباب يقيِّد الصادر والوارد، وتصفّ شاحنة يدأب الشغيلة على إنزال أكياسها التي يلقيها رفيقهم على أكتافهم، فيحنون ظهورهم، ويدخلون العنبر رازحين تحت عبئها الثقيل.

ثم تنبثق من الأعماق شبكة هائلة تلفت نظري إلى التحذيرات المتكاثرة على الأعمدة والجدران «ممنوع الوقوف تحت سحبات الونش». فأحيد عن الصيد الوفير الذي تستخرجه البكرات من قاع السفينة، وتضعه رأساً في الناقلة المرابطة على حافة الرصيف، حيث تُراكم الورشة أخشاباً يهبط بها فريق من الباخرة على عبَّارات سميكة يصعدها زملاؤهم للتزود بألواح أخرى. بينما يتناقل فريق ثالث دواليب من المطاط يدحرجونها أمامهم، ويشقعونها على حافة الطريق.

لقد تحقق لعيني أخيراً ما كان من قبل فكرة مجردة. كنت أعرف الباخرة من الصور ومن بعيد زورقاً من الورق في بركة ماء، وها هي حيالي الآن مدينة من الفولاذ، وعالم قائم بذاته. كنت اتصور المرساة وتداً صغيراً يُلقى في الميناء فور الوصول، فاذا بها كتلة ضخمة من الحديد تبعث أمامي صور المرافىء البعيدة التي حطت فيها، والمدن الغريبة التي زارتها، وما جابته من بحار، وارتادته من آفاق مجهولة.

حتى الحبال التي تشد السفن إلى مرابضها، والمستنقع الآسن الذي يفصلها عن اليابسة، والذي يشبه باخضراره معصرة من الزيتون خصبة ببذور السمك، تشكل حوافز جديدة لخيالي: اني قبطان يعتلي السطح في الليلة المقمرة ليراقب النجوم بهذا المنظار الكبير، ويدير الدفة وحده، ثم يتمدد تحت الدولاب الأبيض المعلّق على باب قمرته المنعزلة، متأملاً روعة السماء، وامتداد اللانهاية، مطمئناً إلى قارب النجاة المدلى من الصارية، مدخناً غليونه في استراحة قصيرة يعود بعدها إلى مكانه خلف المقود والبوصلة. لسوف نطأ الشواطىء المجهولة، ونؤم الحانات العجيبة، فنلتقي فتيات مدهشات، ونعيش مغامرات شائقة. كما هي الحال بالنسبة لهؤلاء البحارة من طاقم السفينة، الذين تمشطوا، ارتدوا ملابسهم، وراحوا يجتازون السلم نحو هذه المدينة الجديدة، منطلقين بأمل لتمضية نهار من الحرية حافل بالاكتشافات المثيرة. أحدهم يسلّم على صديقه اللبناني، الذي يجذف في مركب صغير يدنو من البارجة كبرغشة تحوم حول ذيل أسد. ثم يربت على كتفه ويسقيه جرعة من قنينة كحول نادرة يخبئها في جيبته. لربما تعرّف عليه في رحلة سابقة فاستعذبا معاً هذا المشروب.

ربان السفينة الثانية ينتصب على المنظرة بزيه الرسمي، مشرفاً بمرح ورضى على الحوض المفرغ من البضاعة. لقد أنجز مهمته بسلام، وبعد قليل ينشر قلاعه. إن مزاجه الرائق هذا الصباح يسمح له ان يتبسط مع عتال يؤشر بيديه قربه، وان يبتسم برحابة صدر لحركاته الايمائية. بينما ينعزل في المؤخرة بحار تعبّر لحيته الكثة بما فيه الكفاية عن نزعته الغجرية واحتقاره لتقاليد المجتمع. انه ينسحب دائماً إلى هذا الركن عندما ينتهي من عمله. لا يتكلم، ولا يتعاطى مع أحد. إنه من تلك الطبائع العنيدة المتوحشة. اتصوره شاباً

أوروبياً جامحاً ملكه فجأة جنون المجازفة، فقرر ان يترك كل شيء وراءه: حالته الميسورة، عائلته العريقة، مركزه المرموق، رفاهيته، وان يهرب إلى حياة البحر المتقلّبة، بلا ماضٍ، بلا وطن، بلا أهل، ولا أي نوع من الارتباطات. فلقد حطم أغلاله وتحرر من شتى الضغوط الخارجية، وتجرأ على ركوب المخاطر، والتصرف وفقاً لقوانينه الخاصة.

الصفارة الرخيمة تنطلق مؤذنة بموعد السفر، منذرة البحارة المبتعدين على البر أول وثاني وثالث مرة، مؤكدة على حتمية الاقلاع، مناديةً به قدراً صارماً لا مرد لأحكامه، معلنةً ان المكوث على اليابسة ليس تحجراً نهائياً لا انسلاخ عنه، بل حالة انتقالية، وان هناك عوالم أخرى، وإمكانات متنوعة. لا، ليس الرحيل والهرب بالأمور المستحيلة. فها الباخرة تمخر العباب. ينهض العتال المستلقي بين الأكياس في المركب الذي انسحب إليه فور ارتفاع خيوط الدخان، يلّوح بيديه، ويهتف مودّعاً صديقه القبطان:

ـ «مع السلامة! مع السلامة!...»

وها هي تتوغل وتختفي في البعيد يشيّعها رجل جالس على جذع حديدي وسط ركام الحبال المحلولة.

السفينة الثالثة المكتوب على قيدومها «بريجيت ـ بناما» مهجورة كلية. تحلّق طيور النورس قرب صواريها كما يحوم الذباب حول قطعة حلوى، والفراشات حول القناديل. وتتدفق مياه مجاريرها ملفوظة من الثقوب الجوفية. اتمنى ان أصعد إليها، وأختبىء في أحد أقبيتها. وعندما يعثرون عليّ يكون قد فات الأوان، وأصبحنا في عرض المحيط. فيرضخون للأمر الواقع ويتركوني، لقاء خدماتي، أسافر معهم، أرافقهم إلى البلاد العجيبة، أشاطرهم المفاجآت الطريفة، وأذوق طعم المجهول الذي هو خبزهم اليومي. وهكذا نعبر قناة بناما ونبلغ أميركا الجنوبية، ونحاذي السواحل النائية.

«سفلتينو ـ فينيزيا» **الفخمة البيضاء، المرسوم عليها** أسد البندقية هي بدون شك باخرة سياحية. إنها ترفع العلمين اللبناني والايطالي وبيارق صغيرة لعلها تشير إلى الثغور العديدة التي مرت بها، أو إلى جنسيات ركابها المتنوعة. يقف في

مقدمتها القائد ببزته الزرقاء يتأمل مع مرافقيه هذا الصباح الجميل الذي أشرق عليهم، وهذه المدينة الغريبة التي فتحوا عيونهم عليها مبتسمين بدهشة. من يعلم أين يلقاهم المساء. وتحت أي سماء ساحرة يطلع الغد على هذا المعاون، المنطرح قرب امرأة بالمايوه قد تكون زوجته أو خطيبته، أصطحبها معه لتسليه في الرحلة، وتؤنس وحشته. وما هي المشاريع التي يرسمها هؤلاء البحارة الذين يثرثرون ويلعبون الورق على المتن. أين سيتعشون؟ في أي ملهى سيمضون ليلتهم؟ وفي أي خمارة أو مبغى سينتهي بهم المطاف؟

هنيئاً لكل شخص يتخذ له من السفن بيتاً ومن المياه موطناً. هذا ما الهج به حين ألمح من خلال كوة صغيرة مصباحاً يضيء رجلاً بلباس النوم، وامرأة تسدل ستارة قمرتها؛ وركاباً محظوظين يسترخون على الكراسي: امرأة تكتب رسالة، وأخرى تقرأ في كتاب. طفل يتسلق الشرفة ليرمي تفاحة إلى البحر، وشاب لوّحته الشمس يدخن غليونه مستنداً إلى الحاجز، يتحدث حيناً مع فتاة، وينظر حيناً آخر إلى الحركة الناشطة تحته على الأرض. جميعهم يتساوون في النعمة: العجوز الذي يتصفح جريدته، والصبية الحسناء المشرئبة في الأعالي ساهمة بنظرها نحو الأفق البعيد، تعانق بنشوة هبات الريح المتطايرة بشعرها الطويل، وينضم إليها عريسها بعد قليل ليستمتعا معاً برحلة شهر العسل. الرهط المؤلف من خمس نساء والعائد من جولة خارجية، والزوجان اللذان يهبطان السلم متوجهين نحو المدينة، واجمين، معرضين عن سائق يلاحقهما مشيراً إلى سيارته المرابطة على المدخل هاتفاً:

ـ «تاكسي! تاكسي!»

ثلاثة بحارة يتقاذفون الكرة بأقدامهم على الطريق. إنهم من هواة هذه الرياضة، ولا يجدون فرصة لممارستها إلا في أوقات متقطعة تتيحها لهم الوقفات القصيرة في الموانىء. يتفرج عليهم طاهيهم من فوق بمريوله الأبيض كأم تراقب أولادها يلعبون أمام عتبة البيت. إنهم يتصايحون برطانتهم الأجنبية بحماس ومرح حريصين ألا تقع الطابة في البحر. يُطل عليهم، من كوة مفتوحة في أسفل الباخرة، زميل مشعث الشعر يأكل قطعة من الخبز بيديه الملطختين بالشحم، ويرمق، بحنين إلى الهرب، هذه الدنيا الغريبة التي دخل أجواءها، ناقماً على

الركاب المرفهين المتمددين على السطح يتشمسون براحة، بينما يكدّ هو ويشقى في الأعماق المظلمة، كمجرم يكفرّ عن ذنبه بالتجذيف في أحد مراكب العبيد، ويجسّد بنظراته كل ثورة أبناء طبقته البائسة على مضطهديهم وأسيادهم الأنانيين.

عتال متقاعد تنم عضلاته المفتولة وبنيته المتينة عن طول تمرّس بحمل الأثقال، يزور مسرح نشاطه القديم، مستعيداً ماضيه بحنان، بعد ان منعه أولاده عن العمل، وورثوا هم أمجاده الغابرة. فيجلس ممشطاً مهندماً على برميل يرنو إلى باخرة يطلي الدهانون هيكلها القذر، وتنقل إليها رافعة الصناديق من شاحنة يقف فيها شاب مبتور الذراع، يَشكل كُم يده المقطوعة بزناره، ويؤشر بالأخرى حول كيفية تفريغ الحمولة. يبدو ان حادثة عمل قد شوّهته فأشفق عليه زملاؤه، وما أحبوا ان يكسروا بخاطره، ويقطعوا برزقه، فأوكلوا إليه هذه المهمة التي لا تعود عليهم بأية فائدة عملية.

عندما أعبر تلال البضائع المشقوعة على الرصيف: القرميد الأحمر المغلّف بالنايلون المطبوع عليه: مضانع مرسيليا؛ الواح الخشب المتراكمة عالياً والعابقة برائحة النشارة؛ صناديق الويسكي المرسوم عليها اسكوتلنديا يرقص نافخاً في القِرَب، والمنبعث منها لذعة كحولية نفاذة؛ وبراميل الزيت، أغادر المرفأ مقتفياً أثر بحارة ينطلقون نحو المغامرة في المدينة، مرحبين بتباشير العطلة، ويتلفتون حولهم مسحورين بكل شيء. يتقدمهم شاب يعرف شوارع بيروت من رحلات سابقة، يهدي رفاقه في الاتجاهات الواجب سلوكها، ضاحكاً حين يستدير فيجد في الوراء، أحد اتباعه يضلّ السبيل. لا شك ان هؤلاء التلاميذ الهاربين من المدرسة سيسكرون بالحرية، ويقضون نهاراً ممتعاً. لكنهم سيدفعون الثمن غالياً، وهم يُساقون من جديد إلى أغلالهم مع حلول المساء. اتساءل وأنا أراهم يتفرسون وجوهنا، الا يستهجنون سحنتنا العجيبة؟ لا أنهم لا يستغربون شيئاً لكثرة ما قابلوا من خلائق، وشاهدوا من بلاد. كما أن هيئتهم لا تثير فضول أحد لأنها فقدت صبغتها الخاصة وانطبعت بخصائص الشعوب التي مروا بها، حتى لفقدوا قوميتهم وهويتهم الأصلية، وأصبحوا بحق مواطنين عالميين.

يبدو ان السلة الكبيرة هي جزء متمم لكيان هذا العتال، الذي يعلّقها على ظهره كمحكوم بالأشغال الشاقة مكبّل بالأصفاد مدى الحياة، ويضع في محفظته

نقوداً انتهى من قبضها، مفترقاً عن زميلين له يلقيان الحبال على أكتافهما كالبنادق، تجمعهما وحدة البؤس والمصير، فيتخاصران متضاحكين، ويتوجهان نحو كراسٍ واطئة يخصصها القهوجي على الرصيف لراحة الكادحين، ويجلس وسط مضافته نصف الشاغرة، منتظراً الزبائن، يلتف حوله بضعة رواد مخلصين يتمطون، ويتحسسون تورّماتهم، وبطات أرجلهم، كفرقة من الجنود تتأهب لخوض معركة جديدة.

لكن لا هم ولا أحد غيرهم يتحرك لمساعدة شاب لا تنجح يده الضاغطة على جبهته في وقف النزيف. الدم يقطر من انفه ويسيل على ذقنه دون أن يسأله مطلق شخص، حتى على سبيل الاطلاع ما به. ولا يتلقى ايضاحاً عن أقرب صيدلية إلا بعد اجتيازه صفاً طويلاً من الباعة اللامبالين، الواقفين على عتبة دكاكينهم.

ـ «ضرير مكفوف! الله يرحم موتاكم ولا يحرمكم بصركم يا رب!»

ينادي، وسط الزحام، شاب أعمى متحسساً بعصاه الأرض، حيث تتكوم الصحف بعناوين ضخمة تجتذب الكثير من المارة، فيتجمعون حول الموزّع الصائح بأعلى صوته مصفقاً بيديه:

ـ «تعليق المشانق على البرج. نهار الأحد الساعة تسعة تعليق المشانق على البرج!...»

بينما يصرخ بائع اليانصيب:

ـ «دارت الدواليب. حطوا يدهم على الدواليب. الليلة تمشي الدواليب!...»

وتردد شحاذة مجلببة بالسواد، حاضنة طفلها، بصوت يائس من رحمة الناس، ذليل من كثرة الطلب، مشيرة إلى ابنها الآخر، المشجوج الرأس، المضمَّد الساق، المسجّى أمامها:

ـ «مريض مريض كرامة لله مريض. الله يعطيكم الله يرّد عنكم».

ثم تتشبث بأذيال عابر هاتفةً:

ـ «الله يخلي لك شبابك!»

فينشل يده بغضب متهكماً:

ـ «شبابي؟! الله يبارك لك فيه. ما طلع لي منه إلا وجع الرأس».

ويُشهد رفيقه على صدق حكمته متأبطاً ذراعه.

إني أتأمل الورود ببهجة الطفل مرتاحاً إلى الحديقة العامة تبعث بنوافيرها واحةً وسط الصحراء، وتزرع باخضرارها قطعة من الريف في قلب المدينة. يصفُّ أمام حدائدها ماسحو الأحذية تتقدم منهم متسوِّلة بطفل جائع وكأنه صندوقة لجباية الحسنات، فينتهرها زعيمهم بوقاحة:

ـ «ثروة هارون الرشيد لا تكفيكم اليوم»

ويعقّب حين تبتعد عنه ضاحكة:

ـ «يخلي لي سن الذهب!»

الشاب، الذي يفتح الدليل في كشك التلفون، يضع السماعة على اذن ويسد الأخرى بأصبعه، هل يكالم أمه في القرية، أم حبيبته في العاصمة؟ المهم انه يستعيد انسانيته وسِماته الفردية داخل هذا القفص الزجاجي العازل عن الأمواج الهادرة حوله دون وعي، وعن القطعان الزاحفة في الخارج مسلوبة الهوية والإحساس.

على الضفة الأخرى للشارع أجد شرطيين ينظمان محضر ضبط. وفيما يسترضيهما البائع المتجول عبثاً، تتقدم امرأة من عربته للشراء فتدمع عينه تقديراً لهذه البادرة الطيبة التي تؤكد ان عملاءه لم يتخلوا عنه في محنته، وتحسراً على هذا التعويض المعنوي الذي لا يجدي نفعاً طالما ان أرباح النهار كله لا تكفي لتسديد الغرامة.

ـ «كازوزة... لَبَن مصقع!...»

نداء منبعث عن بسطة تنتصب وسط الشارع وتغصّ بصحاف المهلبية، وصناديق المرطبات، وأكواب العصير، وشتى أنواع الثمار المتوّجة بنثار الثلج يَرِد

منهلها العذب عسكري يشرب قنينة كولا، وامرأة تأكل صحن رز بحليب.

ـ «الكبوت بثلاث ليرات وباقي القطع ليرة ليرة!...»

يُعلن شاب يدلل على بضاعته في الزاوية زاعماً لزبون يعاين المعطف، يقيسه، ويفاوضه بشأنه، بأنه:

ـ «مبطّن كله بالاسفنج».

بينما يتجمع فلاح يحمل سلة مع رفيقه حول بائع يجتذبهما بمظلة يتفنن في سحبها من علبتها كحاوٍ يُخرج حيةً من مخبئها. ثم يفتحها ببراعة، محدثاً ضجة مفتعلة، مشيراً إلى جودة قماشها، وصلابة قضبانها.

فها هنا على عتبة السوق تنتثر عينةٌ عن الخيرات الموجودة في الداخل ترسم صورة مصغرة عن الحقيقة، كما ان البذرة تحوي في طور الكمون كل خصائص الشجرة، وكما ان الافتتاحية الموسيقية تعطي لمحة عابرة عن الألحان المميزة التي ستعزف فيما بعد. عطّار يجر على عربته زجاجات غريبة الألوان تضمخ الجو بروائحها المختلطة وزميله يعرض ساعة على عامل فقير.

ـ «أربعة أمشاط بليرة. ضد الكسر أربعة بليرة!»

ينادي صوت فيجيبه آخر:

ـ «بنصف ليرة العوينات.»

أمام بسطة تنوء بالنظارات، والمسابح، وربطات العنق. وثمة بعض المشترين: الأول يعود ببابور كاز، والثاني يضع على السيارة جهازاً مستعملاً يلصق اذنه به ليتأكد من فعاليته، والثالث يستوقف شاباً يعبر قربه حاملاً لوحة زيتية يسأله عن سعرها، وعندما يأتيه الرد:

ـ «عشر ليرات.»

يستغليها **ويومىء لصاحبها ان يستأنف السير.**

الشوادر تنصب خيمة في سوق القماش أفيء إلى ظلالها، سعيداً باختفائي بين القناطر وسط الأجساد البشرية، والسلع المتنوعة، والضجة الصاخبة.

ـ «بثلاث ليرات ثلاث ليرات!»

يبشّر رجل في الطليعة، رافعاً كنزة صفراء، وكأنها محمل للأوسمة يتصدر موكب فقيد عظيم. ويخاطب تاجر عميلته مستنكراً:

ـ «بليرة!... قالوا لك عني سارقها؟!...»

ويحلف آخر:

ـ «على ذمتي وديني هذا أصغر قياس.»

مشدات، صداري، مناديل وأبناء مهنة يتحادثون كعائلة متآلفة. يمازح أحدهم جاره الذي يدير المذياع على مداه:

ـ «يا عيب الشؤم عليك. نسيت ان خالتك ما صار لها ثلاثة أيام ميتة؟»

فيعلّق هذا الأخير دون أن يكف عن الأكل من مطبقية **موضوعة فوق** بضاعته.

ـ «إذا ما سمعت أغاني ترجع المرحومة تقوم من القبر؟!»

غير مصغ إلى رفيق يشكي له وجعه واضعاً يده على بطنه:

ـ «والله انتعبت من هذه الترويقة.»

قمصان مزركشة، كلسات منشورة على حبل، أدوات زينة، ورود اصطناعية، حقائب، تتراكم في مخزن تبرز على حائطه آية «اتقِ شر من أحسنت إليه». ويسدي فيه عجوز النصيحة إلى عامل مبتدىء:

ـ «القطعة المليحة لا تكسد أبداً. حتى لو ظلت عندك سنة يجيء وقتها بالآخر.»

بينما يعتلي شاب عربته مصفقاً بانفعال:

ـ «تفضلوا. أجمل هدايا للعيد. بثلاث ليرات الفستان. يا سلام يا عين. عجلي يا مدام. كل واحد أحلى من الثاني يا ناس!...»

لكن جمهور النساء يتهافت في اتجاه مغاير، ويتحوقل حول **القبعات**

الصوفية يقلّبها في حمية صاخبة كلغط الدجاج وهو ينقد الحب ويتنافس عليه.

ثم ترتفع عقيرة جديدة:

ـ «بليرة ونصف يا عالم. مال **العشر ليرات بليرة ونصف يا عالم!...**».

ويمسك صاحبها بالشرشف من طرفيه ويشده بقوة برهاناً على انه لا يتمزق، ناظراً إلى بائعة يانصيب تبكي وسط السوق، فيتجمع حولها بعض الطفيليين، وتطل رؤوس مستفهمة من الدكاكين هازئة بها وبالرجل الذي يخاصمها:

ـ «هه! رجعنا إلى قصة التعريس. يا عمي أنا ما قلت أنك عاطلة. أنت امرأة فاضلة شريفة عائشة من تعبك وعرق جبينك. عافاكِ عافاكِ. لكن بعتِ أربع أوراق قدام بابي. يكفي. انتقلي إلى مطرح ثاني والله يفتحها بوجهك. لا تطلّعي لي خلقي أنا عصبي، أطوّل بالي اطوّل بالي وبالآخر انفجر بفرد مرة.»

وعندما يدعو متفرجة على واجهته إلى الدخول:

ـ «تفضلي عندنا أشياء أحلى بكثير. المحروسة عمرها عشر سنين؟»

فلا تستجيب له بل تلبي نداء جاره، يزأره بحقد منددا بأساليبه:

ـ «قال رزقة قال... أقعد ببيتك وتفرّج إن كانت تجيء الرزقة...»

لكن غريمه ينهمك في قص أربعة أذرع كتان، ثم يضع شمسية فوق رأسه غامزاً زبونته ببشاشة فتضحك لخفة دمه.

اتذكر، أمام رفوف العطور، الزجاجة التي اشتريتها أثناء حفلة الزفاف لرش أهل العريس حين **يَفِدون** لاقتياد اختي إلى الكنيسة. شعرت بغصة وانقباض يومذاك. لقد حدست بالكارثة المحدقة بنا. وأدركت اننا ارتكبنا **غلطة لا تُغتفر**، أن سعاد قد ذهبت رخيصة، وأننا تصرفنا بمصيرها بخفة وحماقة. **مع ذلك** تعمدت إطالة المكوث هنا هرباً من مهزلة العرس التي أصابتني بالدوار **والقرف**، فرحبت بأول فرصة سانحة للابتعاد عن جوها المشحون بالتصنع، وتنفس الهواء الطبيعي في الخارج.

ـ «أترك العسل بجراره لتجيء أسعاره.»

يقول البائع لفلاح يقيس شروالاً جديداً، ثم يخلعه مستهولاً سعره، في سوق الخرضوات الحافل بالأسياخ والصحون والسطول والمكانس والفناجين وقبعات القش والسلال والصناديق. ومن هنا أعبر إلى تلال الأحذية المشقوعة فوق بعضها، مغموراً برائحة الجلود والنعال التي يرابط بينها الاسكافيون خلف ماكيناتهم، يدخل عليهم رفيق من الجناح المجاور طالباً:

ـ «اقرضوني مسمارين وأجركم على الله.»

وتقف، حافيةً قربهم، امرأة حبلى تنتظر ترقيع جزمتها، ورجل يضع قدمه في فردة حذائه الآتية من التصليح.

حتى إذا نفذت إلى البلاط النظيف في سوق الجواهر انبهرت بالواجهات المشعشعة بأضواء الكهرباء، والمتوهجة بلمعان الذهب. وطالعني الأسياد المرفهون الجالسون بوجاهة إلى مكاتبهم، يقرأون الجريدة بانشرخاء، ويشربون الفناجين التي يديرها عليهم قهوجي يُطل برأسه من الباب، يسكب لهم رشفة، ويتوارى بكل احترام وتبجيل، متنقلاً بين دكاكين شبه مقفرة لا يؤمها سوى عائلة قروية تتفاوض مع صائغ مصمود خلف طاولته، وشاب يتداول مع حرَفي آخر، ويرنو إلى الخارج بتوتر يوحي انه ولد منزوع يبيع حُلى أمه.

بدوية تسحب الكراسي الأنيقة إلى عرض الطريق لتشطف الأرضية في الداخل، يمر أمامها فلاح مع عروسته التي تقف مشدوهة تحدق في الخواتم والأساور والحلق. من هذا المحل المترف اشترى نعيم المصاغ، الذي قدمه لأختي يوم الخطوبة. عسى ان لا يكون حظ هذين الزوجين منكوداً مثلنا، وتُحل عليهما اللعنة، فلا تزهر ولا تثمر أجسادهما الفتية، المتفتحة على الحياة، وتصبح هذه الجولات، التي يقومان بها الآن بفرح بين المعارض والمخازن ذكريات مؤلمة.

لكني سرعان ما أجتاز هذا البذخ إلى سوق شعبي قذر تتعالى فيه أكوام المشبك والعوَّامة والمعمول زاخرة بالزلاقط والهوام، وتفح منه عدة روائح قوية: أجبان، البان، نقوع، قمر الدين، زبيب، تمر، زيت، زيتون، صابون، تفضي بي إلى حاصل للحبوب استعذب الوقوف أمامه: قبان، وأكياس الفاصولياء،

والعدس، والحمص، والبرغل، سلال، وقفاف، وبائع يضع **رأسه** بين يديه وينام فوق أعدال القمح، تفضح الشمس قذارة ثيابه التي يحوم عليها الذباب. دكان قديم تحافظ تجارته على أساليب الماضي، ويحملني بؤسه وبساطته إلى مناخ ريفي استطيع فيه وحده ان اتنفس بارتياح.

نفس الشعور بالألفة يلازمني في سوق الخضار، الذي يربط فيه أولاد صغار حبلة على ظهورهم، يعلِّقون عليها أكياساً كبيرة من الورق، يتهادون بها برسم من يكلفهم توصيل غرض إلى البيت، يتسكع فيه شحاذ حافي القدمين، شائب اللحية، **يخبىء** في عبه رأس بندورة تَصَدَّق به عليه أحد المحسنين، واتنشق فيه عبير النعنع والتفاح واليانسون، مخترقاً بيادر الكوسى والباذنجان والملفوف، ورفوفاً تنوء بشميلات البقدونس النضرة، وحزمات البصل الأخضر، والفجل، والجزر، مبتعداً عن بائع يُغطس خسة في جردل ماء، ويلقيها على البسطة، ثم ينادي مصفقاً بيديه:

- «بثلاثة أرباع الفول، بخمس وسبعين الفول!...»

غداً يعود السائح الأجنبي، الذي يتجوَّل أمامي مبهوراً، إلى وطنه ليروي أخبار رحلته إلى بلاد العجائب والغرائب. غداً يشيخ فيتذكر مشاهداته في أسواق الشرق القديمة. مع **أن** ارنبة انفه ترتجف اشمئزازاً حين يشم عطنة الريش المنتوف المغموس في الزبل، المنبعثة من أقفاص الدجاج. ويتفاقم الأمر في منطقة اللحامين، التي لا يغامر بنفسه وسط زنختها القاتلة سوى شحاذة تحمل جريدة بيدها وتمدها باتجاه القصابين، فيجود عليها أحدهم ببعض **الفضلات. واني لأسدّ انفي** واحث الخطى بين رؤوس الغنم، والكراعين، **واللحمة المفرومة** المعروضة على الصمدات، والشرائح المدلاة على الاعتاب، خافضاً نظري إلى مجرور مشقوق في الأرض لتتجمع فيه، زازبةً من المعاليق، والقوادم، والفوارغ، مياه يصبّها اللحامون فوق بضاعتهم دون انقطاع ودون التوصل إلى التخفيف من الرائحة الخانقة، التي تصبح مستحيلة قرب المسمكة فيروح السائح يبحث كالغريق عن منفذ للخلاص. وأهرب وراءه من «سوق سرسق» متنفساً الصعداء، منبثقاً من الأعماق المظلمة إلى النور، **خارجاً من الحمأة الموبوءة إلى عالم** جديد مليء بالهواء النقي.

صراخ حاد تخنقه صفارة الشرطي، التي تخترق نداءات باعة الصحف واليانصيب: «نهار - أنوار - جريدة - حياة!...» «آخر ورقة بخمس ليرات - اربح ستين ألف ليرة - اليوم السحب!...» زمور مزعج يبتلعه عجيج الحافلة، التي تزحلق محدلتها الضخمة فوق ضوضاء الشارع. أحاديث عالية منبعثة من مقهى، تطغى عليها صنّاجات القهوجي، التي تتخلل هدير المحركات، وزئير السيارات. كاهن مسرع، ولد بقميص أصفر، امرأة تتقدم فتاة، رجل بنظارتين يشق طريقه بين المارة. خلائق تسعى في كل الاتجاهات ازحف معها، وقد تجرّدت من كياني الخاص، فلم يبقَ مني سوى شخص بلا هوية وسط كائنات مجهولة. وفقدت حاسة السمع والرؤية. وتبخرت كل آمالي منذ وطأت هذا المنفى، حيث تنذرني المشاريع، التي كنت أظنها في القرية ممكنة التحقيق، بفسخ عقودها، وتهجرني الأحلام القديمة متبددة كالسراب، وتنسد المنافذ التي كانت مفتوحة في وجهي سابقاً: فكل ثمار البؤس والشقاء تجد لها تربة خصبة هنا.

لكني ارتاح إلى قروي يحمل أكياسه وأغراضه، ويتدافع نحو مكتب النقليات، مستحثاً امرأة تتبعه حاملة طفلين:

- «عجلي حتى نصل قبل الوقت!»

لم أعد وحيداً على الأقل. لقد عثرت على صديقٍ استأنس به في هذه الغربة، وأواكبه بحنيني إلى المرفأ الأمين الذي يبحر نحوه. فإذا استقر في بيته، بعد حين، تراخى على مقعد وثير، يتأوه سعيداً بهذه الراحة الأليفة التي استرجعها، ويخبر أهله عما صادفه في يومه في هذه المدينة التي تركني أصارع أخطارها بمفردي.

أحقاً كنت في هذه الدنيا الصغيرة الهادئة منذ لحظات؟ أتساءل وأنا اشمّ على يدي رائحة الصابونة التي اغتسلت بها في البيت. أحقاً استطيع العودة إليها في لحظات؟ لا أكاد أصدق. الصمت يلّفني ويغشاني الضباب، ويتضح لي اني في القرية كنت قيمة لا تقدر لا غنى عنها بالنسبة للبعض. وكنت على وئام مع القدر، لا لعبة سهلة التحطيم بين يديه كما يخيل إلي عندما أرى بناية شاهقة تطرش ورشة من الدهانين حيطانها معلّقة بين الأرض والسماء، وفَعَلة نشيطين يدبون في ظلها كالنمل، ويشيدونها بسواعدهم كالجبابرة. فاكتشف ضآلة شأني حشرة تافهة تُسحق بسهولة، دون ان يتغير شيء على نظام الكون. وبفقداني ثقتي بنفسي يزايلني كل أمل بالتوفق إلى الوظيفة المنشودة.

في القرية كنت عبداً لأحكام الغير، ولا رقيب الآن. ومِمَ أخجل؟ الحياء كلمة لا معنى لها في قاموس المدنية. كما ان القيم العليا والمعايير الأخلاقية التي نُخضع لها سلوكنا في الريف ليست عملة متداولة هنا... فلو هجمت على هذه الحسناء أعانقها، والامس فخذها لما ردعني إنسان. لا يوجد مَن يعرف الفتاة أو أهلها. كما التغت الروابط العائلية من أي نوع. لا أخوال يحرصون على سمعتهم، ولا أعمام يثأرون لكرامتهم، وفقد مفهوم الشرف مدلوله. ثم لا أنا كائن بشري ولا هي. ما نحن سوى رقمين أو دميتين، ومَن يأبه لمصير الأعداد والأشياء.

ومَن يحاسبني إذا تهيجت للصور الاباحية المعروضة أمام دار السينما، ووقفت أبحلق في السيقان والنهود والأوضاع المثيرة قرب مراهقين تستهويهما المناظر الخلاعية أيضاً حتى ليهتف أكثرهما حماساً:

ـ «خلص خلص قررت أحضره.»

وإذ يتوجهان إلى شباك التذاكر أتمنى أن أدخل الصالة بدوري، بعد الظهر، وقد انجزت مهمتي على خير وجه، فأجلس عابراً مجهولاً في العتمة افرِّج عن غرائزي المكبوتة. ولن أعدم في زاوية ما شقيقة لروحي غريبة منبوذة وتعاني مثلي من الحرمان الجنسي. أكاشفها وحشتي فتغمرني بحنانها. نتجاذب. نتعانق. نتعاهد على الاخلاص المتبادل، ونخرج معاً في الليل إلى حيث نبدأ قصة حب فروسية.

لا، لا، ليس هـذا وقت الاسترسـال مـع الأحـلام. أم لعلني نسيت الإذلالات التي لحقتني في بيت «البيك»، وتلك المقابلة المهينة في الضيعة، حين أفاق من نومه بعد ساعتين من الانتظار ليعدني من طرف لسانه بأن يفاتح بشأني مدير مركز البريد. لكن هذه طبيعتي دائماً أهرب إلى الأوهام كلما وجدتني مضطراً إلى ترك عزلتي وركني الآمن في البيت ومواجهة العالم. وأخشى أي فعل يسلخني عن طمأنينتي، ويقذفني إلى الأخطار الخارجية، حيث لا أملك مهارة التعامل مع الآخرين ولا أسلوب التفاهم معهم، تحت أجواء لا انتمي إليها، وعرضة لنظرات محرجة تحتقرني، وتحكم علي عكس حقيقتي.

أجراس «مار جرجس» تقرع كلها معاً بقوة يفرّ لها الحمام من هنا وهناك، ويؤلف جوقة كبيرة ترتفع في السماء، كتلك الأسراب التي يطلقونها إيذاناً ببدء حدث عظيم، أو عند افتتاح الألعاب الأولمبية، وتدشين مشروع ضخم. فاهفو باندهاش وفرح إلى هذا المشهد المعزّي، الذي ينجح لحظة في ان ينسيني متاعبي ويخطفني بعيداً عن هذا الجو المشحون. الحمامة البيضاء التي ترفرف وتحط على حديد الشباك هي قبس من النور وسط الظلام، وعلامة على إمكانية السعادة، وأمل بالخلاص. ثمة في مكان ما من هذه الدنيا ركن آمن هادىء تلجأ إليه طيور السلام، وتنتظرني فيه أمي.

اشتقت لكنيسة «سيدة المعونة»، التي يتجمع فيها كافة أهل الوادي كممثلين مفضلين نلتقي بهم تكراراً في مسرحية اثيرة، أو فرقة استعراضية تقف بكامل هيئتها في ختام الاحتفال، منحنية أمام الجمهور لآخر مرة: فدعا الشاوي الذي حكم على نفسه، منذ ان وشى بابن خطار الشقي الطائح، الذي أعيا رجال الأمن، بأن يظل تائهاً وحده في الطرقات، وكأنه لا يزال حتى الآن يكفّر عن تلك الدسيسة القذرة، التي ذهب ضحيتها شاب ما برح يعيش اسطورة في بال ابناء القرية، ببطولاته المأثورة، وجناياته المشهودة، وتحدياته الجريئة للقانون. فؤاد حوا الحلاق، الذي يرتل مع القندلفت ويخدم القداس. وعفيف التقي، الذي يلمّ الصينية ويحمل الصليب. كلٌ منهم بدوره المعروف، بتاريخه، وقصة حياته التي تظل أبداً ماثلة أمامنا، يدخل الكنيسة حيث رائحة البخور هي إياها لا زلت أشمّها منذ ان كنت طفلاً، الشمعة هي ذاتها

التي كنت أرفعها وأنا صغير لأقف عند أقدام الخوري حين يقرأ الانجيل، والمذبح هو عينه ذاك الذي كنت اختبىء وراءه أنا وابن عمي نهار الأحد، مصغياً إلى الترانيم والأدعية والصلوات، التي درجت على سماعها منذ ان بدأت أعي. هناك في «وادي المروج» يخيل إليك أن ماضيك لم يمت، أو يستنفد حصته، لم يحسم عليك مراحل العمر التي قطعتها على دربه، أو يمحُ آثار الأقدام التي خلّفتها على رماله. إنه لا يتركك تقف وحدك بظلك العابر وهشاشتك الزمنية على هذه الفسحة التي لا تكاد تُرى من الحاضر مترنحاً على حافة العدم. بل يدعمك ويلتصق بك، يغنيك بكل رصيده الزاخر ويمد وراءك مسافة من الوجود ترسّخ أقدامك على الأرض. كما ان المستقبل هناك لا يبعث على الخوف لأنه ليس بذلك الشبح المجهول الذي يهوّم فوق الآن الحالي وينتهي بأن يطويه تحت جناحيه القاتمين. إنه بالأحرى رسول اليف ورحيم، لا يجرّدك مما تحمله بل يبقيه بين ايديك، التي يقودك بها مترفقاً بين أروقة بيت حميم. إنه ليس سيفاً باتراً يقطع الصلة بينك وبين يومك وأمسك ويفصلك عن جزء من نفسك. لا، هناك في «وادي المروج» يعيش السكان السعداء في ظل الأبدية. لقد اعتدت عليهم، واعتادوا عليّ، فما عاد أي منا يشكل خطراً على الآخر. إنهم حيوانات اليفة مدّجنة، لا وحوش مفترسة. انهم يعرفون قصتي. وباتوا يقبلون بي على علاتي. وأنا بدوري عليم بأسرارهم راضٍ بهم على حالتهم. لقد أبرمنا فيمابيننا اتفاقية مشتركة للعيش معاً بسلام. هناك حيث تحلو الجلسة حول الموقد في ليالي الشتاء، وتدخل امرأة مع ابنتها ذات عشية ممطرة لزيارة جيرانها، والسهر عندهم حول النار.

عندئذ يغريني الباب الذي أمرُّ قربه بالولوج لاستمد العون من الله، ولارجىء الموعد الحاسم قليلاً. الكنيسة تضيق، على سعتها، بالجموع المتوافدة إلى قداس الصباح، أجلس بينها، أشاركها استلهام التوفيق في هذا اليوم الجديد، مستوحياً القوة من حبي لأمي التي أغمض عيني بحنان على صورتها متضرعاً: «يا رب وحياة قلبها الطاهر ساعدني على اجتياز امتحاني المرير.» وللحظة خاطفة كالوحي تعيد لي عاطفتي البنوية الأمل بالنجاح. فانقل نظري بثقة على الحضور. اننا نرسل ابتهالات متماثلة. اننا نجتمع هنا لنفس الهدف. انا وموظف عرّج على هذا المكان المقدس في طريقه الى عمله، يطبق اجفانه

مستجدياً رحمة السماء. وشاب ببذلة الأحد يركع يائساً قرب المذبح. اتصوره طالباً قروياً تترقرق دمعته لذكرى الوالدة التي تفانت في اعداد ثيابه، جاهلةً ان المدارس سترفض قبوله. وسيدة في الأربعين جاءت تطلب بركة لأولادها. لقد انصهرنا انا والمرأة والتلميذ والأجير وكل المصلين المنجذبين نحو الهيكل في كيان مشترك اتخفف داخله من احزاني وهمومي الفردية، وامتلىء بمحبة الآخرين.

واجهة مزينة بمناسبة العيد تذكرني، أول خروجي من الكنيسة، بدكان القرية الوحيد الحقيقي رغم حقارته المثيرة للشفقة. بينما هذه المخازن الضخمة مزورة وقبيحة تحت بهرجها الكاذب. لكني أفرح، متجاوزاً حنيني، بالرفوف الخشبية المكتظة باللعب التي يتهافت الناس على شرائها، والأبواب المنقوشة بتصاوير القطن وعبارات التهنئة. لو اني أملك ثمن هذه الأغراض الزاهية فوق الصمدات، لدخلت بها على أهلي وهم جلوس في الدار، أوزعها عليهم، وأزف عليهم بشرى عثوري على عمل. لو سلّفوني معاش شهر عن وظيفتي العتيدة لما تركت صنفاً من السكاكر أو ألواح الشكولاتة المحشوة باللوز، أو مجامع العسل والمربى إلا وحملتها هديةً إلى اخوتي احتفاءً بتأمين مستقبلي. وساهيء لهم برنامج السهرة بحيث يجري كل شيء في حينه. فتُفتح العلب التي جلبتها في الوقت المحدد لها ويُخصص وقت للأكل وآخر للفاكهة، ثم تأتي الحلوى في الختام.

يعجبني طيفي المتخايل على الزجاج، اذ أراه بعيون أخي واختي المسلّطة عليه من أعماق الغربة. وتدب القوة في أعضائي، واعتز بتفوقي على جميع المضطربين في أرجاء المحل. لست نكرة بعد. أنا أيضاً لي أشخاص يحبوني ويحتفظون لي بغير نظرة الازدراء واللامبالاة التي يرمقني بها أبناء المدينة. إذ من أين لهؤلاء الغرباء ان يفهموا لغة قلبي التي يقرؤها أعزائي الغائبون كما في كتاب مفتوح. ترى اين هم الآن. وتحت أي سماء بعيدة يمضون هذا النهار؟ لألاحق بشوق خيالهم المنسي وكأني أطارد أشباحاً ضائعة في الضباب. فأنا لن أعثر على السند والعون إلا عند أخي البكر المهاجر، الذي أود أن أكون أنا وإياه، أشكي له همي، فيعزيني، ويساعدني في التغلب على مصاعبي. لأني بحاجة إلى البكاء، وإلى وجود شاهد محب يرى دموعي، ويرثى لحالي.

ـ «من فضلك اتعرف أين مركز البريد؟»

ـ «مركز البريد؟!»

سؤال يردده من بعدي، بشماتة محاسب جالس إلى مكتبه في هذا المتجر الكبير، هازاً رأسه باستهزاء. لكن شاباً واقفاً قربه يتعاطف معي ويومىء لي:

ـ «تعالَ لأدلك».

ويخرج أمامي مشيراً بأصبعه.

ـ «هذه البناية الصفراء في الوجه.»

فأطمئن إلى نظرة الإخاء التي فاجأني بها هذا الإنسان الرحيم. وأمضي في طريقي شاكراً، متفائلاً لأن الدنيا لم تقفر من أصحاب المروءة.

أحسد بواب العمارة المقصودة، الذي يرسم بضجر خطوطاً مبهمة على ورقة بيضاء. يكفي انه يجلس على كرسي. وأتجاوزه إلى داخل المقر الغاص بالناس مرتاحاً إلى ضياعي وسط الحشود المتزاحمة منتظرة في طوابير، متململة هنا وهناك، مرسلة فحيحها المؤنس تذكيراً بموسم الأعياد.

موظف يغطي يديه حتى الكوع بكمّين أسودين يُبقي نصف العلبة خارج كفة الميزان، ليخفف الرسوم على صديقه. لكنه يتشدد مع مرسل طرد كبير بأن يطالب بفتحه والكشف على محتوياته، متجاهلاً تصريحات العميل بأنه خلو من أية سلعة ممنوعة. فيغضب هذا الأخير، ويأخذ بتمزيق غلاف الصندوق ورقة ورقة مرغياً مزبداً:

ـ« تأكدت بعينك. قلت لك من الأول: ما فيه شيء».

ثم يستدير وعندما يبتعد عن الديوان تؤآتيه الجرأة لأن يدمدم صارفاً بأسنانه:

ـ «لئيم. كلب!...»

بينما يتمركز المأمور خلف طاولته، يُدخل قِطَع الكربون في دفتره. يتوقف قليلاً. يُمسك الملف بالمقلوب، يُعيده إلى حالته السوية، يفتحه وينقب فيه قبل ان يبدأ عملياته الحسابية على المسوّدة محركاً شفاهه بالعد، مقطباً جبينه، مبدياً

امارات التفكير الشديد، مطرقاً، متذمراً من الضوضاء، معلناً، بعد ان يقطع الايصال بعجلة:

- «٢٥ ليرة.»

- «اتسمح ان تدلني الى غرفة المدير.»

أطلب من الحاجب الذي يقودني نحو مطلع درج، ويحتال عليَّ، جزاء خدمته، بليرة، اخجل ان أخذله، فأنقده إياها على مضض.

أريد لهذه السلالم ان تمتد وتمتد الى ما لا نهاية، علني لا أصل أبداً إلى مكتب المدير، أو لا أجده أصلاً، فأريح ضميري، وانطلق فرحاً، ناجياً بجلدي من هذا الغول المرعب الذي أتقدم لمقابلته وجهاً لوجه. وفيما أنا أصعِّد على هذه الحال من القلق، موشكاً في ضعفي ان اتهافت على الأرض. أصطدم بأحد شباب قريتي، فارتبك، وأتلفت حوالي محاولاً الهرب. لكن لا مفر. لقد وقعت في الفخ. وانثِ لأسلِّم عليه متلمساً عن يمين وشمال مخرجاً من المأزق:

- «مرحباً. أهذا أنت؟ عندك شغل بمصلحة البريد؟ أقدر أفيدك بشيء؟»

فأجيبه مجفلاً:

- «لا، لا، قضية بسيطة.»

وأتابع سيري دون زيادة في المجاملات، متضايقاً من مواطني، لأني اخّمن انه ينتقد مسلكي، ويفضح نقصي، حاسداً إياه لأنه يبتعد عن هذا الجو الخانق.

وها أنا ماثل أخيراً عند نهاية الدرج في حضرة موظف مندمج في دور الكادح المرهق بالعمل، الذي ينسى من كثرة التعب ان يرفع خصلة شعر تسقط على جبينه وتهتز كلما أمعن في الكتابة، والذي يبتسم أحياناً لافتراضه اني أتأمله راثياً لأعبائه، معجباً بنشاطه. لكنه يكظم نفسه كي يوهمني بأنه لا يشعر بنظراتي، ولا يتصرف بتأثير منها، وان الفطرة، وحدها تملي عليه حركاته، لا تجاوب الجمهور.

- «اتسمح لي بكلمة؟»

ـ «نعم.»

ـ «أقدر ان أقابل المدير؟»

ـ «الاسم الكريم؟»

ـ «نديم حمدان.»

ـ «أتريده لسبب معين؟»

ـ «قاصده من قِبَل منير بك أبو عضل.»

فيتفحصني بازدراء يعني: هذا واحد آخر من طلّاب الوظيفة، الذين يتوقعون ان تُفتح الأبواب في وجوههم بمجرد ان يقرعوا، ويستمهلني نافد الصبر:

ـ «عن اذنك دقيقة.»

وبينما يخترق هو منطقة الرعب، انتظره في الخارج، مشجعاً نفسي بهذه التعليلات: لِمَ الخوف؟ سأدخل غرفة المدير كما تخيلت دائمًا، وأجلس بتواضع قرب مكتبه. وعندما يسألني عن مطلبي أصمت. فاذا كرر سؤاله انخرطت في البكاء. حينئذ يرّق قلبه، ويصبح مهيأً لتقبل قصتي، ومفادها اني عاطل عن العمل أخشى الغد لا سيما وان الواجب يفرض عليّ المساهمة في إعالة أهلي. وها هو ينهض دامع العين ليهدىء من روعي، ويأخذني بعطف تحت حمايته متفهمًا وضعي، واعداً بانقاذي، مجرياً لي امتحاناً قصيراً لا يطلّع على نتيجته حتى تتهلل أساريره، ويغمزني بمرح: «طمئن فكرك. إرخِ كل حملك عليّ. وارجع إلى بيتك مرتاح البال.» ثم يتقدم مني ليصافحني بإعجاب «أهنئك على مستواك العلمي الرفيع.» ويستطرد راسمًا بأصبعه علامة التحفظ: «لكن!...» فهذا الحلم أجمل من ان يبدو ممكناً، ويجب ان اعدِّل فيه بحيث لا يأتي النجاح مفاجئاً وباهراً بل أقرب إلى المعقول... «ولكن للأسف لا تقدر ان تستلم وظيفتك قبل شهرين»... لا، لا، الأفضل ان أبحث لي عن وهم آخر أكثر اقناعاً. سيفحصني أولاً ثم يحدد لي موعداً لاعلان قراره. فأخرج متقافزاً من الفرح لأن ساعة الاعدام أرجئت إلى أجل غير معروف، ومُنحت فرصة التقط خلالها انفاسي، وانتظر بأمل صدور الإجراءات الجديدة. سأعود اذن إلى البيت. وفيما أكون جالساً بين أهلي بعد أيام معدودة، يدخل علينا المدير، الذي أعطيته

عنواني، والذي قصد القرية لبعض شأنه، ليبشرنا بفوزي بالمباراة، ويغبط أمي على كفاءتي وأخلاقي العالية. فيلتف اخوتي حولي، يستوضحوني الخبر، يباركون مسعاي، ويعانقوني هازجين.

- «تفضل!».

الباب يُفتح في وجهي، ورئيس المركز يتسقبلني مشيراً لي بلطف ان أجلس قرب طاولته، حيث تختنق أنفاسي من التوتر والاضطراب كلما وجدته منصرفاً إلى الكتابة ببرود:

- «حضرتك نديم حمدان؟»

- «نعم».

ماذا سيقول؟ ما هو الحكم الذي سيطلقه بحقي؟ لم أعد أقوى على الالتفات إليه، فأرسل نظري من النافذة هارباً وراء سيارة اسعاف تزمر وتطير نحو البعيد خاطفة معها كل الأبصار في الخارج. هل يُعلن قبول طلبي، أم يُنزل بي عقوبة الموت؟ قلبي ينبض بشدة، ريقي يجف، وأعصابي متوفزة إلى أقصى حد. الجواب اذن! الجواب الشافي وبسرعة! وأرنو من جديد إلى مصدر الخلاص الذي يتفرسني أول الأمر، ولا يلبث ان يخفض نظره متردداً، ثم يرفعه نحوي من جديد.

- «كلمني منير بك بخصوصك ووعدته ان أهتم بالقضية. لكن، لسوء الحظ، اليوم بالذات صدر مرسوم باقفال باب الطلبات. كنت أتمنى من كل قلبي ان أساعدك. ولكن ما في اليد حيلة. سلِّم لي على منير بك وقل له أن يكلفني بأي خدمة ثانية وأنا تحت أمره...».

إني لا أسمع بعد، اني لا أميِّز شيئاً في غياهب الهاوية السحيقة، حيث استسلم لفتور عجيب يتفشى في جسدي، ذاهلاً عن وجعي، مخدر الوعي، محتفظاً برغبة وحيدة: الانسحاب من هذا المكان، والفرار إلى الشارع.

هنيئاً للمارة انفلاتهم آمنين من الأخطار، بينما أكاد في انسحاقي ان أتهاوى تحت الأقدام، باحثاً عن حائط انساني استند إليه. فلا أجد سوى كاهن يشق

دربه بسرعة لا تتيح لي استلابه شيئاً من طمأنينته أو الارتماء عليه لاستجداء العون والتشجيع. لا داعي. الاغنية الحزينة التي تستعطف بها بائعة اليانصيب العمياء العابرين أمامها دون اكتراث، طارقة الرصيف بعصاها، تصوّر وحشية الحياة بما لا يترك أملاً بالنجاة. عدا الكسيح الذي يزحف على بطنه، مسترحماً بنبرة مؤسية الأحذية المتسارعة، التي تكاد في لا مبالاتها ان تدوس عليه. والمسخ المبتور الرجلين المنتصب كتمثال نصفي على الناصية، قرب علبة علكة، والمائل إلى السابلة بتضرع واستخذاء. والشحاذ الذي يستعطفني بلهجة باكية معترضاً طريقي. فأتوسل إليه أن يتركني وشأني عاجزاً عن الاتيان بأية حركة أخرى رغم حنوي عليه وجميع المساكين، وتوحدي معه في البؤس والحاجة إلى رأفة الله.

وهذه أيضاً استغاثة

ـ «غريب مقطوع!»

يلاحقني بها شاب لعله قصد المدينة مثلي بحثاً عن عمل ولم يوفّق. فأغفله بادىء الأمر. لكني لا أتخطاه قليلاً حتى تشدني الشفقة نحوه. وربما أتراجع إلى الوراء يكون قد اختفى وسط الزحام. بينما يتعلّقني بائع يانصيب صغير أهمّ، في محنتي، بزجره لولا وقوعي على وداعة عينيه المشرقتين في وجه قذر مريض، وذبول شفتيه المرددتين بلجاجة الآلة:

ـ «اليوم السحب... آخر ورقة...»

فأتعزى من خلال معاناتي لشقائه مغموراً بفرح رقيق. لست المعذب الوحيد. نحن جيش خفي من الفاشلين، والفقراء، والمرضى، التحق بصفوفه، وألوذ بأشباحه الأخوية باكياً، مناولاً الطفل المتمسك بتلابيبي شيئاً مما معي فيزداد تشبثاً بي، رافضاً اطلاق سراحي قبل ان اشتري بطاقة الحظ التي يلوّح بها. لكني لا أملك ثمنها ولا لما تأخرت. وكيف لي ان أقاوم نظرات هذا الملاك المحروم؟ أو ان لا اتعاطف مع المشرّدين النائمين تحت الجسر، الذين يوّجه أحدهم رجليه نحو الجمهور كل فردة من كلساته بلون وأصباغ مختلفة عن الأخرى. وكأن كل جورب شق من الستارة المغلقة التي تجري وراءها أحداث مسرحية سرية مكتوب عليها عبارة «النهاية» لينصرف الجمهور، ويترك الممثل غافياً وحده على الخشبة

بهدوء. ولماذا يبكر في النهوض؟ ترى أي مواعيد عساها تمنعه عن التأخر في رقاده؟ وعلام الاستعجال؟ لا مهنة، لا عائلة، ولا واجبات. انه لا يملك إلا نهاراً لا يعرف كيف يقضيه. يستلقي قربه زميل له في البؤس، يمازحه، ويناشده ان يهبَّ من هجعته، فكأنه شقيق يوقظ أخاه المضطجع في السرير المجاور له في قمرة الباخرة ويدعوه إلى فتح عينيه ليتملى من هذه المناظر الطريفة التي أتيح لهما رؤيتها، وهذا البلد الغريب الذي قُيض لهما زيارته. أو كأنهما سائحان يفيقان صباحاً في غرفتهما المشتركة في الفندق، ويشرِّع كل منهما جفونه على كنز من الصداقة وضعته الصدفة على دربه، يتعرف على جاره المجهول، يروي عليه قصته، ويشكي له همه.

أقدام تهرِّول في كل الاتجاهات متشابكة متداخلة، متدافعة عن يمين، متراكضة عن شمال. أرى فوقها حيناً محفظة موظف يسرع بنشاط نحو مكتبه، أو حقيبة نسائية؛ كيساً تعود به امرأة إلى بيتها، أو سلة يحملها عتال على ظهره؛ عربة يجر عليها عامل شلوخاً من الحديد، أو كرَّاجة تنوء بمختلف أنواع المعلبات. ومن حولي ألوف من الوجوه الرصينة، الدائبة في سعيها المحموم كخلية النحل، والأيدي البلهاء المتأرجحة، متقدمة أجساداً تتسابق لا أدري إلى أين. أمواج آدمية كل يذهب في جهته راكضاً وراء مصالحه الأنانية، كلٌ يمضي في سبيله متكالباً على مآربه الشخصية، اشعر تحت طبقاتها المتكاثفة بالضياع، وكل وحشية الصراع من أجل البقاء. فصعوبة العيش في المدينة ناتجة عن كونك مهدداً فيها دون انقطاع. وهذا ما يضع غريزة المحافظة على الذات عندك في حالة تحفز مستمر للقتال، وتأهب للتحدي. فأنت أولاً محاط بكميات هائلة من البشر، يبدو وكأنها تنافسك على نصيبك من الوجود. ثم إن أحداً من هذه الأعداد الضخمة لا يبالي بك، أو يعترف بحضورك. حتى لتنسى أنت نفسك انك كائن. نعم ان شقائي، وأنا أتسكع في هذه الشوارع المزدحمة، ناجم عن شعوري بالعدم: إن جمهور المشاة بتجاهله لشخصي انما يشكك بحقي في الحياة، ويخنق نبضي، يكبت أنفاسي، ويعرِّضني للزوال وسط هذه الحشود المتدافعة بالمناكب، والبنايات الشاهقة، والسيارات المتسابقة. وإذ أرى هؤلاء الغرباء يتحركون وأنا صنم مهمل، عاجز عن انتشال حقوقي من قبضتهم، مدركاً أخيراً أن المصير معركة ضارية، واني هالك تحت سنابك الخيل، يأخذني الدوار، وأحسني جسداً

مجهولاً، مطروحاً تحت أرجل عشوائية تزحف نحو أهدافها غير حافلة بي، كأنها تقذفني بهذا التحدي: انظر كلنا نتقاتل من أجل الرغيف، فيقل بالتالي حظك في الحصول عليه. كلنا نمضي إلى أعمالنا ملبين الدعوة إلى الوليمة المشتركة، التي لسنا مثلك منبوذين عنها، مشلولين عن المبادرة. ولسوف نجهز على كل خيراتها. حتى إذا نهضت أنت، وهرعت لاهثاً، يكون قد فات الأوان، ونفدت عن المائدة حتى الفضلات، وتناثشت أيدينا من أمامك حتى الفتائت. وهكذا لا يبقى لك، عندما تصل، لقمة واحدة تسد بها جوعك. فان كان هؤلاء الباعة المتجولون، رغم استيقاظهم باكراً، ووقوفهم على قصبة رجليهم من الصباح إلى المساء، وتجرجرهم من شارع إلى شارع، لا يكادون يحصلون على خبزهم كفاف يومهم. إن كان هؤلاء البؤساء مهددين بالفناء إذا انقطعوا لحظة واحدة عن السعي وراء القرش، كم بالحري سيكون الهلاك من نصيب متفرج محترف مثلك، منسحب من حلبة الصراع أصلاً، ولا يخوض غمار المعركة من الأساس.

ـ «عنب، بندورة، خيار!...»

ينادي أحدهم. فاتساءل: أحقاً يتصور أننا سننخدع بادعاءاته وتنطلي علينا كذبته، فنصدق انه يوجد اصناف طبيعية هنا. حيث لا العنب يحمل طابع الكروم، لا البندورة تحتفظ بأثر السهول، ولا الخيار يملك نكهة الخضرة الطازجة.

إني خائف: الرجال تدير السيارات، وتقود الحافلات، تحفر الطرقات، وترفع العمارات على سواعدها، وتكد في المكاتب. كل ما حولي حركة دائبة، بينما أنا واقف. وكيف يُسمح لي بالاستمرار هكذا عالةً على الآخرين؟ كيف لا يبكتني ضميري حين أراهم ينتجون لي طعامي، ينسجون لباسي، ويبنون مسكني، دون ان البي لهم حاجة، أو أبادلهم بنفع. لو كنت شغيلاً لحق لي الادعاء: إني آخذ بمقدار ما أعطي، أني عضو فعّال في المجتمع. لكني لا أخدم مصلحة، لا أساهم بتعبي في اسعاد غيري، ولا قيمة لي بالنسبة لأحد. اني نواة مغلقة على نفسها، همها الوحيد صيانة سلامتها بصورة غير شرعية. اني هارب من مدرسة الحياة، في حين يسهر رفاقي على تحضير دروسهم، فبأي حق يجوز لي ان أحلم بالنجاح في الامتحان. اني متهم مذنب ستضع شرطة خفية يدها عليّ

بين لحظة وأخرى، متسائلة: من أباح لهذا الصعلوك ان يُترك على رأسه دون رادع. ماذا يحدث لو أخذ الجميع يحتذون بمثاله السيىء، فارضة عليّ جزية باهظة: ان اشتغل وأعرق أكثر من غيري باضعاف، لاني اتنصل من مسؤوليتي بلا أخلاق، وانتهك حرمة القوانين. لاني أعيش في الخفاء، واجبن عن التصريح بمخالفاتي، والإقرار بجرمي، أو الاعتراف بحقيقتي.

الآخرون ممن ينتمون إلى الفئات العاملة يقطنون منطقة بعيدة من الهدوء والسلام، أخاف ان يفضحوا أمري، ويفطنوا إلى وجودي خارج دائرتهم. فاود أن أتغلغل بين أقدامهم، واضيع وسط حشودهم، تمويهاً لواقعي. أو أن أعقد صلحاً معهم مجاهرة بتفوقهم وإعلاناً لهزيمتي. مستحيل. لن يسود الوئام بيننا إلا عندما أتساوى بطبقتهم ملتحقاً بالضفة الأخرى التي ينتصبون عليها. لكن أحداً منهم لا يمد لي ذراعاً لانتشالي إلى شاطئه وضمي إلى صفوفه.

هل أنا في نهاية الأمر نفر جديد ينضم إلى جماعة العاطلين عن العمل؟ لا، لا، هذا ليسْ إلا كابوساً مزعجاً يجثم على صدري. واستجمع فكري محاولاً اقناع نفسي بأنها مجرد هلوسة واني لا انتمي بالفعل إلى هذه الطبقة اللعينة. لكن عندما أعود إلى وعيي أجد ان حالتي ينطبق عليها جميع المواصفات المطلوبة. وان البطالة هي ماهيتي الحقيقية منذ الآن.

إذن سأعود إلى القرية. سأرتد إلى حياة طريد العدالة. انتظر الليل لأجروء على اقتحام الشوارع، والتجول متستراً تحت جنح الظلام، متخفياً في ظل الحيطان كاللص، متجسساً عند المنعطفات، مستكشفاً مشارف الأزقة خوف ان يظهر من يسألني عن مهنتي قبل ان اتمكن من الهرب. كما حصل لي بالأمس، حين صادفت ابن عمتي في الطريق، وعاجلني بالضربة القاضية: «قاعد بالبيت لا شغلة ولا عملة؟». فطفرت في الضواحي كغزال جريح لا يداويه خرير النهر، ولا تأرجحات الصفصاف مع نسيم المساء، ولا ترجيعات الريح في الفلوات، مجتراً، ضد نسيبي وأهله أحلام الانتقام من نوع: سأريهم سأريهم، سأسافر وأرجع محملاً بالذهب.

وتمثل في ذهني الآن صورة ضيف زارنا، وسمعته، وأنا منعزل في غرفتي،

يفتح مع أمي محضر التحقيق المعهود، مستقياً منها المعلومات الوافية عن كلٍ من أخوتي على حدة، حتى إذا جاء دور استقصائها عن أحوالي سددت أذنيّ عن صوت رجل التحري هذا، وقد وصل إلى قضيتي، وراحت أصابعه تعبث بملّفي. أنا لا يمكن الاجابة دون إحراج عن أي سؤال مطروح حول أسلوب عيشي الناشز المهجين المارق على كل مذهب معروف ومقبول، أو تطبيق أي نص من القانون عليّ، ولا العزف على أي وتر في كماني مضبوط ومشدود على النسق الدارج، أو تشغيل أي جهاز في آلتي دون خلل. كما تحضرني وجوه كل هؤلاء الأقارب المسؤولين، الذين يفرضون وصايتهم عليّ، ويستوقفوني على لفتة درب، أو ينقلون إليّ بواسطة شخص ثالث، أقوالهم الناطقة باسم المجتمع، المعبّرة عن رأيه في كل من ينتهك حرمة شرائعه، ولا يفكر طبقاً للمنطق المشترك عند القطيع، لا يتصرف مثل غيره، ولا يتمسك بالقيم المقررة، والقواعد الذهبية، التي ينجو من يمتثل لها بجلده، يأمن السلام، ويعيش باطمئنان مع الآخرين، الذين يخضعونك لقائمة من الفضائل المثلى يبرز فيها أولاً الوصايا التالية: الشغل حتمية مقدسة، الثبات في المهنة ضرورة جوهرية، لائحة الأعمال المعترف بها رسمياً غير قابلة للنقض. لكن إذا شاء لك سوء حظك ان تكون مختلفاً عن بقية الناس، عاجزاً عن وضع نيرهم على رقبتك، وانتهاج مسالكهم الشائعة، فاستعدّ عندئذ للدخول في حرب دائمة معهم، تغريك أحياناً بضرب جباههم العنيدة لإرغامهم على التفكير لحسابهم الخاص ورفض المعايير الغريبة، فتتحطم يدك على رؤوسهم الصلدة دون جدوى، وتضع أحياناً أخرى حواسك وغرائزك في حالة تأهب واستنفار. هذا نظامهم إما ان ترضخ له، وإما ان يسلخوك عنهم، وينبذوك إلى الخارج، مقيمين فيما بينهم تحالفاً مخيفاً ضدك. هذا دستورهم، ولقد تبنوه للمحافظة على بقائهم. فماذا يحدث لو راح كل فرد يمشي على هواه، مطيعاً ناموسه الداخلي، متجاهلاً الحكم العام. وماذا يحل بالدنيا لو ركن سكانها إلى البطالة، أو تساهلوا مع العاطلين عن العمل، فما حاولوا الضغط عليهم لردهم إلى الصواب؟

«المثابرة أصل النجاح» «اياك ان تجازف بمورد رزقك». إن أخللت بإحدى هذه الالتزامات صرت عرضة لاستجوابات المستنطقين المحليين، الذين يبغون ان يدينوك من خلال إفادتك، ويضبطوك عبر تصريحاتك متلبساً بجرم عصيان

السلطة والسير بعكس الخطة المرسومة. إن أكبر دليل على الرقي الاجتماعي، أن أبسط مبادىء التهذيب في محافل الناس هو عدم طرح الأسئلة المحرجة: حذار ان تستوضح شاباً عن مهنته فربما كان بلا شغل. لا تستفسر امرأة عن عدد أولادها فقد تكون عاقراً. تجنّب ان تستفهم تلميذاً عن نتيجة فحصه فلعله من الراسبين.

أما شيوخ العائلة الأجلاء فانهم ينحنون بعطف على ماضيهم، ليستخرجوا منه كنوز العبر والعظات. وسرعان ما ينذرونك انك مخطىء، تنهج درب الضلال، مستحضرين واقعة من ماضيهم شبيهة بالحالة التي تمر بها أنت الآن، ليخبروك كيف تدبروها بحكمتهم؛ وكيف يجدر بك انت بالتالي ان تتصرف حيالها. فسلوكهم هو المقياس والمثال الأعلى الواجب احتذاؤه. وإذ يقارنون بين تفوقهم وتخلفك يبتسمون هكذا بحنان لأمجادهم الغابرة وذكرياتهم القديمة المقدسة.

كما حصل لي حين استدعاني أحدهم فقصدت بيته، حيث وجدت المحكمة منعقدة بكامل هيئتها: هو بشيخوخته المهيبة كحكيم صيني عجوز، امرأته محاطة بأولادها كمستشار عدلي، وابنه البكر كمدعي عام وجه لي التهمة الرئيسية: عار البطالة ليس فقط كعاهة تصيب الفرد بل كوصمة تلحق الأسرة بكاملها. أخيراً استهل كبير القضاة الجلسة بافتتاحية تقليدية: «يقول المثل أكبر منك بيوم أفهم منك بسنة. من قبل كانت النصيحة بجمل. إني اتدخل في شؤونك لأني أحبك، ويهمني أمرك، وأغار على مصلحتك». ثم أعقب هذه المقدمة بنبذة عن فعالية ارشاداته، وسرد عدة مناسبات تاريخية أبدى فيها تكهنات اثبتت الأيام صحتها. فكم وكم من أعضاء العائلة حاول هدايتهم عشية اتخاذهم قرارات حاسمة فلم يسمعوا كلمته وكانت النتيجة وبالاً عليهم. إنه عرّاف لا يخيب يتنبأ بالكارثة قبل حلولها. وبعد ان يقوم بالدعاية لخبرته وحنكته، وهي البضاعة التي ينوي بيعها لي، يستبيح حرمة حياتي الخاصة. وما أصعب التعري أمام عيون لا تتعاطف معك، تسلّط عليك ضوء الأحكام والمفاهيم الشائعة، وتصبّك ضمن القوالب والتصنيفات الجاهزة، فترى نفسك من خلال نظرتها الخارجية عكس ما أنت في حقيقتك الباطنة. انهم الحق والفضيلة والموقف

السليم، بينما أنت الباطل والضلال والشذوذ على القاعدة. عبثاً ما تروح تشرح لهم ميولك وأهواءك التي لا تنطبق عليها المقاييس والمعايير المقررة للخير والسيرة الحسنة.

«طبيب، مهندس، محام، موظف، الخ...»

خانات إن لم تجد لك مكاناً فيها طرحوك جانباً، نبذوك بعيداً، ورفضوا الاعتراف بك. يحاولون إلباسك هذه البذلة أو تلك، حصرك في هذا الإطار أو ذاك، دوزنة أفكارك ومشاعرك على إيقاع الأنغام المتداولة. فاذا ما أخفقوا في العثور على ما يناسب قوامك، يستوعب كيانك، ويتلاءم مع مزاجك. وإذا ما تعذر عليهم زجك في نمط محدد، وأدراجك ضمن فئة معينة قذفوا بك إلى الخارج، ونفضوا يدهم منك. قد يعنّ لك أحياناً ان تكشف لهم أوراقك وتصارحهم بأنك تريد ان تصبح كاتباً، وان الفن هو الهدف الوحيد الجدير بالتحقيق، هو جوهر الحياة، التي تفقد بدونه كل معنى. عندئذ يكلمونك عن الشعراء الذين ماتوا جوعاً وعنَ الأدب الذي لا يطعم خبزاً. وحتى لو ارتفعت إلى مصاف شكسبير فان هذا، في شرعهم، لن يجديك نفعاً. انت غلطان، غلطان، غلطان. وقد تأخذ أحياناً أخرى بالبحث عن نقط للتلاقي عن بعض مواد وبنود وفقرات في سجِّل الأعراف السائدة يمكن تطبيقها على حالتك. لكل انسان نزعة دفينة تؤهله لاختيار حرفته الخاصة. فهل نستطيع ان نطلب من الحكيم ممارسة مهنة أخرى غير الطب؟ لكنك لا تلبث ان تدرك ان مبدأ تعدد المواهب وضرورة إطاعة المرء لميوله الفطرية لم يقرِّوه لأجل استعمالك الشخصي، وان مفعوله لا يسري عليك، لأن وضعك مختلف عن بقية الناس الأسوياء. وها هم يلغون اجتهاداتك القانونية كلها بنظرة ازدراء واحدة. ماذا تقول؟ اتجروء ان تضاهي نفسك بأصحاب المهن المكرَّسة؟ إنك أشبه بعاهرة تدعي الفضيلة.

سأحفر آرمة على جبيني مخطوط عليها: «الرجاء عدم إسداء النصائح». سأضرب نطاقاً حول جسدي مع لافتة «ممنوع الدخول»، وسياج مكهرب كل من يتعداه يصاب بالأذى فلا يعاود الكرة، ولا يطرح علي الاسئلة من جديد، متدخلاً في شؤوني الحميمة، منتهكاً حرمة أسراري.

لكني لم أعد أقوى على الصمود في حالة حرب مع جيش من الأعداء. لا أطيق بعد البقاء وحيداً وسط جمهور من الغرباء. سأقر لهم: انتم على حق، وأنا مخطىء. سأستجيب لمطاليبهم، وانتهج السلوك الذي يوافقون عليه. سأمشي على الطريق التي عبدّوها أمامي، وأتقيد بقوانيهم، معلّقاً طوقهم في عنقي، علهم يرضون عني، ويقبلوني بينهم. وطالما اني سأهزم في هذه المعركة لا محالة، فلماذا لا أستسلم للجبهة المناوئة، أضع نفسي تحت تصرفها؛ وأطيع أوامرها. نعم أتوق إلى عهد من السلام مهما كان الثمن وبلغت التنازلات والاذلالات النفسية. إذ لم يتبقَ لي هنا سوى ان ألوذ من اليأس بهذه الحسناء الراكبة في السيارة قرب زوجها، ساجداً تحت أقدام الجمال أنسى همومي قليلاً، وأطل على النور من خلال كوة صغيرة للأمل تُفتح في نفسي، لحظة، تتركني بعدها أكثر تحسساً بوطأة الظلام، وأكثر بغضاً لهذه المخلوقات العجيبة المتماوجة بي. فكأني متفرج يزورها من كوكب آخر راثياً لعبث مساعيها، مدهوشاً لنمطها السخيف في في العيش. ولد ينزل من الحافلة، امرأة تصعد إليها ، وشرطي السير بقبعة الفولاذية البيضاء يمد يده اليسرى مشيراً للسيارات بالتدفق في الخط السليم، ويبرم بيده اليمنى موعزاً للسائقين بالاسراع في الاتجاه الذي يرسمه لهم. والعربات معين لا ينضب كلما اومأ لها كلما تدافعت أمواج جديدة منها في سيل لا ينتهي أبداً. أليس لهذا الإنسان من وظيفة أخرى سوى ان يدير معصمه ويبسط ذراعه على هذا الشكل؟ أليس أكثر من اشارة مرور مزروعة هنا وسط الطريق؟ هل تقتصر كل وظائفه العضوية والعقلية، كل طاقته الجسدية والروحية على هذه الحركة الآلية البلهاء؟ أليس عنده أحلام ولا طموح ولا أفكار؟ ألا يملك حياة خاصة؟ وهل يسمح له هذا الاضطراب الجهنمي، وهؤلاء البشر المتزاحمون، وهذه الحافلات الزاحفة حوله من كل جهة، ان يستأثر بشيء من هذا القبيل؟

ـ «أما تعبت يدك؟ أتركها ترتاح دقيقة!...»

يهتف سائق من خلف مقوده منتظراً بنفاد صبر اشارة المرور، متطلعاً بحقد إلى شرطي السير، الذي يأخذ هدنة بالفعل، ويستدير نافحاً صفارته، فيكتسب وجهه بفعل وجناته المتودجة، وشفافه المزمومة، وبشرته المحتقنة، شكل قناع هزلي. ها هو يصدر حكمه بالتوقف على الارتال التي انقلب عنها بظهره، يتقدم

قليلاً على المستديرة، ويُفرج عن القافلة الأخرى، التي كانت مجمَّدة في الاتجاه المعاكس، ويأمرها بالانطلاق. وتعود يده من جديد تلك الآلة لتدوير محرك السيارة، تتسارع على ايقاع اشارات الضوء المتغيرة من الأحمر الى البرتقالي فالأخضر، يتموج بها وسط المعمعان، آخذاً دوره عن جد، معتقداً بالفعل بروعة حركاته التي تغريني بالضحك. أحقاً يؤمن بجدوى مهمته ويصدق أن الوهم الخرافي الذي نغرق فيه هو الحقيقة بالذات؟ أأنا في واقع أم في حلم مخيف؟ لا أعرف وأنا أرى هذا البُحران البشري من خلال ضباب رقيق يغشى عيني. فاتساءل: أين تمضي كل هذه السيارات، وكل هؤلاء الناس القابعين داخلها، المنحشرين على مقاعدها، الذاهبين بقناعة محيِّرة نحو أهدافهم الباطلة، المتوجهين في نوبة من الذهول العام شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، كدمى متحركة تنشلهم أيدي لا منظورة، وتضعهم في جوف هذه اللعب الميكانيكية، حيث تتجاذبهم خيوط خفية في هذا الاتجاه أو ذاك، لا لتحقيق غاية محددة بل لمجرد العبث، والأذى، والتلذذ بتعذيبهم. وحيث يتحولون بسلوكهم النمطي إلى آلات متشابهة. كلهم يحلّون على نفس الشكل في تاكسيات المرسيدس إياها، التي تنطلق بأسلوب واحد، وتسير على خط مشترك. كلهم مستخدَمون مجردون من أي طابع شخصي مميز، يخرجون من مركز عملهم إلى مقر سكنهم، ويعودون من بيتهم إلى مكتبهم في ساعات معينة، متخذين أوضاعاً مماثلة، واجمين بالطريقة ذاتها، مساهمين مع جملة الجمادات الأخرى في إطغاء المادة على الروح، وازهاق شعلة الحياة تحت عبء الضغوط، والأثقال الميتة.

حين يبلغ بي الضعف حد الاستنجاد بالسماء، ومحاولة الاتكاء على العمود، تستوقفني سيارة فاخرة تصفّ أمام متجر باذخ، يترجل منها شاب يدور نحو المؤخرة، حيث يبقى والده مصموداً بعنجهية ملك ينتظر وصول مدير التشريفات لإنزاله من المركبة. فأحسده لأنه يملك عربة خاصة، وثروة ضخمة، وابناً مطيعاً، وألعن حظي. لكن نقمتي على الظلم تتبدد تماماً عندما يُفتح الباب، وإذا بالوجيه السعيد شلوٌ مقطوع الرجلين، يتشبث بصورة محزنة برقبة ولده، الذي يحمله إلى داخل المحل. وأمضي في طريقي حامداً ربي، راضياً بنصيبي.

فيما أنا شارد مع خواطري، إذا بي أدخل في دوّامة من الأزقة الملتوية والحواري الضيقة، عبثاً ما أبحث فيها عن منفذ إلى الطريق العام. صبيان وبنات يغنون، يتصايحون، ويلعبون بالطابة أمام بيوت بائسة تنبعث منها أصداء المذياع، ويقرفص النساء على عتباتها كالقرويات، متطلعات إلي بهزء واستغراب، لا أفهم دواعيه إلا عندما أصل إلى آخر المتاهة، فأجدني وجهاً لوجه أمام حائط. إذن لا مخرج من هنا. وأعود أدراجي لأسأل هؤلاء الرقباء حولي:

ـ «من أين أقطع إلى الخط الرئيسي؟»

متوهماً أن فقرهم يقربهم منا نحن الريفيين. لكنهم يخيبّون ظني، ويثبتون انهم غرباء عنا كأي من أهل المدينة الآخرين، إذ يجيبوني قالبين شفاههم بلا مبالاة وامتعاض:

ـ «لا نعرف».

عندما التفت إلى الوراء فافاجىء طفلة تضحك مشيرةً إلي، وفتاة جالسة مع أمها على الدرج تتغامزان في ظهري بابتسامة ساخرة، اتعثر وأكاد أقع على وجهي، اترنح في هذه الجهة أو تلك. وأكاد أتطاير في الفضاء كعصافة من القش. فليس في جسدي جاذبية كافية تشدني إلى الأرض. كما اني لا أملك أي جهاز دفاعي أو قوة رادعة تُبقي الآخر على درجة من الخوف حيالي، وتضعه في حالة احتراس مني. أنه يعرف انه لن يلقى عندي مقاومة جدية، فيرشقني بأول حجر يقع تحت يده، واثقاً اني لن أكيل له الصاع صاعين. كهذه البنت الصغيرة التي تستوقفني في الزقاق، تتطلع إلي شامتة، وتمد لي الطابة مازحة:

ـ «تفضل العب!»

لو اني شخص يوحي بالخشية والاحترام لما تجرأت ان تعبث معي. لكن غريزتها انذرتها اني لا أؤذي، وانها تستطيع دون خطر ان توظف في قطاعي نكتة أو دعابة لو حاولت إيداعها عند غيري من الرجال لكان نصيبها صفعة قوية على وجهها الوقح. الأولاد ينادوني «نديم» دون اي لقب أو صيغة تهذيب مما مفروض ان يطلقه الأحداث على من يكبرونهم سناً. ومن هم دوني مرتبة في السلم الاجتماعي يتجاوزون جميع المراتب التي تفصلني عنهم بحسب التسلسل الشرعي، يستخفون بعصمتي، يقتحمون حديقتي المشرعة بكل حرية، ويرفسون بابي برجلهم دون اشعار رسمي، فلا يخاطبوني بصفة سيد أو خواجا أو استاذ. وانه ليفرحني أحياناً أن أكون شعبياً وشريكاً للأطفال والفقراء المهانين. لكن رفع الكلفة هذا يذكرني أحياناً أخرى اني لست محترماً ولا مستهاباً، اني لا أنشر سطوتي على مخلوق، ولا أفرض شخصيتي على أحد.

إنيْ إنسان وهمي. كل ما ألمسه بيدي يتبخر إلى سراب. ليست أعمالي وأقوالي حقيقية كتلك التي تصدر عن باقي الناس. فعلي ليس حدثاً واقعياً قادراً على بلوغ الغاية المتوخاة منه. وكلمتي لا تؤدي إلى نتيجة، لا تقوم بوظيفتها، ولا تخدم الغرض الذي لُفظت من أجله. عندما أتكلم لا يسمعوني، وأحياناً لا يتركوني أكمل حديثي، الذي يفقد كل وزن لمجرد خروجه من فمي، ويتبخّر في الهواء، وكأن الناطق به معتوه، أو طفل صغير يهمدر بين أقدام الكبار، الذين يعقدون حلقة للتشاور والتداول فيما بينهم يبقى هو خارجها. حجتي ليست مقنعة: إن أبديت رأياً لا أعتبره صحيحاً، إن رويت قصة لا أؤمن ان وقائعها قابلة للتصديق ومطابقة لأسلوبي في السرد، وان أصدرت أمراً لا أتوقع أن يُطاع. ممتلكاتي، حوائجي، كل ما له علاقة بي مجرد ظل خادع: إن شرعت في رفع المداميك لا أثق أولاً بامكانية انجاز العمارة، التي ان انتهت لا أراها بناية عادية كتلك التي يشيّدها المقاولون الأصليون، ولا أتصورها تحتوي على غرف حسية ملموسة صالحة للسكن والاستعمال. حتى لأكاد أحياناً أن أضحك لاضطراب حاملي الحجارة العاملين لحسابي. ماذا أينخدعون بي ويعدوني رسمياً صاحب مصلحة حائزاً على الشروط المطلوبة، ومتمتعاً بالمواصفات المألوفة، ويأخذون

العناء المبذول لأجلي على انه مجهود فعّال موضوع في خدمة سيد جدّي. أخجل عنهم وعني وأشفق على مواد البناء، التي أناشدهم في سري إخفاءها والانصراف، فالقضية مزيفة كلها، مزحة ثقيلة، ولعبة لا تستحق الاهتمام.

إني نفر تسلل بين صفوف الجيش بلا ذخيرة. وهذا مصدر ارتعادي في حضرة الجنود الآخرين المدججين بالسلاح، الذين يخضعوني لتهديد دائم. لا أعلم متى يفتحون علي نيرانهم، فأعجز عن صد عدوانهم، وصون مناعتي. لأني أعزل يستطيع خصمي ان يفعل بي ما يشاء دون تورع. لن أرد ولن أقاوم. لا أشكل أي خطر عليه، ولا أملك ردعه إذا تمادى في غيه. لست متحلياً بأية قدرة وقائية، ولست مزوّداً بأية طاقة هجومية تكبح الغاصبين عن هضم حقوقي. من هنا أن أقراني لا يحسبون حسابي، ولا يحسون بوجودي، فأنا في نظرهم الشخص الذي لا يتأثر ولا ينفعل، لا يأخذ على خاطره ولا يثور لكرامته، لا يجوع ولا يعطش، لا يحب ولا يكره، لا يفرح ولا يحزن. إنهم يحبونني أكثر من غيري لاني لا أشهر في وجههم سيفاً ولا ترساً يقتضيهم البقاء في حالة ترقب واستنفار وعلى درجة من التوتر والحذر من قوة معادية يجب أن يحتاطوا منها ويمالئوها لئلا تنقض عليهم. إنهم يرتاحون في حضوري، يأخذون هدنة، ويلقون سلاحهم لحظة، لاني لا أهددهم، لا أنافسهم، ولا أضعهم في مناخ التأهب للنزاع، فأنا دولة ضعيفة يستبيح حرمة أراضيها وأجواءها أي جيش مجاور.

وهكذا أنا إنسان مسالم أصاب بدوار حين أشم رائحة الحرب. وعندما أرى خصمين على وشك الدخول في شجار أحاول ان أهمد نيران الحريق. وأتعجب دائمًا لسبب الخلاف الذي، مهما كان وجيهاً، لا أجده كافياً لتبرير ذلك العمل البغيض المخيف الذي هو القتال. وأحوم حولهما مرتعداً وجلاً. هناك صدام بالأسلحة، وأنا بلا ذخيرة. هناك شظايا قنابل ورذاذ رصاص يتطاير وأنا بدون درع يحميني. الآن ستنكشف طامتي الخفية وعاهتي المستترة. بأية أنياب وأظافر انبري للنزال عندما تقع الواقعة، فيطلبون مني أن اتصرف كما هو منتظر من أي شاب آخر لو كان في مثل موقفي، ويعهدون إلي بدور لم يخلق لي ولم أخلق له ولا أنجح في تأديته مهما بذلت من جهود تمثيلية. وحتى لو ارتميت واجفاً في المعمعة فاني أبقى دائمًا خارج الحلبة، ويستمر الصراع وكأني ما اشتركت فيه. لا

أحد يقيم وزناً للقوة المزعومة التي كان من المفترض ان أطرح بثقلها في أرض المعركة. أنا أيضاً، وربما قبل الجميع، لا آخذ طاقتي عن جد. وأكثر ما يكون هذا الشعور إيلاماً عندما يشتبك أحد أخوتي أو أهلي مع عنصر غريب، فيصبح لزاماً علي ان أساعده واحميه واهبُّ لنجدته. لكني لا استطيع ككسيح يحدث أمامه أمر جليل يقتضيه النهوض والتقدم في مواجهته. لكنه لا يقوى على ذلك، فيكاد يبكي من قهره، ويعي حينئذ عجزه وعاهته على أعنف شكل.

وبما أنه ليس لي مخالب، فاني اذا وقعت في صراع مع أحد سرعان ما انحزب معه ضد نفسي، وانحاز إلى جانبه ضد مصلحتي. سرعان ما استصوب حكمه، واتبنى قرار إدانتي وكأن تخاذلي في الدفاع عن حقوقي يُسقطني منها. والمسؤولون يعرفون اني طفل كبير يجب ان يبقى دائمًا تحت الوصاية. وإني أرفع راية التسليم قبل ان تبدأ المعركة لأروح أبكي في داخلي باستكانة مظلوم ينتظر ان تأتي سلطة خفية إلى نصرته، وان تحصّل له مطاليبه دون أن يبذل من جهته أي مجهود سوى اللهم بعض الدموع الصامتة والدفينة التي تتلذذ بمشاعر الانسحاق والمهانة.

هناك خلف حدائد هذه النوافذ المغلقة ينهمك موظفو «المصرف الفرنسي - الشرقي» في اشغالهم، سعداء يقبلون بالحياة ويحبونها. هناك يجلسون محصّنين وسط أكداس الأوراق، لا يخشون أمراً، في سلام مع نفسهم، مع بعضهم، ومع المجتمع. هناك يقفون على بر الأمان من الجهة الأخرى، لا يأبهون لغريق مثلي، يتوق إلى النجاة، ولا يستطيع بلوغ الشاطىء، تتوتر أعصابه أكثر ما يكون وقت الدوام، وانضباط أصحاب المهن في مراكز نشاطهم. ويخفّ اضطرابه قليلاً بعد الظهر، حين ينصرف المأمورون إلى بيوتهم، وقد صارت الفرصة من حقهم، وأصبحت بطالتهم مشروعة. كما ان باله يرتاح ويهدأ نوعاً ما أيام الآحاد والأعياد، حين ينضم الجميع اليه، ليشاركوه اجازته الدائمة ويتساووا به، حين يدخل منطقة العطلة العامة، حيث يتغلغل بين العاملين، ينتحل هويتهم، ويسلبهم حقاً ليس له. إن أعباء الشغل المرهقة أخف وطأة بما لا يقاس من عذابات البطالة النفسية، وهذا القلق الذي يشد علي الخناق، والحزن الذي يتفشى في قلبي، ويخدِّر جسدي كلية، عندما أرى، أنا التلميذ الهارب، هؤلاء

الطلاب المجتهدين، الحائزين على رضى أساتذتهم وأهلهم وبيئتهم، يفتحون أمامهم دفاتر الحسابات الكبيرة، ويستغرقون فيها. بينما أظل أنا معرَّضاً في أية دقيقة لمعاناة آلام التحقيق القضائي، الذي قد يفتحه معي أول عابر سبيل. ربما لو كنت على الضفة الأخرى التي يقف عليها متقاضو الرواتب المحظوظون لحذوت حذوهم، وعشقت الدنيا مثلهم، ورضيت بها ولأبديت نفس أنانيتهم ولا مبالاتهم حيال المحرومين الذين يتخبطون في الغرق وحدهم دون ان يفكر أي من عديمي الإحساس ان يرمي له طوق الانقاذ. ربما لو دخلت يوماً ما نطاق الدائرة التي يعيش فيها الآمنون إلى يومهم، المطمئنون على غدهم، لزال الحائط القائم بيننا، ولما عدت أشعر بنفسي غريباً عنهم، بل صرت صنواً لهم أراهم من ذات طينتي وجنسي، وعندئذ فقط أصبح مؤهلاً لأن أتعاطف معهم، وأتودد إليهم بحنان، وأشاركهم أحاديثهم وضحكاتهم. لكني لا أكاد انتقل بالخيال إلى الجانب الآخر حتى أبدأ بالتنبه إلى ان المنتصبين عليه ليسوا هانئين إلى هذه الدرجة، وليسوا من الآلهة الذين لا تؤثر عليهم الأنواء، بل لهم أحزانهم وهمومهم مثلنا تماماً نحن المعذبين، فيزيد هذا القاسم المشترك في تذويب الجليد بيننا.

- «في أي طابق المصرف الفرنسي - الشرقي؟»

فيجيبني البواب واضعاً مفتاح الضوء في ثقب أمامه، فترسل الآلة إشعاعاً أحمر:

- «في الطابق الرابع.»

فادخل المصعد الذي لا ألبث أن أخرج منه لاخفاقي في إغلاق بابه وتسييره. وإذ أتنحى جانباً يدرك أمري رجل ينتظر دوره في الزاوية، ويدعوني:

- «تعال.»

فاتبعه، وبكبسة زر من يده الخبيرة ها نحن نرتفع ونرتفع. وعندما نصل إلى محجتنا نجد واجهة المصرف مغلقة. فيعرض علي محسني الكريم المعتاد ربما على مثل هذه الأمور:

ـ «تعال نكمل مشوارنا إلى فوق ونرجع إلى وقت ما يفرجها الله ويفتح البنك.»

وبعد ان نحلّق إلى ان نبلغ الأوج نعود لنلقى الأبواب موصدة لا تزال. فننزل إلى تحت، ننتظر قليلاً ثم نعاود الكرة ثانية لنتعثر بذات العقبة من جديد. وكأننا نصطدم بحائط القدر الصلد. لكني انتبه هذه المرة إلى التحذير المرفوع على الواجهة الزجاجية المطبقة: الدوام من الساعة ٨,٣٠ إلى الساعة ١٢,٣٠. إذن قُضي الأمر ولن أجد الخلاص من هذه الناحية لأنها مسدودة في وجهي إلى الأبد. ومع ذلك ها أنا أترجل في الطابق الرابع حيث انظر من خروم الشبك إلى المصعد الواقف في أسفل البناية، والذي تحفزني رغبة غريزية إلى إلقاء نفسي عليه، وتملؤني بذات الوقت هلعاً عندما أتصوّر العاقبة الوخيمة التي تتهددني فيما لو قمت بهذه القفزة الجنونية. سئمت تكبيس الأزرار، والنزول والطلوع في المصاعد الكهربائية من خيبة أمل إلى ثانية، ومن رفض إلى آخر، كسلعة كاسدة تنقلها الرافعة من مكان إلى مكان وتعرضها على الجميع دون جدوى.

إن ساعة المصرف هي من ذلك الطراز القديم الذي كان يعلّق على حائط القصور الانجليزية في العهد الغابر، يتأرجح بندولها النحاسي الكبير كمقصلة أرمقها بتوتر من ردهة الانتظار وهي تهتز لا أعلم متى تصل إلى مستوى رأسي وتقطعه، شاخصاً من خلف الزجاج إلى الموظفين المغبوطين: فتاة تتقدم من برّاد، تأخذ بيدها علبة صغيرة من الورق المقوّى، وتكبس على صنبور الماء، وعندما يمتلىء الكوب تضع في فمها أول حبة دواء وتشرب وراءها جرعة، ثم تبتلع الحبة الثانية وتعقبها برشفة أخرى. إنها اذن ليست بذلك المخلوق المبرأ عن النقص المنزّه عن الألم الذي كنت أتصوره. فلا يكفي ان يكون للمرء عمل كي تكمل فرحته. هناك أشكال متنوعة من العذاب. حتى ليمكني اعتبار نفسي متفوقاً عليها. اني متبطل ولكني لست مريضاً. إني من أبناء الشعب الذين يملكون امتيازاً وحيداً على أبناء الذوات: العافية الفطرية. الكتبة يبدون لي، خلف حواجزهم، ركاباً مرفهين يتنزهون على متن باخرة، يستريحون على كراسيهم الطويلة، ويتأملون ساهمين مياه اللجة التي أتخبط فيها أنا الغريق دون ان يمد لي صاحب مروءة منهم يد الرحمة، أو يرمي حبل النجاة. إنهم جماعة من

علية القوم يجلسون في الدرجة الاولى في صالة المسرح، بينما تنظر إليهم الفئات الدنيا من شاغلي الطبقة الأرضية بحسد وإعجاب. عندما يمازحون زميلة تمر بين صفوفهم أكاد أضحك معهم رغبةً مني في المشاركة في حياتهم الخاصة المحاطة بهالة قدسية كواحد من العامة شغوف بالاطلاع على أسرار الطبقة الراقية، والتسلل إلى جو معيشتها الحميم ينظر من خلف أسوار الحديقة، ومن خلال زجاج القصر إلى الحفلة الراقصة الدائرة بين جدرانه، مشدوهاً مأخوذاً بكل حركة، مندمجاً فيها بالحلم. إن حُرم علي ان أكون من بحارة هذه السفينة وطاقمها. إن استحال علي أن أكون كهذا القبطان الذي يدخن غليونه، ويكتف يديه، مكتفياً بمراقبة فريقه. إن تعذر علي أن أكون كهذا النفر المتمترس في استحكامه المحدد أو ذاك الحارس المتمركز في نقطة مراقبته، فليُعطَ لي على الأقل أن أكون كهذا الحاجب الذي ينفض الغبار عن المكاتب بالريش، أو كهذا المؤزع الذي وضعت له خارج الحواجز طاولة ينشر عليها الرسائل التي يطويها في المغلفات ثم يصفّها جانباً.

وها أنا من جديد في الشارع، حيث أقرأ الاحتقار في عيون المارة، فيعصر قلبي بشدة يخُيل إلي معها إني سأقع بين الأقدام. ردهات مدرسة، ممرات مستشفى، باحة مؤسسة رسمية، هذه هي رايات اليأس التي تطالعني حينما أرفع نظري إلى فوق. أما إذا خفضت بصري إلى تحت، وقعت على أعمى، يتحسس الأرض بعصاه، ويتأنى على المفترق متحيناً الفرصة للعبور من رصيف إلى آخر، متنصتاً إلى دبيب السيارات. حتى إذا كف الهدير عن الميلين اجتاز الطريق، متئداً بخطى معذب أصيل يعرض تحفة جمالية خالية من الزيف.

أحياناً أفاجيء يدي وهي تقوم غريزياً بعملية تجرِّع كأس من السم تقلبه في فمي حتى الثمالة. لكن سرعان ما تدمع عيني شفقة على نفسي، وعلى أهلي، الذين لا يطاوعني ضميري أن أسبب لهم، بانتحاري، ألماً كهذا اليأس الذي يسحقني الآن. وفيما أنا على هذه الحال إذا بي اقترب من محل لبيع الاسطوانات تتعالى منه الأغاني على صوت عالٍ. فاطأطيء رأسي وأتقدم منه دامعاً من حنان، مغموراً بموجة مفاجئة من السرور، وكأني باحتمائي تحت اسكفته آخذ حُماماً منعشاً من الألحان، وارتمي بعد غيبة مُرّة وطويلة في أحضان عائلتي، لأفضي لها

بمكنون صدري، مستمداً منها العزاء، تائباً، نادماً عن عهد العذاب، الذي أمضيته بعيداً عنها.

ـ «تقبرني يا ماما!...»

إن هذه الكلمة الصغيرة، التي تلفظها أم شابة تحمل طفلها، وتقبّله بعطف، تلغي المدينة كلية. إن عبارة «افتح يا سمسم» البسيطة هذه تشق مغاور الفرح والأمل وسط الصخور الوعرة السوداء. إنها نفحة حب وغيرية تهبُّ من صوب الريف على غابة الحقد والعواطف المتحجرة الخاضعة لسلطان الأنانية وقانون التنافس. إنها صوت خافت يتعالى وسط هذه الضوضاء الصاخبة ليعلن ان العالم يبقى جميلاً على كل حال، وان الحياة ليست، في الحساب الأخير، كابوساً مرعباً. أنا أيضاً هناك صدر حنون، يحتضنني كما تحنو هذه المرأة على وليدها. انا الآخر أملك كنزاً لا يقدر بثمن هو قلب أمي، التي أهاجر نحو مرفأها الأمين، حيث تغفو باطمئنان مغطية وجهها باللحاف، متكومة في الفراش كتلةً صغيرة من الغفلة والبراءة، مشكِّلة صمَّام أمان لا تستطيع أي من هموم العالم التأثير عليه، ومركز جاذبية يعني الانسلاخ عنه هلاكي. حتى لأقرر، عندما اتمثلها تكنس عتبة الواجهة فتظهر سجادتنا الحمراء، الاضراب عن أي نمط في العيش مغاير لأسلوبها، وأي مكان للسكن بعيد من محورها، وحتى لأكاد اسمع صوتها يخترق فجأة كل هذا الضجيج، ويعزلني لحظة عن حومة الوغى. حينئذ أغمض عيني بحنان وأرحل إلى عالمها الهادىء الآمن. فكل امرأة هنا تذكرني بها، وبالبيت الذي ليس شيئاً آخر سوى حضورها. إنها الكائن الوحيد الذي يقبل بي كما أنا، يغفر لي ضعفي، ويعتبرني مخلوقاً بشرياً جديراً بالاحترام رغم عجزي وتشويهي ونقصي. إنها الاذن الوحيدة التي تسمع شكواي، تعطف علي، وتؤاسيني. إنها الصوت الوحيد الذي يدخل العزاء إلى قلبي، واحتاج أن أكون قربه لأصغي إلى حديثه. لكن لو استسلمنا جميعاً في زاوية من البيت إلى النجوى والأنين كيف سنقدر يا ترى ان نشق طريقنا وسط غابة الحياة، وان نحصل حقوقنا من براثن ذئابها المفترسة؟ ليست صور أمي وأخوتي المتصاعدة من أعماق منطقة السلام التي يعيشون فيها، الواقفة في عيني الآن، تفارقني، قبل ان تمحوها الدموع! وحدها أطيافهم الحبيبة ترافقني، تحوم حولي بخوف، وتخفق نبضاتها في قلبي،

وحدها تضمني إن ارتميت في أحضانها مستسلمًا، وتنتظر أوبتي العتيدة في ذلك العالم الآمن الذي تعمره لي بالحنان. وحدها تستثير شوقي ببعدها، وشفقتي بجلهلها كل شيء عن الزحام الجهنمي الذي قُذفت إليه فوق هذه الأرض المعادية.

سيارة أجرة تصف أمام الرصيف الذي أسير عليه، يترجل سائقها بغضب، يفتح الباب الخلفي حيث تجلس فلاحة فقيرة متقدمة في السن، وينتعها من يدها:

ـ «ما معك ربع ليرة كيف طلعتِ. قومي انزلي!»

فتتجمع على نفسها وتحرن، ملتصقة بالمقعد كالصمغ:

ـ «الله يخليك اتركني أرجع إلى بلدي. أنا خارجة رأساً من المستشفى».

ثم تسحب من جيبتها وصفة طبية وتلّوح بها:

ـ «من أين أدفع حق الدواء. ما عاد معي إلا ليرة لتوصلني إلى الضيعة.»

فتتطوع امرأة رقيقة الشعور من الركاب:

ـ «أنا أحط عنها.»

لكن السائق الشرس يصرّ:

ـ «أنا لا أسأل عن الربع والنصف ولا يهمني المال. كنت أخذتها معي لأني رائح فيها وبلاها. كل قصدي أن أعلم النصابين حتى يبطلوا يطلعوا بالسيارات...»

وينشل المرأة بالقوة ويدفعها على الرصيف حيث تواصل ولولتها:

ـ «مقطوعة أريد أن أرجع إلى بلدي.»

وبعد ان يلقي بها وحدها وسط هذه المتاهة، وبين هذه الحشود الغريبة، ويقرأ في عيون الركاب والمارة الكثير من اللوم والانتقاد، يروح يبرر نفسه:

ـ «مرة طلع معي شحاذ وصار يتبكبك ويشيل علب أدوية من جيبته.

شفق عليه الركاب وأعطوه. وصل إلى الحمراء معه أكثر من عشر ليرات. ربح بالنتيجة أكثر مني. فتشنا دوّرنا تبين لنا ان الأخ يصيِّف ببحمدون وانت تعرف ايجارات بحمدون، وانه يندس بين المصطافين الأغنياء حتى يلملم من وراءهم. من يومها قررت ان أرفض كل واحد نصّاب من هذا النوع. وهذه الكذابة أنا أكيد، من لهجتها، انها من بيروت وما لها علاقة بالجبل...»

أود ان انفح هذه المرأة الفقيرة بضعة قروش. لكن كل محاولاتي لصرف ليرة تبوء بالفشل. لا أحد هنا يحمل فراطة أو يملك استعداداً لاسداء خدمة مجانية لغيره. فأكاد استنجد بشاب من قريتي أرى الطيبة والشهامة والأخلاق العالية على وجهه، وأتوسم ان به مثل ما بي. وإننا نستطيع بالتالي ان نفهم على بعضنا في هذا المنفى.

أمام المقهى يمتد صف طويل من شاربي النراجيل يجلسون على كراسي الرصيف واضعين رجلاً على رجل، يتحادثون ويستعرضون المارة، ينفثون مجات الدخان، ويرشفون فناجين القهوة والشاي المبعثرة على المناضد حولهم. تمر أمامهم فتاة متناسقة الساقين، فيظلون يلاحقونها بأنظارهم إلى ان تختفي عن الأبصار، لتخلِّف مسرح الرؤية لسائح أجنبي يعلِّق آلة التصوير على كتفه ويقف مشدوهاً أمام المقهى، وكأنه شاعر هبط عليه الوحي، أو صحافي وجد أخيراً مادة زاخرة لتحقيقاته. وإذ يتسمر مكانه يتأمل الرواد مأخوذاً مبتسماً بنشوة يهيب به أحدهم مازحاً:

ـ «تفضل!»

فيبتسم المسافر الغريب ويبتعد عنهم. لكنه لا يكاد يصل إلى آخر الناصية حتى ينكص على عقبيه، ويستدير ليعود إلى استعراضهم من جديد، كأنه يريد ان يرّسخ هذا الانطباع في ذهنه جيداً كي يكون عنده، بعد ان يؤوب إلى وطنه، ما يرويه عن العجائب والغرائب التي تفرج عليها في ديار الشرق. ثم يشخص ذاهلاً إلى رجل بكوفية وعقال أتصوره تاجراً من الأردن أو سائق سيارة شحن من سوريا، يتوقف قليلاً في لبنان ليعود غداً إلى بلاده يخبر أهله عن مشاهداته خلال رحلته، ويضيف رصيداً جديداً إلى سلسلة ذكرياته عن السفر والمغامرات في دنيا

التجارة التي كانت نصيبه في هذه الحياة، محركاً ملعقة في فنجان القهوة بيد، ممسكاً بالثانية نربيج النارجيلة، راشفاً حيناً رشفة من هذا، آخذاً حيناً آخر نفساً من تلك، مبحلقاً تارة في مارة حسناء، متلفتاً طوراً إلى كادح يجلس على كرسي قرب البائع المتمترس بعدته على قارعة الشارع، محتسياً كوباً من الشاي، مرتاحاً قليلاً خلال هذه الدقائق القصيرة التي يسرقها من حساب التعب، محادثاً الخبّاز الواقف بمريوله الأبيض على عتبة الفرن.

بينما يتحوقل المراهنون يلتهمون سطور جريدة سباق خيل، يمسكها شقي من تلك الطباع الجامحة الغريبة، الخارجة عن القطيع البشري، وما يسنّه من شرائع ويكرّسه من عادات، ما يعدّه من طرق مألوفة، ويتعارف عليه من تقاليد صارمة. يعجبني فيه انه وجد وسيلة بسيطة للافلات من قبضة المحرمات والكوابيس، التي تجثم على صدري، مبرهناً لي ان الحياة ممكنة دون الخضوع لعبودية المجتمع، وضغوط القانون.

المتسول الذي ينبش في صندوق القمامة باحثاً ربما عن عقب سيجارة، ربما عن نفايا مأكولات، ربما عن رزقة سحرية كفأرة خارجة من عالم ما تحت الأرض يبدو بلحيته الكثة، وشعره المنبوش، وثيابه المهلهلة، وفقره المفرط كائناً لا واقعياً يلعب دور شخصية خرافية في إحدى ملاحم البؤس. أما المتسكع الذي يحوم الذباب حول وجهه، والذي ينام على عتبة متجر مغلق، متقلباً وكأنه في سرير، مدخلاً يده في بطنه حيث يروح يهرش جلده، أو يداعب عضوه، كشخص بمنأى عن الأعين، تتغلغل أصابعه تحت صرة بيجامته، فلعله عتال أو عاطل عن العمل، أو جائع لم يعد يملك القدرة على الحركة، فتمدد هنا لا يحفل به أحد حتى لو مات. كما انه بدوره لا يهتم بأي انسان، وليس له علاقة بمطلق شخص. انه كومة من الزبالة مطروحة وسط الشارع. لو كان في القرية لأكتسب قيمة، وصار له اسم، لأصبح له ضرورة، ومنحوه هوية، لأوجدوا له مهنة، وأوكلوا إليه ان ينقب حقلاً، ان يشتغل بالعمار، أو أن يجلب الأغراض من السوق.

أحسد السمكري الذي يعالج بمطرقته سطلاً من التوتياء، لأنه يملك مكاناً معيناً يجلس فيه وزماناً محدد الأطراف: يشتغل الآن، بعد قليل يذهب للغداء، فيرتاح فترة قصيرة، ثم يستأنف العمل. بينما افتقر أنا إلى ركن خاص

وإلى توقيت مميز المعالم. كما أغبط المنجدَّ المتربع على الأرض يأكل من المطبقية في عتمة دكانه القديم، لأنه استطاع ببدائية حرفته وبساطته، بفقر حاله وتواضعه ان يظل قريباً إلى طهارة الريف، وان يصون روحه من التدنس برجاسة المدينة، التي احتفظ لنفسه فيها بزاوية صغيرة للنجاة من مصير أبنائها الملعونين.

عندما أمر أمام المكتبة الخاصة ببيع الكتاب المقدس، أتوقف أمام الواجهة، اتعزى قليلاً بقراءة بضعة سطور من الانجيل الكبير المفتوح:

« . . . طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون. طوبى للانقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدُعون. طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات. . . »

صرَّاف يأكل صحناً من الحمص بشهية، ثم يقشر تفاحة. وبعد ان ينتهي من طعامه، يصفق بيديه مرحاً، ويحمل الصينية إلى حيث يضعها على طرف الممر في المكان المصطلح عليه لإيداع الصحاف الفارغة كي يأتي صبي المطعم لأخذها، مخاطباً ذاته على صوت عالٍ:

ـ «ليتها ألف صحة وهناء! . . . »

وإذ يرفع الحاجز ويعود إلى عشه الصغير، أتعجب له كيف يتصرف وكأنه في بيته. نعم فلا أحد هنا يبالي بالآخر أو يخجل منه. والجميع يأخذون حريتهم لامرئيين خلف جدران اللامبالاة الحميمة.

الأغنية الحزينة التي تنبعث من دكان الصرَّاف في كسل بعد الظهر، والتي طالما سمعتها في الوادي تملؤني حنيناً إلى العودة وحاجة إلى ركن منفرد على الرصيف اتهاوى فيه لأبكي متجمعاً على نفسي. لا أمل لي بالنجاح، سألقي السلاح. ما فائدة المقاومة. ما جدوى تسجيل اسمي في مكتب للعمل. لن يأبه أحد لأمري. وسيُلقى طلبي في سلة المهملات حالما أدير ظهري. أني تعبان ومشتاق إلى الراحة في البيت بين أهلي وأخوتي.

فيما أنا منزرع على مفترق طرق لا أعرف بعد كيف اتجه. إذا بدّهان يصعد السلم، ويطلب مني ان أحيد لأنه ينوي البدء بالطرش. فاتعجب أنا الذي كنت أظن ان الناس لا يتخاطبون ولا يتبادلون الكلام في هذه المدينة، أنا الذي كنت اعتقد انه لا يوجد من يشعر بي، أو يعتبرني مخلوقاً واعياً ناطقاً ليوجه إليه الحديث، الذي لا يفاجئني مع ذلك مضمونه أبداً. انه ينبهني إلى اني أقف في مكان غير مناسب، اني، بانشتالي الأبله هنا، أعرقل الحركة، وأعطل أشغال الآخرين، واني أداة غير صالحة للاستعمال، وبالتالي مزعجة ويجب تنحيتها. فيؤنبني ضميري إذ أرى يديّ هذا العامل الضخمتين وزوّادته، وكأني هارب من الجندية يقارن جبنه ولا انضباطيته بطاعة واجتهاد رفيق له في السلاح يقوم بواجبه على أكمل وجه.

السائقون يقفون على الرصيف، ساندين ظهورهم إلى حديد المنشية، التي يتجمهر حولها جمع غفير من الناس يتفرجون على عقارب ساعة الزهور التي تشير إلى تمام الثانية، منادين: جونيه، البترون، جبيل. فيهبّ علي من صوبهم نفحات من الهواء المنعش. يوجد اذن منافذ خلاص، وهذا السجن ليس مؤبداً، طالما ان هناك بعض المحظوظين يستطيعون النجاة بجلدهم. وعندما أرى اثنين منهم يدخلان في شجار أتعجب، وأكاد أصرخ بهما: علام تحتدان؟ ألا يكفي انكما ستبتعدان بعد قليل عن هذا الجحيم. وماذا نقول نحن الذين لم تنتهِ بعد مدة عقوبتنا فيه. بما انكما ستصبحان بعد فترة وجيزة في هذه المدن والقرى التي أرافقكما اليها بخيالي فان ما تبقى لا أهمية له.

لعل هذه الزحمة الكبيرة من الركاب، المتجمعة أمام هذا الموقف والمؤلفة من جنود ونساء وشبان ورجال من كل المهن ينتظرون دورهم، فائض بشري تعجز المدينة عن استيعابه فتحاول تصريفه إلى الخارج، ورساميل متضخمة ستختنق الشوارع إن لم تنّفس عن صدرها بلفظها بعيداً. إن كان هؤلاء الشبان الذي يصعدون في السيارة، ويغلقون بابها ينطلقون لاختراق أسوار بيروت ومحاذاة شاطىء البحر باتجاه نهر الكلب فهنيئاً لهم. إنهم مدينون للسائق الذي يقود خطاهم نائياً بهم عبر هذا الدهليز المعتم، شاقاً في وجههم درب الخلاص، كارجاً بهم نحو منافذ النور بدواليبه، التي أرنو إليها بحنين وهي تركض هاربة،

وتهرول خائفةً ان تلتفت وراءها لئلا تكتشف أحداً يلحقها ليوقفها ويمنعها من الفرار، متسائلاً: وأنا متى تدق ساعة الفرج بالنسبة لي.

فيما انا أجتاز من رصيف إلى آخر أُفاجأ بصفارة الشرطي تدعوني. وإذ التفت إلى الوراء يشير لي بيده أن ارتد نحوه، ويبادرني:

ـ «ألا تعرف انه ممنوع ان تقطع الطريق قبلما تضويء الاشارة الخضراء؟»

ـ «لا تؤآخذني أنا غريب أجهل قوانين السير.»

ـ «غريب؟ من أين؟»

ـ «من (وادي المروج).»

ـ «اعطني تذكرتك.»

فيأخذها ويروح يكتب محضر ضبط ترتعش أنامله وهي تخط عليه، الاسم: نديم . اسم الأب: يوسف. الشهرة: حمدان. محل الاقامة: «وادي المروج»، بملكه.

وعندما ينتهي ويسلمني الورقة اعتذر له:

ـ «ما عاد معي عملة لأدفع لك.»

ـ «أنا لا أطالبك بالتسديد رأساً هذا مثل ضبط السيارة.»

ـ «حريقة! حريقة!»

تصرخ امرأة عجوز ترى، من خلال حدائد شباك، السنة النار مندلعة داخل عنبر. لكن شابين يمران قربها هازئين بها. وتظل واقفة وحدها وسط الشارع ومن حولها أمواج من البشر يتدافعون غير آبهين لها، تدق ناقوس الخطر ولا سميع. فلعلها ريفية الأصل حديثة عهد بالمدينة، لم تهمد فيها بعد حاسة الفضول حتى تقف هنا كنبي يبشر برسالة لا يؤمن بها أحد. تنظر حيناً إلى النار وحيناً آخر إلى الناس، مندهشة، رافضة التصديق أن النخوة والمروءة قد ماتت في القلوب.

خادمة بوجه قروي مدوَّر، وعيون محمرة، وشعر منبوش، تضع يداً على

خصرها وتشرد بنظرها إلى الشارع واجمة، وكأنها تبحث عن فارس مجهول يخطفها بعيداً عن عذابها. إنها مظلومة تكابد، ربما يومياً، الضربات المهينة التي تكيلها لها معلمتها. إن قلة الحظ توّحد بيني وبينها، وتهيؤنا للصداقة والتفاهم والتعاطف. فلو انها تشكي لي همها لقدمت لها كل عزاء ومساعدة لازمة واندمجت معها في البكاء، علّ ما نذرفه من عبرات مشتركة يخفف من حدة آلامنا، ويذيب كياننا الفردي في دمعة عطف كبيرة. إن هذه الجارية المضطهدة نبتة من الريف مزروعة في غير الأرض الصالحة لها، ترنو إلى الأفق ربما صوب الينبوع باتجاه مسقط رأسها. تنطق تطلعاتها الساهمة بالتعالي والكبرياء حيال هذا البلد المعادي الذي سُبيت إليه، والذي تدير ظهرها لأسواره، وترفض طقوسه، وتدعوني إلى الفرار معها من جوّه. إنها عصفور ضعيف بحاجة إلى يد قوية تفتح له باب القفص. إنها الحلم بقرية نائية أبدأ فيها عمراً من الحب والحنان قرب امرأة خدومة دافئة ووفية.

لكني انسحب إلى تحت شرفة يُطل عنها رجل ليناشد صاحبه، الذي يصفّ سيارته قرب الرصيف:

- «أرجع إلى الوراء.»
- «لا. أفضل ان أتركها بالفيء.»

ويترجل هو وامرأته وأولاده. لا شك انه معزوم على الغداء في هذا البيت، الذي هناك حفلة للتصنع والرياء والكذب يحُضر لها فيه منذ الصباح.

لدى اجتيازي عتبة المطعم، تتغامز فتاتان وتضحكان، ربما لمظهري القروي. فانفر، هابطاً الدرج، نحو جناح منعزل اتصور وجوده تحت الأرض. لكن خادماً واقفاً هناك يعترض وجهتي بابتسامة الشماتة والاستهزاء:

ـ «إلى أين؟!»

مبيناً لي الطريق الواجب سلوكها لبلوغ الباحة الرئيسية، حائلاً دون اقتحامي باب مطبخ اخمِّنه مدخلاً إلى الطابق الأسفل الوهمي.

ـ «صحن كفتى وصحن حمص!»

ـ «ثلاثة قهوة.»

وهمدرات منبعثة عن طاولات تشكل خلايا حية، مغلقة على أسرارها. لكن هذه الوحدات المكتفية بذاتها، المنفصلة عن بعضها، تتضافر معاً في خلق جو عائلي حميم، يجبب إلي الإيواء إلى كنفه الآمن، حيث أتحرر من مركبات النقص، وأنصهر مع أناس لا ينصبُّون نفسهم حكمًا على الغير، ولا يفرضون وجودهم على أحد. لا يشعرون بحضوري، ولا يتركوني مع ذلك محروماً من الدفء البشري، والعشرة الاليفة.

تنعشني نوافير الماء المنبجسة من الحيطان، تحت سقف واطىء، يبني لي ملجأ احتمي فيه من الغارات الجوية القاصفة في الخارج، والقي فيه السلاح ناعمًا بهدنة قصيرة قبل استئناف القتال، ناسجاً ما أشاء من تخيلات وأفكار حول هذه النماذج الغريبة، التي هي بعكس أبناء قريتي، لغز مثير، يوفر مادة غنية لاحلامي، لا يحد من انطلاقها أي إلمام بحياتهم الخاصة: فهذا رجل يدخل

بصحبة ولد وامرأتين يحلو لي ان أتصوره جبلياً قادماً من منطقة نائية مع وحيده، وزوجته، واخته القاصدة بيروت لقص جهاز العرس. وهذا خادم لا أملك عنه أي معلومات تكبح من جماح خيالي وتمنعني أن أخلق سيرته على هواي، انطلاقاً من نزوحه عن الريف، وتضايقه من التصنع حوله، وشروده من هذا الواقع المزّيف بالتطلع إلى الخارج، للهرب من بيئة لا يشعر بالانتماء إليها، ولهدر بضع دقائق من الدوام المأجور انتقاماً من رب عمل لا يضمر له إلا البغض.

ـ «أنا ما أقدر ان أحلّ وأربط بدون استشارة المرأة انت اشكرْ ربك ما عندك إلا أمك.»

يخاطب زبون المعلم الذي يهتف:

ـ «الله يخلي لي اياها بحق السماء.»

ثم يستجوِّب موظفاً يدخل مطعمه:

ـ «قبضت معاشك؟»

وعندما يرد هذا الأخير:

ـ «نعم.»

ويناوله مبلغاً من المال، يعتذر المرابي المتخصص في تسليف الإجراء واقتناصهم في آخر الشهر:

ـ «لا، لا تفتكر اني أطالبك. لكن سألت رفيقك، قال لي: ما دفعوا لنا بعد وكان كل قصدي معرفة الحقيقة لا أكثر ولا أقل.»

فاذا استقرت ورقة النقد في جيبته أُصيب بفرح جنوني، وراح يتقافز بحماس مناشداً الشاب:

ـ «هات سيجارة!»

فيعطيه:

ـ «اشعل لي إياها.»

ـ «اركع!.»

فيجثو أمام عميله الذي يقدح الولاعة ويدنيها من صلعته، مازحاً، ثم يحولها إلى فمه صائحاً.

ـ «عقبى لفرحتك. خلِّصنا. تزوَّج! أو مُتْ»

ـ «لا الموت أحلى.»

عندئذ يحدوني جوابه إلى تصنيفه في فئة الرجال العاجزين عن العطاء، العاجزين حتى عن الانتفاع بما يأخذون. وأتحول بنظري نحو شاب منعزل في الزاوية أمام علبة دخان وقلم ودفتر يضغط صدغه بأصابعه، ويغمض عينيه معتصراً فكره، ثم يضع رأسه بين يديه حين يصبح المجهود مؤلماً ليروح يفرز محصوله بعد قليل على الورقة مهللاً بكل كيانه لتنشيط عملية الخلق، ولاقناع النفس، بالحركات الخارجية، بان الوحي قد استجاب له بالفعل، فما عليه سوى فتح راحتيه لتلقي العطايا. لكن خادماً يقترب منه ويقطع عليه الهامه ليسأله ماذا يريد. فيتضايق ويطلب بلا مبالاة أي شيء يمنحه مبرراً للجلوس هنا، والاستغراق في تأملاته. ويغتنمها فرصة، الآن وقد تشتت ذهنه ليأخذ نفساً من سيجارته، وينزّه على الرواد نظرات انسان يهبط إلى العالم من أجواء بعيدة.

ما الطاقة بين صالة وأخرى سوى كوة يطل منها سجين قلعة يحاول الهرب بالتدلي من أعلى البرج. وما الشعرية الفاصلة بين مقصورتين سوى حاجز تقف وراءه راهبة يزورها أهلها وخطيبها لاقناعها بمغادرة الدير، فترفض لأنها نذرت نفسها لله وحده. الرجل الجالس خلف قنطرة في آخر القاعة هو سيد اقطاعي ينادم ضيوف مائدته من النبلاء. والممر هو دهليز يؤدي إلى أقبية قصر قديم يعبره الخادم لاستخراج الخمور المعتقة. ويشطح بي الخيال أيضاً، فأختار شريكة لحياتي شبيهة بالاميركية الداخلة الآن مع زوجها وطفلها. أُخلص لها الحب ضد رغبة عائلتي وأشكو لها همي كلما تعرضت للمتاعب فتساعدني على تحقيق هدفي حتى ليغدو الفشل مستحيلاً قرب امرأة من هذا النوع.

ثم تغتني أحلامي برافد جديد: فتاة، أحسد الشاب الذي يجالسها، ترفع نظرها نحوي. انها تريد الهرب من صديق لم يُخلق لها، ولا يحسن معاملتها

واللجوء إلى شخص مثلي جدير بها، قادر ان ينيلها ما تصبو إليه.

سوف أصبح أستاذاً جامعياً، واقترن بهذه الحسناء. وأصطحبها مساء السبت إلى المطعم أصمدها قبالتي، تناجيني، تؤانسني، تشبعني حرارة وعطفاً. ثم نذهب بعد العشاء إلى السينما أو المسرح. ونعود آخر الليل إلى عشنا على تأدية ستفهمني، وتنذر حياتها لخدمتي ومؤازرتي في الشدائد، ومساعدتي على تأدية رسالتي السامية، فوراء كل عظيم امرأة. وأثناء العطلة سآخذها معي إلى القرية فتعجب امي بها. ولسوف تضحك مع أخوتي بنفس الطلاقة والطيبة التي تبديها الآن. ونهار الأحد سأرافقها إلى الكنيسة، فيتأمل أقاربي قفوه ظهرها بنفس الدهشة التي تعتريني حيال تكوينه البديع، حتى لألامسه بالوهم، وأكاد أنهض لاطوّقه، وأحتويه بين يديّ، واضمه إلى صدري.

خيّر لي ان أصرف انتباهي إلى فتاة تجلس وحدها تعلن بابتسامة من ثغرها الجميل غيابها التام عما حولها، وتوزّع لفتاتها المترفعة على الطاولات المجاورة. لعلها تنتظر محبيباً تخلّف عن الموعد. فتصطفيني، وقد طُعنت في صميم آمالها، لتبوح لي بسر مأساتها فأشجعها، وأحملها على استعادة الثقة بالحياة، فارضاً عليها حمايتي، متولياً أمرها، مثبتاً لها ان الشهامة لم تمت، ثائراً على شاب يدخن في المؤخرة ويصوّب نحوها نظرات الإغواء. ثم يتخذ من التوجه إلى المغاسل ذريعة للمرور قربها، فيتعدى بذلك على حقوقي وبكارة أحلامي ويستبيح حرمة مملكتي الخاصة.

القنديل الاصطناعي يضعني في إطار عاطفي، يتراءى فيه وجه الفتاة صورة جانبية لحسناء اغريقية، التصق بها، ابثها هيامي، واطفىء الشموع في فندق مهجور، وأدعوها إلى الرقص على أنغام الموسيقى الهادئة. الليلة عيد ونحن وحدنا في العالم نروي ظمأنا إلى الحنان. نعم، نعم لا بد أن تختارني لأني طيب وطاهر لم اتدنس برجاسة مدينة جميع شبانها من طينة واحدة، خذلوها وغدروا بها دون رحمة. أنا القادر دون غيري على انقاذها والفرار بها إلى الريف حيث تجد ما تحتاجه من صفاء وسكينة، وتنشده من نسيان للأمس وإيمان بالغد.

فيما يتحول كوب الماء في يد فاتنتي إلى لثام يخفي بقية تقاطيعها، ليبرز

سحر عيون، تتلفت يميناً وشمالاً بغنج ودلال، فتصيبني سهامها، وأسكر من الفرح. وفيما أمني النفس بأن الصدفة قد جمعتني بهذه المجهولة خصيصاً في هذا المكان، لتتيح لي أخيراً أن أعيش قصة حب طالما عوّلت عليها، يقع بصري على لوحة تمثل قِطاف العنب: شاب طافح بالعافية يمسك طرف قِلة تنوء بالعناقيد، شاخصاً بوجد إلى فتاة تمسك الطرف الآخر مشيحة وجهها بحياء. فاكتشف فجأة ان القروية المرسومة حقيقية أكثر من بنت المدينة الجالسة بشحمها ولحمها أمامي. الأولى لم ترفع عينها إلى رجل أبداً، وهي وحدها المؤهلة لأن تصبح زوجة صالحة. بينما الثانية ممثلة ماكرة تنصب فخاخها لاصطياد نظرات الأبرياء امثالي، وأضافة اعجابهم إلى رصيد انتصاراتها، الذي تغترف منه كلما احتاجت إلى رفع معنوياتها أو اشباع غرورها. من يعرف ماضيها، ومن يشغل قلبها الآن، وإلى أي لقاء مشبوه ستمضي بعد قليل؟ يجب ان أقلع عن فكرة التعرف عليها، واصطحابها إلى السينما، والتورط معها في مغامرة غرامية يتوّجها الزواج. مع اني لا أقِلُ زيفاً عنها وإلا لما انزلقت إلى هذه الحمأة الموبوءة. بدل ان أبحث مثل فلاح الصورة عن بنت حلال ترعى بيتي، وتنجب لي ذرية سليمة. وان أبقى في البيئة الوحيدة التي انتمي إليها بالفعل. حيث أشعر حقاً اني انسان طبيعي يعيش حياة أصيلة. لا مكان لي بعيداً عن طهارة الريف. ولا غنى لي عن استنشاق هواء الوادي، والانحدار عن الهضبة مع دغشة المساء، عن الاستجابة إلى جرس الغروب حين يدعوني إلى راحة البيت، والاستمتاع ببعض أمسيات نادرة تسود عندنا بين أواخر آب وأوائل أيلول، وتشكلّ ذروة الجمال المناخي في أجوائنا. ولا عجب فمنطقة «المروج» هي موطن الكرمة، التي يحين في مثل هذا الأوان موعد عرسها السنوي. تلك ليالٍ لا تُفوَّت حرام اضاعتها بالنوم. ذلك موسم العنب الذي ينقل فيه معظم أهل الوادي، ممن يملكون كرماً توارثوه أباً عن جد كذخيرة مقدسة، بيوتاً مؤقتة إلى أعالي «ضهور العرائش» لتمضية بضعة أيام في رباها، حيث تنتشر الفزّاعات وقاية للعناقيد من غزوات العصافير، وكدجاجات تحضن فراخها، تنبطح الدوالي بهيبة وصمت حبلى بأسرارها، وقد خيّم فوقها نوع من الجلال الصوفي، والسكينة الإلهية.

هناك إذا جلست تحت التينة في ليلة مكوكبة، عضك الجوع إلى الحب، الذي ينثر في هذا الإطار المسحور ثماره دانية القطوف، ويبيح أقبيته للجميع.

فالقمر الذي يعكس وجه حسناء، النجمة شامة على خدها، والصفصافة مروحة تهوِّي بها، الذي يسهر على الدوالي ككلب يحرس خرافه، يأمرها ان تنام، ولا تأتي بنأمة، والذي يفرش من التربة الحمراء سجاد المخمل النبيذي تحت أقدام العشاق، وأشجار التين التي تنبسط على الهضاب كمظلات حنونة، والنجوم التي تنطفىء كشموع كتومة في الهزيع الأخير من ليلة غرام، متورعة عن ازعاج أحد بحضورها، كلها تتعهد أهل الصبابة بالرعاية، تعدهم بالحماية والأمان، وتأخذ كامل المسؤولية على عاتقها، وكأنها تحرّضهم: انصرفوا أنتم إلى شؤون الهوى، وما عليكم، أنا اتكفل بالباقي.

هناك في مثل هذه العشايا المنوّرة تكتشف في نفسك مواهب وكفاءات لعواطف الوجد المشبوبة لم تكن تتوقعها. انت الذي كنت تظنك مفتقراً إلى أي قابلية كبيرة للهيام. ها أنك تعثر في أعماقك على عطش دفين إلى الحب، وقدرة خارقة على ممارسته، دون مجازفة صحية، أو معاقبة قانونية، لأنه يظهر، في هذا الطقس الخلاّب، انه هو الدستور المكرَّس، والساري المفعول على كافة اتباعه المحظوظين.

هناك توهمك كل وشوشة منبعثة من بين الدوالي أو من خلال أغصان شجرة تين، من عند سفوح تل أو من أعلى هضبة، انه يوجد ولائم للمتعة عامرة في كل مكان لن تتركك محروماً منبوذاً وحدك إلى بعيد. ولا بد ان يدعوك أحد أصحابها للانضمام إلى الحفل السكران. هناك كل عنقود داسته الأرجل على الدرب هو مما القته يد اللذة بنزق، أو مما عصرته أقدام ولهانة في انبجاسات سخية من الرغبة. وكل خيمة أو عرزال مضاء بقنديل خافت هو سراب وسط صحراء الشوق والحرمان. كل ساق ترتفع عند المنحنى تفضح عاشقة في حالة عناق تلبط الهواء من فرط النشوة. وكل فتاة تقطف التين، وتهبط عندما تمتلىء السلة، ولدى وصولها إلى الأرض تزل قدمها قليلاً، هي حسناء محتاجة إلى اسعاف بسيط ستقع على أثره في غرامك اعترافاً بجميلك وإعجاباً بشهامتك. كل كلب ينبح، ولا يسكت إلا عندما يخرج صاحبه إلى عتبة كوخه، متقدماً على قمة التل والريح تنفخ في شعره وقميصه كأنه قائد جبار يستشرف بقامته العملاقة ساحة معركة يزمع القيام فيها ببعض بطولاته المأثورة، مغنياً على صوت عالٍ

موالاً يترجع صداه بين الوهاد والشعاب، هو عواء الشهوة المبحوح. وكل تائه يسألك ان تدله على النزلة المؤدية إلى الطريق العام هو خلّ اليف ترسله العناية شقيقاً لقلبك الفائض بالحنان. كل رجل وامرأة يسطحان التين على واديّة قرب منقل تتعالى منه ألسنة النار كشعلة أوقدتها فرقة ضائعة على رأس الجبل، هما آدم وحواء من لحم ودم يدوران حول شجرة الخير والشر. وكل بعل متمدد بثيابه الجوانية على **طزر** تحت العرزال وزوجته جاثية عند أقدامه متشكية بدلال «انتظرتك من الصبح. عطلت لي نهاري. لا عدت قدرت غسلت، لا عدت قدرت عملت شغلة...» هما شريكا عمر يتهيآن لمباهج السرير. بينما يُطل أولادهما العفاريت الصغار من بين أغصان التينة الواحد وراء الآخر، هاتفين لك تباعاً: «سعيدة». تستحثهم جدتهم التي تمسيك بالخير هي أيضاً: «اقطفوا، اقطفوا، عبثوا السلال!» مبتعدة نحو دست تحيط به طبعات الرماد وترفرف فوقه حبلة منشور عليها بعض الغسيل.

عندما يطلع القمر من وراء الرابية كجمرة كبيرة تطفئها شمس الغروب، ويتسلق أسوار الحديقة كمصباح برتقالي يضيئه صاحب الدار إيذاناً ببدء السهرة، وإيعازاً لضيوفه انهم يستطيعون الشروع في التوافد إلى البيت، الذي تتجمع الدوالي في باحته كمدعوين مقنّعين تعمر بهم حفلة تنكرية، يسفرون عن وجوههم في النهاية فاذا كل واحد منهم وعد بالسعادة، وأمل جديد بالمغامرة يطرد أشباح الحزن عن هذا الفلك الآمن، الذي يتولى القمر حراسته من الخارج، وصد كل ما من شأنه تعكير صفوه، متلهياً في هذه الأثناء، والعيد دائر في الداخل، باللعب فوق شريط كهرباء يمسكه عمودان عن الطرفين كرفيقتين تفتلان الحبلة تحت قفزات صبية حسناء. وعندما يرتفع كوكب الحب كإلاهة يتضرع إليها الظامئون إلى الحنان، تخشع تحتها هياكل الهضاب، وتنطلق نحوها الأضاحي والنذور عن مذابح الدوالي. حين تتحول الدرب الغبراء إلى مرآة تلاحق عليها انعكاس طيفك مرنح الأعطاف، وتفرش عليها **الادواح** ظلالها كبرك من النجيع أو أشباح بيضاء مصابة بالرابوص. وحين تمتلىء مراكب التلال بالهدايا، وتنشر فوقها أشجار التين أشرعة خضراء موشكة على الاقلاع، يتفشى في القرية وباء الحب المقدس. وانك لترى المؤرَقين من الشباب العازبين يطفرون نحو الكروم تنزّ الشهوة من أطراف وجوههم، ويهمّون باستوقاف أي عابر سبيل

يهفهف بأجنحته قربهم كشحاذين يستعطفون رفقة مؤنسة لهذه الليلة الآسرة بابتسامة خجولة وجريئة في آن معاً. وانك لتسمع ضجيج ولغط المساجين يتعالى من حبس الرجال الذين يتقلّبون على جمرات متأججة لا يملكون وسيلة لاطفائها. حتى الحارس في مثل هذا المساء يترك بندقيته عند البوابة، ويطارد البنات المتمشيات أمامه بغوى على سكة النزهة. بينما تطل من كوة حبس النسوان عيناً شابة تتوقدان بالشبق المكظوم، يقف تحت شباكها مراهق يحادثها كفارس نبيل يناجي سيدته المشرفة عليه من طاقة برجها العالي، يحمي ظهره عن مسافة خطوتين ثلاثة من أصدقائه، لعلهم ينتظرون دورهم هم أيضاً لاشباع رغبة إحدى السبايا المكبوتات ولو بصورة محض نظرية. أو يصفّرون له، عندما يسمعون وقع أقدام على مطل الطريق، فيبتعد عن حائط الأسيرة اللعوب، التي **ربما كان متورطاً معها في مشروع قبلة، والتي تأبى صبيان الأزقة ان يتركوها مسترسلة على سجيتها هكذا، فيتجمعون على عتبات البيوت ليتفرجوا عليها، وهي تمثل هذا الفصل من مسرحية الغرام المستحيل، كلما أحست بالحاجة إلى الذكر، ورفضت الرضوخ للأمر الواقع، والاعتراف بهذا الستار الحديدي الذي يفصلها عن غلال البساتين.**

في مثل هذه الأماسي يعاف الناس النوم. فمن لم يصعد منهم إلى «ضهور العرائش»، وبقي في الوادي، يتهجد على شرفة بيته، يسرح على عتبة جاره، أو يهيم في الدروب حتى أواخر الليل، ملاحقاً القمر الذي جاء خصيصاً ليدعو سكان هذه الدور، ونزلاء هذا الفندق، من فوق مجادل سطوح الطين، وعن سقوف القرميد، ان يكفروا بنعمة النعاس، ويكملوا معه هذه السهرة النادرة المثال، والذي يعلو قصداً ليوزّع المياه في مجرى «الكرمة» بأنامله السحرية كموسيقار بارع، ليلقي الهدايا من مداخن الأبنية، وليصغي إلى وشوشات يتبادلها عريسان جديدان يتنزهان على ضفاف النهر، متشابكي الذراع، مليئين بكل وعود الشباب، وراتعين في جنة الهوى، التي يحسدهم عليها المحروم، من خارج، كشحاذ يتفرج على وليمة باذخة من شق الباب. بينما يلقي شاعر زجّال آخر قصيدة له، وكأنه ينطق بأبياتها تلقائياً بوحي من جمال الليل على مسمع من صديقين يتمشيان معه فوق الجسر.

هنا يبدو لي الشاب الملتصق بصديقته عاشقاً مزوِّراً لا يجلس في الزاوية بدافع الشهوة أو الحب، بل لمجرد الظهور والتباهي أمام رفاقه بأنه زئر نساء. لا مجال لمقارنته بالعريس القروي، الذي رأيته في قهوة رأس النبع، يلقي ذراعه خلف كتف عروسه بحركة تنم عن الفحولة، مشرِّعاً سيجارته، طالباً أصناف المأكولات باريحية الرجل الحق، وصولة السيد الشرعي. وفجأة انتبه إلى خدعة العالم الاصطناعي المحيط بي: السلم المبطن باسفنج يرمز باشعاعاته الفوسفورية إلى جمرات متأججة يعبر فوقها الرواد إلى الجحيم، ويعطفني إلى مدخل منتزه الوادي بعشبه **المفرَّخ** بين الدرجات. المنضدة المغطاة بالجلد البرتقالي والمزودة بقناني الخردل والمخللات المختلفة **وبآلة** صغيرة لاستخراج مناشف الورق، والتي تلفتني إلى الطاولة **الحقيرة المتكئة** على جذع شجرة، حيث جلستي المفضلة على ضفاف النهر، عرضة للهبَّات الطرية العاصفة بالشرشف المربوط بخيطان المصيص من أربع جهات. الأطباق العجيبة الغريبة التي يقدمها الطاهي إلى الزبائن لا ليتمتعوا بأكلها، فيما أظن، بل ليدهشوا بزينتها الخارجية، والتي تذكرني بصحون شهية تبسطها يد الفطرة عندنا في الهواء الطلق. الخدم الذين يتلاطفون بخبث مغتصبين الابتسامات الصفراوية، والذين يحيلوني إلى أقرانهم في الضيعة: صاحب القهوة ببشاشته الصادرة عن القلب. أخوه الأعرج وهو يحجل بالصينية بين الكراسي. وزوجته النشيطة وهي تدق الكبة وتحضِّر المازة في المطبخ الفقير. ومن مفارقة إلى آخرى: صفارة الشرطي بدل نفحات الريح. الزمامير بدل زقزقة العصافير. ارتال السيارات بدل الأمواج الهدارة المتفجرة بدفقاتها البللورية. بريق الآرمات والإعلانات بدل اهتزاز الأوراق في قمم الأشجار. يلجّ بي الشوق إلى الفردوس الطبيعي الذي هاجرت منه. وأطبق جفوني على الطريق المتوهجة بالشمس المفضية إلى القهوة، حيث كنت ألاحق ببصري النهر الملتمع من بعيد كقطعة من الماس مناجياً إياه: **واصل واصل إليك** وسأوافيك بعد قليل إلى موعد السعادة المضروب لي قرب مياهك. مردداً له بعد الخروج وأنا أرى النبع يختفي وراءي: عائد عائد اليك، وسنلتقي من جديد. فطالما أنت هنا أعلم أني أملك كنزاً دفيناً الجأ إليه عند الحاجة. حتى لأعلن الآن توبتي هاتفاً من الأعماق: يا أبناء الوادي أغفروا معصيتي، لا تنبذوني، ولا توصدوا أبوابكم في وجهي.

الطاولة بين القناطر في الزاوية هي التي اجتمعنا حولها حين زارنا جدي وجدتي في المدرسة. من هنا رحت انقل عيوني على المقاعد، والحيطان، والزبائن، لاطمئن إلى أننا في مطعم أنيق لا يعيبنا الجلوس فيه. فهبطت معنوياتي عندما دخل فلاح، وصرت أتلطى بخيال الكراسي كلص يتوقع بين لحظة وأخرى ان يقتحم رجال التحري الباب، ويلقوا القبض عليه. إلى هذا الحد بلغ خوفي من أن يضبطني بعض رفاقي متلبساً بجرم التردد إلى مقهى من الدرجة الثالثة بمعية هذا الطابور القروي. أفكر بالتضحيات التي بذلتها جدتي، والحرمانات التي ذاقتها هي وجدي حتى وفرت بضعة دراهم أنفقتها علينا في يوم العطلة ذاك، براً منها بعهد قطعته على نفسها بأن تأتي وتُخرجنا من المدرسة بين الحين والحين لترينا بيروت، وتنزهنا، وتقدم لنا أطيب الوجبات في المدينة، وتعطينا زيت السمك لتقوية أجسامنا. أتمثلها وهي تتفانى وتعمل المستحيل لارضائنا. **تطلب** أفخر الأصناف وتتلفت نحونا مبتسمة بحنان، مستنتجة أننا لا بد ان نكون مسرورين بحضورها مثلما هي مغتبطة بلقائنا. غافلة عما تسببه لي من آلام نفسية، جاهلة اني خجلت بها أول ما اطلّت من بوابة المعهد، واني كنت أصلي كي تنتهي رحلتها بسلام، وان تعود إلى الوادي قبل ان يراها أحد زملائي تمد سماطها الريفي في هذا المكان المتواضع.

اعتذرت إثر الفروغ من الغداء عن مرافقتهم إلى السينما، متذرعاً بمشاهدة مباراة رياضية. وتخلصت منهم انعتاق الناجي من حبل المشنقة فريسة مع هذا لبقية من قلق: ان يلمح أصدقائي هذه القافلة القروية الباعثة على الرثاء، وهي تأخذ بمتعتها الساذجة في إحدى الصالات الشعبية، داخلة أو خارجة من الفيلم العربي الذي **أزمعت حضوره**..

الطاولة الخالية في الزاوية المهجورة توحي لي الآن بغياب أحبابي. لقد مر وقت طويل منذ تلك الوليمة المشهودة. ماتت جدتي فشغر مطرحها إلى الأبد، وخاب أمل شاغلي الكراسي الباقين كثيراً بعد ذلك اليوم. مساكين أهلنا كل جهودهم في سبيلنا باطلة، وكل نقودهم المهدورة على تعليمنا ضاعت سدى.

كما أذكر ليلة تعشينا هنا أنا وأخي وأغضبته بتطرقي إلى موضوع خسارته التجارية. ما كان يجب ان أجرح شعوره. إنه لا يُلام. الحياة صعبة. وأنا الآخر

طلع حظي معها عاثراً.

واختي أيضاً قصدت هذا المطعم، أيام كانت تقص جهاز عرسها. حين لم تكن قد فقدت بعد الأمل المشروع لكل عذراء في أن تصبح أماً. وإذ التفت إلى تلك الفترة الطاهرة، السابقة لضياع ثروتنا، وزواج سعاد، السابقة لدخولي سلك العاطلين عن العمل، وانهيار طموحنا جميعاً، يخيل إلي أن المرحلة الوحيدة الزاهية في عمر المرء، هي قبل شروعه في تحقيق مصيره.

لقد خفَّت حركة السير في الشارع. والمارة يتعجلون الوصول إلى بيوتهم للغداء. لحظة تردني إلى مثيلتها من نهار الوادي، حيث يقابلها إقفار شامل في الدروب. بينما يبعث أمامي الرجل الواضع جريدة على رأسه، والعابر من رصيف إلى آخر، صورة معلم القرية المتسارع إلى وجبة الظهر.

بعدئذ ينفذ نظري من خلال كوة خلفية إلى المطبخ: قدور يتصاعد منها البخار يفتحها الطاهي الواحدة تلو الأخرى، محركاً هذه، مملحاً تلك، متذوقاً نكهة الحساء، منتهراً **مساعده** المتهالك على الكرسي من شدة الإعياء. لكنت أدفع ثمناً غالياً في الريف كي يتاح لي التلصص على جو عائلي حميم كهذا، والنزول عميقاً في أسرار الآخرين، وداخلية بيوتهم. لكن ألوف الاكتشافات مباحة للجميع في هذه المدينة الغنية بالامكانات دون أن يبالي أحد بمد يده إلى الكنوز المعروضة عليه مجاناً.

أرى في الكسل والتراخي المخيمين في هذه الأرجاء ظلاً لموعد القيلولة في دارنا. وأسمع في طرطقة الصحون الصادرة عن المطبخ الأصداء التي **تبتعثها** أمي على المجلى بعد الأفطار. وتحضرني وصيتها: «تغدَ في أحسن مطعم. لا تبخل على حالك بشيء. وانبسط». كما لو ان الفرح ممكن في هذه القِفار. مسكينة إنها **تحسب** اني انتهيت من العثور على عمل، واني منصرف الآن إلى الاستمتاع بوقتي، منتظرة بأمل عودتي في المساء لأخبرها وقائع هذا اليوم الحافل.

أفرح باكتشاف البحر، الذي تقتحم أمواجه الصخور مفجرةً نافورة من الزبد الهفهاف سرعان ما تتبخّر في الهواء كالدخان، ثم تجتاح بجيشها المنتصر أهدافاً أخرى تخرج من المد كجزيرة بعد الطوفان. إنه آخر معقل للطبيعة في هذا العالم الاصطناعي، وصوت الفطرة **المخنوق وسط** هذا الضجيج الآلي. أتمشى على شاطئه حاسداً شاباً يجلس قرب فتاته في السيارة وينطلق بها في رحلة نحو السعادة، شاعراً براحة وعزاء قرب هذا الريف الأزرق، الذي هو المكان الوحيد من العاصمة الذي لا استهجن أن تدخل أمي أجواءه. فلو كانت هنا لاستأنست من الغربة، وتجانست مع هذه البيئة واجدة نفسها في محيطها الحقيقي، ولو انضمت إلي الآن لتوهمنا أننا في بيتنا:

إن ما أسمعه من هدير هو خرير نهرنا، الذي تدير أمواجه بيدها زمبرك الحاكي القديم، وتبعث بفحيحها موسيقى الماضي التي تفرغني من واقعي الحالي، وتنقلني إلى يوم في أوائل الربيع قصدنا فيه بساتين الكرز أنا ورفيق وحبيب محاذين ضفاف «الكرمة»، من حيث زلت قدم أخي الأصغر ووقع في مجرى التيار، إلى موسم غسل الصوف، وإلى عهد الطفولة حين كنت أتأمل الصبيان وهم يستحمون في مضيق من المياه المسوَّرة بالحصى والأحجار. فتكاد ذراعي تمتد لتوقف الزمن وتأمره أن: كفاك ركضاً. لقد كنا غافلين عن حركة مرورك الجارفة. وها نحن نتنبه إليها. ولن ندعك بعد الآن تدمرنا على هذا الشكل المريع. أرفع شرَّك عنا.

هناك في «وادي المروج» يكمل نهر الكرمة أنشودته الخالدة بنغمة لا تنقطع. نعم أنا أيضاً يبقى لي مؤونة من الأمل لا تنفد، وكنز من الفرح الدفين.

لا لست محروماً ولا فقيراً. فأنا لم أتجرد بعد من كل ملكياتي طالما ان هذا الصوت موجود في جهة ما من العالم ينتظرني كالقدر المحتوم مختلجاً بالذكرى والوعد. يا نهري الذي يلذ لي استشرافه من زوايا مختلفة، من الضفاف وعن المصب، من أعلى هضبة، وعن أسفل منحدر، من وراء شجرة، وعن مطل أمامي، كما تستمتع أم بتأمل طفلها من مفترق الجوانب. أحب الوزال الأصفر والبنفسجي النابت في مطلع نيسان على حوافيك كالشماعد المضاءة في كنيسة احتفاءً بعيد، أو المشعة في قصر استعداداً لحفلة استقبال. يا ودياني، ويا غياضي، يا جبالي الخضراء، ويا عصافير قريتي التي تسبح في الأغوار بدعة، ثم تلجأ إلى الأفنان، استرجعيني إلى ربوعك، ضميني إلى صدرك، وأحفظيني في عهدتك. أرفض إضاعة أية دقيقة من أيامي خارج محيطك. لأنك انت وحدك أمينة إذا هدرت عمري بين أرجائك تعمدين إلى صيانته ورده لي عند الحاجة.

كما ان ما يهبّ على بشرتي من هواء منعش هو نسيم وادينا، حيث يبهجني المرور أمام الطاحون مقرباً وجهي من النفق لأنعم برذاذ الماء المتطاير، المشرقط من أحجار الرحى، متنشقاً بلذة رائحة الدقيق والقمح المسلوق، ململماً رؤى الماضي عن أطراف الأعدال المفروشة على الأرض مغطاة بصويل الحنطة والزؤان، وعن سحنة الطحان العاقد خيطان المصيص حول رقبته، والجالس على عتبته يحبك الأكياس. بينما تحادثه من الباحة الخارجية، دون ان تلهيه عن شغله، امرأة تنتظر حصيلتها من البرغل.

حتى ليخيل إلي أن البحر يتواطأ معي لأقامة تحالف ضد المدينة. فكانه يغريني: اتكل عليّ فمهما كنت أنت ضعيفاً ثق أننا سننتصر في حربنا المشتركة بفضلي أنا وحدي. اسمع مهما علا عجيج هذه الغابة فان صخبي يرتفع فوقه ويخرسه، وتبقى الكلمة الأخيرة لي. انظر مهما كانت واسعة فانها لا شيء بالنسبة للانهايتي. مهما غصت بالبشر فانها لا تمنعني من الاستغراق في وحدتي المطلقة. مهما كانت قاسية فانها لا تُقارن بلا مبالاتي، إذ أدير لها ظهري وأرحل نحو مدن أخرى تفوقها ضخامة وبهاءً لا انبهر مع ذلك بعظمتها أو أتوقف عندها، ولا اتنازل حتى أن ألقي نظرة عليها، بل أتابع طريقي نحو المجهول. تأمل هذه الحافلة الهائلة التي سحقتك دون رحمة تحت عجلاتها الصلدة كيف هي غائبة

عديمة الأثر بالنسبة لي. أنبذها واستعلي عليها مثلما فعلت بك، سائداً عليها، متجاهلاً وجودها، هي التي ضنّت عليك بعمل بسيط.

فيما افترض ان الرجل الواقف مسنداً كتفه إلى الجسر هو قوّاد يتحين الفرصة كي يدنو مني، ويعرض علي ان أبيت الليلة مع إحدى تلك النساء المثيرات للشهوة اللواتي يعرف وحده مكانهن، إذا به يرتاح على كرسٍ واطئة على رصيف الزيتونة، ويخاطب ماسح الأحذية مشيراً إلى فخذيه علامة التناسق والاكتناز:

ـ «سبحان من خلق لها هذه السيقان!»

واصفاً بذلك صورة معلّقة على باب الملهى تمثل فنانة عارية تنام على بطنها، حاملة نهديها بيديها، قرب رسوم إباحية لراقصة أخرى بضة الجسم، تستر عضوها **بذراعها** في ثلاثة أوضاع خلاعية: شيطان بجناحين أسودين يلامس أولاً صدرها المشكوف، ثم يحملها من خصرها، وأخيراً يمسكها من أردافها الممتلئة، التي اتسمّر أمامها كالجائع خلف واجهة المطعم، معجباً بطفرة الحياة الرائعة التي خلقت هذه الأجساد البديعة التكوين، التي تجتذب أيضاً أربعة سواح أجانب، يلقون نظرة من خلال باب نصف مفتوح، يتمركز قربه شحاذ كما على عتبة الكنيسة، إلى داخل النادي الليلي: مشرب صغير معتم، ودرج يؤدي إلى دهليز تحت الأرض، ويدعوني إلى النزول واكتشاف خبايا هذه الظلمة، حيث المح الطبول ومنبر الفرقة الموسيقية والطاولات. أهذا هو عالم الرذيلة الغامض، الذي طالما سمعت ان الشباب يهدرون فيه عمرهم ويتلفون ثروة آبائهم. أهذا هو موطن الأخيلة والأحلام المرسومة في ذهني تحت اسم: كباريه، اجتازه نادماً على امكانية للمتعة لم استنفدها، وفرصة للإثارة لم استغلّها، ماضياً بحسرة انسان ترك قطعة من الذهب تسقط وراءه دون ان يتوقف لالتقاطها، مواصلاً سيري خلف السوّاح، الذين أحاول التكهن إن كانت جنسيتهم قبرصية أو يونانية، **ومهنتهم الفن أو الرياضة، متقدماً معهم من صياد يلقي صنارته على الشاطىء، فيتذمر مخاطباً رفيقه:**

ـ «هربنا من هذيك الجهة لحقونا...»

منضمًا إلى جمهرة من الناس، متجمعين على الرصيف أضيّع بينهم همومي: ثلاثة فتيان يضعون بين أقدامهم السلال المليئة بالطعوم، يشير لهم المتفرجون إلى الخيرات التي تشفّ عنها أعماق المياه، فيرسلون الشصوص باتجاهها. وهواة آخرون يلتقطون السمك بيدهم موزّعين على الأعشاب والبرك الآسنة والصخور، التي تنتشر عليها عائلة بقضها وقضيضها مع مذياعها وكراسيها ومأكولاتها. بينما يرمي المحترفون شبكتهم، وينتظرون في القارب متطلعين إلى الباعة المتجولين المرابطين على الضفاف، حيث ينام عجوز على المقعد سانداً ذقنه على عصاه، يفيق بين الحين والحين مبغوتاً متلفتاً حوله، ثم ينهض وينصرف. إنه موظف متقاعد انتهت نزهته اليومية يحل مكانه فلاحان يراقبان مبتسمين بدهشة وعدم تصديق مركباً بخارياً يجر وراءه متزلجاً على الماء، ويدور به على طول الساحل، ثم يصغيان إلى ملاّح يقف على مقدمة زورقه الشراعي، ويكوِّر من يديه بوقاً ينادي به المتسكعين على الأسوار:

ـ «بنصف ليرة إلى الروشة روحة رجعة بنصف ليرة!»

فيلبي عشاق المغامرة دعوته، وينزلون السلم المدلى من حديد الجسر إلى الصخرة التي يرسو قربها بارشاد دليل يرافقهم، يحمل أغراضهم، يسلّم طفلاً إلى أهله، يناول حقيبة إلى صاحبتها، يوصل الحماة المنتظرة إلى مطرحها، ثم الكنة، حتى إذا اكتمل النصاب أرخى الحبلة التي تشد الموكب إلى البر. عندئذ يفتح بعض الركاب شمسية يستظلون بها، ويطوِّق شاب عطوف بذراعيه أخته عن يمينه وشقيقه الصغير عن يساره، ويبحر هؤلاء المتجمعون من شتى أنحاء المدينة كل بهمّه وضجره الخاص في رحلة قصيرة خارج رتابة وأشجان الحياة اليومية. بينما يشيّع المتفرجون على اليابسة هذه القافلة، وكأنهم يودّعون ذويهم على رصيف الميناء، مبتسمين وكأنهم يشحنون هم أيضاً هذا المركب الصغير بسأمهم وأعبائهم، ويطلقونه بعيداً. يبدو على ملامح بعضهم وعيونهم المفعمة بالحنان، انهم مصممون على الانتظار إلى ان يعود من سفرته بالسلامة.

ـ «البحر رائق اليوم!...»

تخاطب رفيقتها بسرور سيدة تجلس على المقعد الحجري تحت مظلة. ثم

تركض أمام ولدها الذي يطاردها، فتنتظره، حتى إذا بلغ شأوها، هـرولت من جديد مشيرة له بيدها أن يلحق بها.

ـ «قد الخيار يا عوجا أخضر يا مال الوادي!»

ينادي بائع على مسمع من طالب يـذاكر دروسـه، وامرأة تمـد الرضـاعة لطفلها، وتحادث جارتها التي تأكل كعكة، وأب يناشد أبناءه:

ـ «تفرجوا على **البحر!**».

ويرفعهم فوق حديد الجسـر من حيث يقذفـون أحجاراً **لإحداث** أثر في المياه، التي ينظر أحدهم إلى جوفها، ويسأل عندما يرى سابحاً يتردد قليـلاً على علو مرتفع ثم يقفز إلى القاع:

ـ «إذا غطس الواحد يغرق؟»

بينما يهتف أخوه

ـ «إليك إليك نزل إلى الكعب.»

ويدير شاب انتهى من العوم ظهره على الصخرة للجمهور المنتصب قبالته يخفي جذعه الأسفل بالمنشفة ويرتدي ثيابه.

ـ «كعكة كعكة.»

ـ **«تكرم عينك! حاضر».**

يجيب طفله رجل يتأبط ذراع زوجته، التي تناجيه، وتقدم لـه المكسرات من ورقة تحملها في يدها. فاذا ما نال الصبي بغيته لوّح لي بها ضاحكاً، والجميع مثله مرحون يترقبون حلول أمر خطير بازوف لحظة موعودة هي غياب الشمس.

فأضع يدي في جيوبي، وأسير مترنحاً من النشوة نحو بئر من الفضة تحفرها الأشعة الغاربـة وسط مسافـات معتمة من الحبـر الغامق، تتـوهج كـأوراق من القصدير تحت انعكاسات النور، وتتألق كورود اصطناعية من التـوتياء في ريـح الفجر، تقترب منها الطيور وسرعان ما تفرّ عائدة إلى مناطق الظلام، كفراشات تحوم حول المصباح تلامسه، فلا تلبث ان تفرد أجنحتها وتهرب آخذة بـالتهويم

والتحليق فوق الصفحة **القاتمة**، وكأنها تقرع أبواب البحر كي تفتح لها وتغيّبها في أعماقها قبل هبوط المساء، وقبل ان تسلّط البركة المشعة آخر ضوء على خشبة مسرح تغرق جوانبه الباقية في الظلام، وتتجمع كـواليسه بـين الصخور، حيث تتمرأى الشمس فوق صفحة المياه الآسنة كقفوة **ظهر بطل** نُفاجأ لرؤيته فنجرِّده من كل هالة وجمال، ونتساءل: أهذه هي الشخصية الرئيسية التي ينتظرها الجميع ويهفون إليها بتقديس.

السّتارة البرتقالية الأولى تُرخى فيظهر القرص الشاحب، الذي عليه بعد ان يخترق عدة حجب قبل ان يتحرر نهائياً من ملابسه، ويصبح مهيأً لأن يغطس في قرار البحر مضيِّقاً بنسبة انحداره حوض النور، الذي يغـدو درباً نـاحلاً ثم خيطاً رفيعاً كظل شمعة، يبدأ عند الشاطىء، حيث يرسو قارب صغير، ويقف الصياد على صخرة يلقي صنارتـه، وينتهي عند الأفق حيث لا يـزال الفانـوس **الأحمر عالقاً بين السحاب، خالقاً لي جزيرة من الجواهر تتوهج وتدعوني إلى الإبحار** نحوها. فأود أن أفك رباط الزورق وأقلع من امتداد هذه الشعلة حتى مصدرها، فـاذا ما بلغتـه باشـرت من المنقلب الآخر مغـامرتي في مملكـة الليل. هيـا نداء المجهول يزرع لي أملاً جديداً على الصفحة المتألقة في اتجاه الشمس، التي تحقق غروبها الأول الوهمي، بأن تدخل في غمامة تختفي فيهـا قليلاً، ثم تتسـرب من ثنايا كيسها المثقوب، ولا تكاد تحتجب هكذا كلية حتى تظهـر في مكان مـا على الشفق، وكأن السلة التي اختبأت فيها برهة **تنفزر** من أسفلهـا. فيخيل إلي أني الشاهد الوحيد على كسوف هذا الكوكب، الذي يطلعني على سره دون الآخرين اللاهين عنه، ويُشركني معه في هذا الحدث المأساوي، مسبغاً علي بذلـك بعضاً من الجلال الذي له، فارشاً لأجلي فستاناً ملكياً أزرق مرصعاً باللآلىء، تترقرق وسطه من فوق إلى تحت **قطعة** براقة من الماس، تستحيل إلى لوحة من النحاس تتوهج بنسبة انحداره إلى **اليمّ**، الذي لم يبقَ فيه سوى فسحة صغيرة مشعة كفرقة من ذوي الخوذات اللمّاعة تمشي في استعراض عسكري وتمشي، وتظل مع ذلك مكانها لا تريم، ومن وراءها وأمامها وحدات أخرى بقبعات قاتمة تحرِّك رجليها هي أيضاً دون ان تتقدم أو تتراجع قيد خطوة.

لقد تحررت الأسطوانة المحترقة الآن من كل الأغلال، واخترقت كل الطبقات، وأصبحت وحدها فوق الصفحة، التي تعتم تدريجياً، وترسل انعكاسات خضراء وحبرية تصبغ أيضاً لون الجبال، التي تذوب الفواصل بينها وبين المياه، فتتصل بها كما لتتغلغل في أغوارها قبل ان تعود الدرة إلى صدفتها من جديد.

ها هي تستوي على خط مائل عن يمين، تتدحرج من أعلاه كدولاب يهبط المنحدر، وفجأة إذا بها تتوقف، وتبدأ بالسقوط عن مستواه مأخوذة بين حده وحد العباب، مما يتيح لي ان أقيس مكانها وسرعة تدهورها بالنظر إلى مدى ابتعادها عن الرف، الذي تقع عنه، واقترابها من السطح الذي ستستقر عليه، حتى لتصبح أناءً مدوراً يمتلىء تدريجياً بسائل وردي يرتفع فيه كالمد، حتى إذا عبأ ثلاثة أرباع محتواه أخذت الشمس ترتعش، ودخلت في طور النزع الأخير. إنها الآن تحت الحاجز كثمرة ناضجة معلّقة بعد بخيط واهٍ على غصن شجرة، سرعان ما تهرّ عنه، وتروح تتهاوى نحو البحر ببطء، وكأن قوة مغناطيسية تحفظها مسمرة في الفراغ لحظة، ثم تؤرجحها قليلاً قبل ان تضعها على ظهر الأمواج كبللورة مضاءة على طاولة زرقاء تضغط بها يد خفية إلى الأعماق جمرة تنطفىء شيئاً فشيئاً في الرماد ماحية نفسها تباعاً ابتداءً من الشفق وما دون، حيث كل ما حولها معتم إلى ان لا يبقى منها سوى بعض توهجات برتقالية هنا وهناك، ثم لا شيء بالمرة. فكأنها بذلك تقرع جرس الانصراف بالنسبة للمتجولين على الرصيف، الذين يسأل طفل منهم أهله، مشيراً إلى الشمس الغاطسة في اللجة كغواصة تعود إلى أعماق المحيط لا يبرز على سطح الماء سوى برجها المضيء الذي يختفي قدماً قدماً:

- «إلى أين تنزل تحت البحر؟»

أما المتنزهون الجالسون على حافة الصخور فانهم يشبهون آباءً يودّعون أبناءهم، حتى إذا أحتجبت الباخرة عن الأبصار وراء الأفق، نهضوا استعداداً لمغادرة المرفأ. لا يتأخر منهم سوى عاشقين اختارا لهما مكاناً تحت تحذير مكتوب عليه «خطر الموت ممنوع السباحة»، يضعان تحته الكعك وقناني المرطبات باتجاه اشعاع أخير تتوهج به الأنوار الغاربة على صفحة الظلال. الشاب المتحمس،

مسحوراً بجمال اللحظة، راضياً ان يصبح حبه مشهداً مثيراً لجمهور المشاة، واجداً ربما في سمو عاطفته مدعاة للتباهي، يطرح ذراعه على كتف حبيبته التي لم تتحرر من خجلها، فتنتفض سابلة شعرها في الريح الهادئة كحورية تسرّح غدائرها على الشاطىء. يراقبها عجوز يتكىء إلى عكاز على قمة الصخرة، متحسراً على ضياع شبابه، وابتعاد ثمار الهوى عن متناول يده، متأملاً فلول الشمس، وكأنه يشيّع معها بقايا عمره الراحل. بينما ينظر الشاب بحنو في عيني الفتاة، التي تقتلع الأعشاب بأصابعها، مبتسماً لأقل كلمة تفوه بها، وكأنها طفل يأخذه تحت حمايته، فتقهقه هي أيضاً، وتربت على ظهره مداعبة، ثم تضع رأسها بين يديها وتسترسل في الضحك. عندئذ يطوّقها بذراعه منفخاً سيجارته، ويقدم لها لفافة تروح تمجّها كتلميذ صغير يرتكب هذه المعصية لأول مرة. وأخيراً ينهض ينشلها معه، ويقفان متواجهين قبالة البحر، يرنّوان إلى بعضهما حيناً وإلى الأفق حيناً آخر، حتى إذا اطمأنا إلى ان الغروب قد حقق كماله المنشود، حملا قناني المرطبات إلى البائع على الرصيف، وانتهت مغامرتهما لهذا اليوم.

فأتذكر عندما تدلهمّ المياه وتصطبغ كلية بلون الحبر الغامق الدوالي مبطوحة في كرمنا تحت غيوم تشرين، والدغشة الناعمة التي تغشى دروب الوادي أول ما يجتاحها الخريف: عتمة حميمة، تثير حنيني إلى ركن منعزل اختلي فيه بنفسي، وانطوى على أسراري، وتحيلني إلى موعد الغروب في القرية. من خلال شجرة التين الشمس تغرق وراء الرابية. وإذ تشع الأنوار الأولى من الشبابيك ويخيّم الظلام يتراءى لي أخوتي متجمعين حول أمي التي تشعل لهم قنديلاً تضعه في النافذة كضوء هذه المنارة الذي يهدي المراكب الضالة عند الغسق إلى بر الأمان، والتي أكاد أسمع صوتها يستحثني على العودة: تعالَ لقد انقضى النهار وانتهى الكفاح. إلقِ سلاحك جانباً، سواء انتصرت أم انهزمت، توفقت إلى عمل أم لا. فمهما بلغت من الاخفاق والانهيار. وحتى لو تخلى عنك الجميع ونبذوك، واستحال عليك مجاراتهم ومنافستهم على لقمة العيش يبقى لك ملجأ هادىء تأوي إليه من ظلم الناس، وترتاح فيه من ضراوة الحياة.

ـ «دخيلك، الله يخليك أعطني أي شيء حسنة هذا الصبي الصغير!»

تستعطفني شحاذة تقطع علي أحلامي، التي لم أبرأ منها رغم مأزقي وخيبة

آمالي ووصمة جبيني بدمغة العاطلين عن العمل. بل أقف هنا مشدوهاً قبالة الشفق، حيث تظهر باخرة يشير نحوها بأصبعه طفل يستند إلى حديد الجسر، أتساءل: ترى بماذا عساني اختلف عنه، أنا الذي انتصب الآن ذاهلاً، ناسياً حالتي بالمرة، متجاهلاً أني سأعود بعد قليل إلى القرية، مجرجراً أذيال الفشل، أنا الذي أشرد مع شطحات من هذا النوع: ما إن يحلّ المساء حتى تصل السفينة إلى مينائها. فيقرع الجرس ليدعو الركاب إلى العشاء. ما أجمل ان ينامـوا تدغدغ خيالهم المشاريع العذبة التي سيحققونها في الغد، والمفاجآت المثيرة التي تنتظرهم على هذا الشاطىء الغريب، وان يفتحوا عيونهم على صباح جديد في مدينة مجهولة. نعم أظل في أقسى الظروف، وتحت أحلك الأجواء، ذلك الجوهر المنير، الذي يفرح لمشهد الشروق والغروب، يسكر بزبيبة، وتكفي أقل نسمة هواء لخطفه بعيداً عن همومه.

حينئذ يعبر شاب فوق الحاجز، ويتقدم على الروشة إلى ان يصبح وجهاً لوجه أمام البحر، فيدفع على سبيل التجريب حجراً برجله ليدرس سرعة وصوله إلى قعر الهاوية وغيابه في اللجة، التي يترنح فوقها مرتاعاً متراجعاً قليلاً إلى الوراء. ثم يمثّل بيديه حركة الغطس وكأنه يقوم نظرياً بالمخاطرة، التي لا يجروء على اقتحامها بالفعل. لعله مجنون يحاول الانتحار، فمخائل وجهه تحكي بما فيه الكفاية ليالي الأرق والنوبات العصبية وعذابات الأهل، يتلفت خلفه إلى المتنزهين كما ليُشهدهم على نزوته، التي يتوعدهم انه سيطيعها، وينفذ قراره بين لحظة وأخرى.

لكني استبعد هذه الشكوك عندما أرى الجميع على الرصيف ينصرفون عنه دون اكتراث، لا يسعى أحد منهم إلى ردعه. وأبرّر وقفته المريبة بأنها من أسرار هذه المدينة المبهمة، التي لا أفهم **طقوسها** العجيبة. ها هو يشرِّع سيجارته كمحكوم بالإعدام يدخن لآخر مرة، فتتعالى الخيوط البيضاء معلنة انه لا يزال على قيد الحياة، وان هناك متسعاً من الوقت إلى ان تنتهي اللفافة، كما تنبىء نفثات المدفأة أن الكوخ لا يزال مأهولاً.

يتفرج عليه مراهقان لاكزين بعضهما ان: مهلاً هذا المسكين يهيىء لنا مشهداً في غاية التشويق. وينزرعان على مقربة منه **كسائحين** تستقطب انتباههما

بعض المعالم الأثرية المهجورة. لكن عندما يتأخر رفع الستار، ويتردد البطل في أداء دوره، يغمز أكبرهما رفيقه أن: هذا المنتحر ليس جدياً، ولن يجسر، وإن فعل فبعد مدة طويلة والعرض لا يستحق الانتظار، تعالَ ننصرف. وفيما يمضيان في حال سبيلهما بعيداً عنه، يتلفت هو إلى الوراء ليسأل المارة عن الوقت. وعندما يجتذبه أحدهم إلى الرصيف ليهدىء من روعه يرتمي على صدره القوي باكياً، يحتضنه، ويعانقه منتحباً، مأخوذاً بموجة من الحنان على نفسه، متلهفاً إلى بث شكواه أمام إنسان آخر يجد قربه التعزية والتفهم والتشجيع، عاثراً ربما في محاولته الفاشلة على عملية تطهير نفسية تنقذه من القلق الذي وصل إليه في ذروة أزمته، ماسحاً الدموع **المنحدرة على لحية** لم يحلقها منذ ثلاثة أيام. يتأبط ملاك الرحمة ذراعه رابتاً على كتفه. بينما يتضايق بعض شبان متجمعين تحت العمود من هذا الفيض العاطفي الصادر عن هذا المخلوق اليائس وسط الشارع، فيتقدمون منه لتقريعه وانتهاره باشارات غضب استنتج منها انهم يلومونه لأنه جبان يهرب من ميدان الحياة، التي هي جميلة جديرة بأن تعاش. فيحني رقبته بذل يعني: انكم لا تدركون مأساتي ولا ترون ما يجري في داخلي. إنكم من عالم السعداء الغريب عني كلية. ويلوذ بمنقذه كأنه يطالب هؤلاء الأجانب العدائيين أن يدعوه وشأنه مع شخص يفهم عليه. هل هو مجنون، أم انه مريض يعطيه الألم الفائق للطبيعة، الذي يعاني منه، ايماءات وتعابير مخبول؟ الافتراض الأرجح انه عاطل عن العمل.

والمرأة الجالسة على حافة الشوار، الذي يلقي عنه الخائبون عادة بنفسهم إلى الماء، هل هي معتوهة أيضاً؟ انها تلطم يديها بتشنجات قانطة مأفونة، ثم تدفن فيهما رأسها، وتروح تنتحب، غير آبهة لحركة المارة من حولها. لكنها لا تلبث ان تخجل من ان يكون أحد قد رآها أو سمعها تتلوع على هذا الشكل، فتخفي وجهها بحقيبتها، وتظل هكذا لمدة دقيقة، وكأنها تريد ان تنعزل داخل جزيرتها الموحشة عن أمواج المتنزهين المضطربين في مدارها، الذين يكتفي اقربهم، حيال ما تعانيه من ألم لا يطاق، بأن ينبّه رفيقه:

ـ «. . . هذه تريد ان تنتحر! . . .»

وتشير الأصابع نحو أعالي الروشة، ويقف صياد السمك بصنارته وعدة

شغله مع المتنزهين يتفرجون على رجل يبدو من بعيد، على شبحه وحركاته، على انحناءة جسمه وتدلي رأسه، انه إن لم يكن مريضاً في عقله، فهو على الأقل ليس طبيعياً في تكوينه. كما يبدو على الدرب القصيرة، التي يتقدم عليها وحيداً كئيباً نحو قمة الصخرة المشرفة على البحر، إن وطأة القدر قد حلّت عليها بكل رهبتها، لأنها الحد القاطع الذي يفصله عن النهاية، والمسافة الأخيرة التي كُتب عليه ان يقطعها فوق مسالك العالم، الذي خلّفه، وراءه. هو المؤآجر الحزين المتعب الذي يسير متخاذلاً مرهقاً في جنازة نفسه، تابعاً بمفرده تابوته الخاص، لانعدام شخص آخر يمشي في مأتمه، مطرق الرأس، مفكراً ربما للمرة الختامية بتفاهة هذه الحياة، محاطاً بهالة من الجلال المأساوي. هو المحكوم عليه بالاعدام، الذي يخطو، عند الفجر، نحو المقصلة على ايقاع طبول الموت، التي يخفق لها قلبي بشدة، فكأني امرٌ في لحظة اثارة قصوى، أرى خلالها فجأة امرأة شهية تتعرى أمامي، أو ثوراً ينطح المصارع وسط الحلبة. هو الذي يُخيل الي، عندما يرفع نظره، انه انما يوجهه نحوي، فترتعد فرائصي بقوة، لأن اشعاعاً من هول المأساة قد سُلِّط علي، وشرارة من حريق المنية الحمراء قد شرقطت فوق رأسي. هو الذي يومىء له الأولادعن الشاطىء ربما لردعه، أو بكل بساطة لمعرفة ما إذا كان ينوي فعلاً الانتحار ليتوقفوا لمشاهدة المسرحية. وكأنهم يلوِّحون بالمحارم لوداع مسافر، يؤشر لهم هو أيضاً بيده دامع العين، مستصغراً عقل اؤلئك الذين لا يزالون على الضفة الثانية يهتمون بشكليات الفراق، وقضية العلاقات البشرية، التي فصم هو عراه معها نهائياً، متأثراً قليلاً لهذه البادرة اللطيفة، التي تؤكد له انه ليس مقطوعاً بالمرة، وان هناك اناساً على المنقلب الآخر يفكرون به. لكن هذا لم يعد يجدي نفعاً الآن، إذ لا صلة له بعد بأي من شؤون هذه الدنيا.

فالاطار العام ملائم لجو الشنق: الشمس الغاربة كأفول أيام الغريق، والتي تضيء له قنديلاً برتقالياً كبيراً بمثابة مصباح سيستقبله في بيت الرقاد الأبدي المريح. الباخرة التي تتقدم ببطء وهدوء في اليَم متوجهة بسلام نحو بر الأمان كسفينة عمره، التي تهفو الآن إلى مرفأ السكون. الثلج المتفجر حول النواتىء وكأنه الكفن الأبيض الذي سيلفه بين طياته. الصخرة التي هي كناية عن جزيرة مقفرة يعتكف فيها بعيداً عن الناس وقوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم، والتي يتسنَّم ذراها متطلعاً تحته إلى القرار السحيق، مستفسراً التموجات الزرقاء كيف

ستبتلعه، مصغياً إلى نداء الموت القوي، وهدير الأمواج، التي تفتح له ذراعيها، وتدعوه أن يرتمي في حضنها الرؤوم متكفلة ان تأخذ عنه كل أعبائه، فيرشقها بحجر ليختبر طريقة اختفائه، وما سيؤول اليه مصيره هو بالتالي عندما يلحقه إلى الأغوار، مقلداً بيديه عملية الغطس، متراجعاً قليلاً إلى الوراء بتردد. ولا عجب فلو لم يكن متلكئاً لما فشل في مغامرته الأرضية، ولما اضطر إلى الاقدام على ما هو بصدده الآن. وانه ليقفز أخيراً. وها هو طعمة للماء. لقد انتهت الحيرة بالنسبة له. لا قلق بعد ولا يأس. انه الهدوء بعد العاصفة. لقد انعتق من صراعه الخاسر في معركة الوجود، وترك تيار **الفناء** يجرفه.

يا الله هل يمكن القلب البشري ان يبلغ هذا الشأو من الوحدة والخذلان؟! . . . ماذا دهى هذه الشقية هل فقدت ابنها الوحيد؟ يا رب أجِزْ عني هذه الكأس! وإذا ما ابتليتني بالأوجاع، أترك لي، على الأقل، ما يكفي من القوة المعنوية كي اتحملها. رحماك لا تدع أمي تعرف غصة من هذا النوع. لا تجعلها، مهما كانت مصائب الدهر، تفقد الصواب، وتهيم على وجهها مهجورة ترنو بحنين إلى أعماق اللجة. ها ان المعذبة، وقد وصلت إلى أوج أزمتها العصبية، تنشل جزدانها وتتقدم بضع خطوات نحو الهاوية، كمسافر يشيل متاعه في فورة غضب، ويتوجه متسارعاً صوب القطار. إلا أنها تلاحظ ان الأبصار مسلّطة عليها، فتجد في ذلك ذريعة لأرجاء التنفيذ الحاسم، الذي لا تزال هي أساساً مترددة في الاقدام عليه. وتسحب محفظتها، وتجر رجليها بتخاذل، خارجة من منطقة الخطر، إلى حيث تسير من جديد بين المارة، دائخة كشحاذة ضريرة تترنح في عرض الطريق لا تحفل بها عين، وتردد وسط الزحام أغنية حزينة لا تسمعها اذن. فالكارثة قد هدت حيلها، وأثقلت خطاها حتى لتجذف بذراعيها خبط عشواء، وتبحث بناظريها عن قشة نجاة على وجوه المارة، وفي واجهات مطعم تتهافت متأوهة بحرقة على درجة، الذي تتخذه بمثابة محطة على درب آلام لا تزال في أول مراحلها. ثم تنهض، تحمل صليبها على ظهرها، وتتعثر رازحة تحته، إلى ان يستقر بها المطاف قرب عائلة متجمعة على الرصيف قبالة البحر على مقعد حجري. وهناك فقط يبدو انها تستعيد بعض الهدوء النفسي. وتروح تتأمل هذه الأسرة السعيدة فاتحة فمها من الدهشة: الولد يلعب بالطابة مشفوعاً بإعجاب أمه، فيما يتعمشق أخوته على حدائد الجسر. والبائسة تفك عنها، في جوار هذا

الجو البيتي الآمن، طوق الحصار القاتل الذي ضربته الفاجعة حولها، كمتسولة شريدة تتأفف من البرد مصطلية قليلاً بنار مدفأة مضطرمة، بعد أن لسعتها طويلاً رياح التسكع العاصفة في الخارج. هنا تعثر على نزر من ذلك الأنس الدافىء، الذي هي بأمس الحاجة اليه. هنا تخرج من شكوكها الداخلية، وتتحرر من هواجسها الفردية، لتضيع عن ذاتها في نوع من الوجود الجماعي. هنا تستعير قبساً من تلك الطمأنينة الحميمة التي ينعم بها هذا العش الإنساني، الذي تحتمي في كنفه، برهة، من الأهوال المحدقة بها. آمل على الأقل ان لا تظل، في استراحتها القصيرة على هذا الساحل الآهل بالعشرة الاليفة، منفية بعد. أتمنى لها ان تستعيد بعض الثقة بالغد بما يصرفها عن التفكير بالارتماء إلى أعماق هذه الغياهب المظلمة. أرجو ان يكون زورقها، الذي اضطرب كثيراً وسط الأعاصير، قد وصل ميناء السلام وإن بصورة مؤقتة.

ـ «إليك هذا طالع لينتحر! . . .»

ـ «كأس العمى صعب. الله لا يحرمكم نور العين.»

ينادي مكفوف يتحسس الأرض بعصاه، يجرّه عن يمين طفلان، وعن شمال ابنة كبيرة تحمل أخاها الصغير ولا تنجح في استمالة رهط من النساء وأولادهن الجالسين فوق بساط على الروشة قرب منقل همدت جمراته، وفناجين قهوة فارغة، وأبريق ماء، وقشور برتقال، ومذياع. تأخذ أحداهن نفساً من النارجيلة متطلعة إلى باعة الكعك، والكستناء، والمكسرات، ودواليب الهواء، وغيرهم ممن يغسلون أكواب المرطبات، أو يقرفصون إلى جانب دست يغرفون منه الترمس، يلفونه في ورقة، **ويناولونه** إلى الزبائن؛ ممن يساومهم رجل متقدم في العمر على سعر اللوز، أو يصطادون السمك رأساً، ويعرضونه على مصطبة يتقدم منها شاب، يترجل من سيارته، ليسأل عن نوع معين من الأفراخ. فيأتيه الرّد:

ـ «هذا خلص من ساعة. على كل حال بقي عندنا أصناف ثانية ممتازة».

بينما يقعد شاب آخر على حديد الجسر، يفتل مسبحته، وينظر إلى السماء واضعاً جريدة في جيبته، تمر أمامه امرأة برفقة رجل مهموم، لعله يمر في محنة

تعضده فيها زوجته الوفية هذه، وتقف إلى جانبه. وغداً عندما يحقق رسالته، ويصبح الإنسان العظيم الذي يحلم في ان يكونه، لن ينسى هذه الفترة العصيبة، وهذه الأزمة النفسية التي سيرد وصفها دون شك في كتاب سيرته أو مذكراته. وستغدو هذه اللحظة التاريخية التي يتخذ فيها قراره الحاسم منعطفاً روحياً يغيّر مجرى حياته.

انعكاسات الغروب تومض بعد على نوافذ السيارات والحافلات، وتتكسر على شبابيك وأبواب المطعم، حيث تتطاير الشراشف على الشرفة، ويتبعثر شعر الرواد، الذين يتراءون ضمن هالة شفافة تمحو كثافتهم وتحيلهم إلى مخلوقات نورانية على وشك الاختفاء.

ـ «طلع الهواء برد الطقس قومي لنرجع!»

تنادي أم ابنتها الصغيرة. وبالفعل لقد بدأت العتمة تنتشر. حتى ليضيء الباعة المتجولون قناديل الغاز، ويركزونها وسط عرباتهم. ويسأل أحدهم زميله، الذي نفدت بضاعته من الكعك:

ـ «كيف كان الشغل اليوم؟»

ـ «والله بالأول ما استرزقت بقرش. لكن بالآخر الله جبر الخاطر. هات وخذ والنتيجة مثلما تلاحظ بعينك.»

ويشير إلى بسطته الفارغة التي لم يبقَ عليها سوى آثار الصعتر:

جمهور العائدين يتراكضون على الرصيف، مولّين ظهرهم **للبحر**، الذي يتركونه وحيداً كبيراً في صمته وعزلته كموكب ينفرط عقده بعد الجنازة ويتسارع نحو البيت ليس دون ابتسامات الرضى والارتياح على الوجوه. انهم صغار تافهون في عودتهم إلى حياتهم اليومية الرتيبة. بينما المتواري وراءهم عظيم في سكونه وغيابه، يكسبه جلال الموت قيمة لا تُقدَّر: امرأة حبلى تشبك أصابعها بأصابع رجل، ويسيران معاً على طريق الأمل نحو الحدث السعيد الذي ينتظرهما. وعندما تقع منها يد زوجها، تأخذها بعزم وتصميم، وتطبق عليها قبضتها بقوة وكأنها تعني: لن أدعها تفلت مني أبداً. لا شيء يفرقنا غير الله. لقد اقترنا وتعاهدنا على قطع درب الحياة معاً. وها ان كائناً ثالثاً لا يزال في طور

التكوين يأتي ليعزز هذا الاتحاد، ويجعل العرى بيننا مستحيلة الانفصام. ويتأبط رجل آخر ذراع زوجته، ويجر عربة طفله، الذي يتأمله بحب ولا يتمالك نفسه، فيمسكه من شعره، ويطبع قبلة على جبينه، متقدماً تحت خط طويل أحمر يظهر فوق الغيوم، ليعلن أنطفاء الحريق كقوس قزح يبشر بانقطاع المطر، متوارياً في البعيد. واني لأرى هذا الرضيع وقد أصبح في المستقبل كهلاً يتنزه مع أحفاده على هذه **الناصية** وقرب هذا الجسر. واستعرض بفكري مواكب الأجيال، التي تمشت على نفس الرصيف وبنفس الفرح والأمل، وكان مصيرهم جميعاً الزوال. بينما تتسارع الأقدام وتخفت وطأتها تدريجياً، فتظهر الأوراق، والأكياس، وعلب الدخان الفارغة، والنفايات المختلفة، التي تعصف بها الريح، وكأنها مكنسة يزيل بها خادم آثار الاحتفال بالعيد الذي ولى.

ـ «حضرّت عشرين معاملة بربع ساعة. المدير جنّ. سألني: تأكدت انها خالية من الغلط. جاوبته: أي غلط أنا رب الالكترون. نعم الإنسان معرّض للخطأ. لكن أنا تعوّدت صرت اشتغل مثل النار.»

يقول لرفيقه، بانتظار الباص، موظف يحمل ملفاً، وينظر إلى عجوز عرجاء تجر إلى الموقف شقيقها الضرير، وكأنها تقود جثة يستفظع الجميع خروجها إلى عالم الأحْياء. ثم تأخذ بمخاطبته بنبرة مسموعة لتقنع الآخرين انه مثلهم، يفهم ويتكلم ويملك من المواهب والكفاءات العقلية ما يعوِّض **عليه** عاهته الجسدية. فالتفت حولي، لمرأى هذه البذرة العاطلة المقذوفة في خضم العالم، **الدافعة غالياً ثمن الخطيئة التي ارتكبها أهلها حين لفظوها على المجتمع دون ان** يكونوا مؤهلين طبيعياً للانجاب، موشكاً أن أهتف على صوت عالٍ: المدينة هي الجحيم. ما من مصيبة في القرية إلا وتبدو مقبولة. النبذ، المرض، الاحتقار هناك لا تُقاس بما يلحقني من تعاسة لمجرد وجودي هنا، حيث لا أمل يُرجى لا منفذ لاخلاص.

وفيما أنا منزرع هكذا على الرصيف تحت عمود الكهرباء، ذاهلاً عما حولي، دائخاً من الألم، إذا بي التفت، فيقع نظري على فتاة قصيرة معلّقة جزدانها بكتفها، واقفة بانتظار الباص، ترنو إلي مبتسمة بحنان. لعلها تجد في أجوائي مادة للأحلام تصرفها قليلاً عن مصيرها البائس في هذه المدينة. ماذا أنا أيضاً بمقدوري استثارة خيال العذارى، والتحول إلى موضوع اهتمام ومعقد آمال؟ أية درجة من اليأس والهجران بلغتها هذه المسكينة كي تربط عجلتها ولو بالوهم بمركبة هالكة هي أدعى إلى الرثاء منها؟ ماذا أحتى الفضلات يظل هناك

محرومون يتوقون ويهفون إليها، حتى صناديق القمامة يظل هناك جائعون ينبشون فيها لسد رمقهم؟ انها تتفرسني بتركيز يُخيل إليّ معه ان عينها من زجاج. ماذا تريد؟ انها عانس لا تملك رصيداً من الجمال تعوِّل عليه للعثور على عريس. وهي تجد، ربما، في هذا المجهول الضائع مثلها على قارعة الطريق المرفأ الأمين الذي تستطيع ان تلقي فيه مرساة عمرها المسحوق. إذا كانت تبحث عن زند قوي تتكىء عليه في هذه المتاهة القاسية، فانا اعجز من ان أقف على ساقيّ. وإذا كانت تفتش عن عضاضة تستند إليها، فأنا حائط منهار بحاجة إلى ركائز متينة تسعفني كي لا أتهافت على الأرض. أما إذا كانت تتطلع إلى شقيق لروحها في المسكنة والاضطهاد فان الشركة بين ضعيفين لا تسفر الا عن الافلاس. انها مخدوعة بي. لست ضالتها المنشودة. إن مظهري الخارجي يخفي عنها واقعي المعيب، وخرابي الباطني. أنا يستحيل على امرأة ان تتكل عليّ. لست أهلاً لحماية زوجة أو اعالة أم أو فرش جناحي على يتيم لأني أحوج الجميع إلى المساعدة.

ثم ترفع الفتاة بصرها عني عندما اكتشفها ترمقني بكل هذا الجوع والضراوة. لكنها تظل تبتسم حتى وهي مشيحة وجهها، وعلى محياها بقايا من هذا الهواء المنعش، الذي تنشقته في دنيا الأحلام، التي عادت من مناهلها العذبة. حتى إذا وصل الباص، ضغطت الجزدان **المدلى من ذراعها**، وغادرت **الناصية، وكأنها** تترك على رصيف المحطة شخصاً حبيباً، تودّعه، وتسافر إلى بلاد بعيدة، لتواصل تخيلاتها اللذيذة حوله طوال الرحلة. ترى من تكون هذه الصبية؟ لعلها موظفة شركة تعود إلى بيتها متعبة وقد انتهى نهار عملها في هذا المنفى الموحش، الذي تحنّ فيه إلى قريتها النائية. إنها رحم قد يذهب هدراً ولا يجد اللقاح اللازم لتوليد الحياة. إنها اناء فائض بالحنان قد لا يعثر على الخل الاليف الصالح لأن يسكب عليه سائل عواطفه الفائرة. إنها قلب دافىء قد لا يوّفق إلى زوج أو ابن أو عائلة تستفيد من كنوز العطف التي يعمر بها.

الباص يتوقف أمامنا يرفع سائقه قبعته قليلاً ليمسح العرق عن جبينه، ويرنو إلى المرآة فوق رأسه. حتى اذا تأكد له ان الركاب القدامى قد أخلوا الساحة، فتح باب الدخول في وجه الأفواج الجديدة، متنهداً بسرور، وكأنه

تخفف من كافة أعبائه كلما التفت إلى ابن هو صورة مصغرة عنه، جلبه معه ليشممه الهواء، وأجلسه قريباً منه على أول مقعد ليناشده مبتسماً:

ـ «تفرج تفرج على زحمة السيارات والناس.»

مشيراً بأصبعه إلى الكورنيش.

بينما يطلب الجابي التعرفة من حلواني متجول يلقي علبة البضاعة قربه، ويناوله قطعة برازق يقبلها عن طيب خاطر. وعندما يستسيغها يشتري قرصين، يرجو البائع أن يقدمهما للسائق وابنه، ويسأله بعد ان يسلم الهدية لصاحبيها ويعود من المقدمة:

ـ «كم يلزمك رأسمال لتفتح محل حلويات؟»

لكن صبياً في العاشرة يستفهم بهلع عن:

ـ «... بنت صغيرة دخلت الباص بدون أمها.»

يقطع عليهما حوارهما، ينتظره أخوه على الرصيف متطلعاً بقلق إلى النوافذ اللامبالية، واضعاً يده على قلبه، يكاد يغمى عليه من شدة الخوف. وعندما لا يجيبه أحد يكرر سؤاله، فيرد عليه الجابي بغضب:

ـ «تعالَ خذها من جيبتي. أما تأكدت بعينك انها غير موجودة؟!»

ويعود إلى المهمة التي صرفه الصبي عن الاسترسال فيها: التحديق في سيقان فتاة تجلس أمامه بفستان قصير يبرز كل مفاتنها. ثم يصرخ دون مناداة اسم، فلا أحد له هوية، ودون مراعاة كرامة فلا أحد له شعور:

ـ «انهزوا انزلوا إلى تحت. أنت أنت قدام قرِّب لا تقف حَد الباب مثل المسطول!»

عندئذ يقلع السائق ممازحاً الجابي بلهجة جبلية:

ـ «قل لي بعد على مهلك. امتلأت المقاعد ما عاد عندنا مطرح. الله يقبِّرني إياك تحت محدلة كبيرة.»

لكن زميله لا يلقي بالاً إليه ويأمر والدة صبي صغير ان:

- «ادفعي عنه.»
- «عمره خمس سنين.»
- «ادفعي عنه. أو استرجعي فلوسك واطلعي أركبي بغير باص!»

فتضع يدها على كتف ابنها دامعة العين. لا انها لا تستطيع ان تؤمل عوناً من أحد. أما إن كانت تريد البكاء لتصريف حزنها إلى الخارج فلا بأس عليها. لن يلتفت إليها بشفقة سوى امرأة تعاني هي الأخرى من أزمة نفسية حادة، وتجلس قبالتها شاردة منعزلة عن الآخرين داخل عذابها، الذي يهيؤها للتعاطف مع البؤساء أمثالها. حتى انها لا تتمالك نفسها، وتضع يدها على عيونها لترفعها عنها بعد قليل فاذا بها حمراء بالدموع، عندما تصرِّح الأم لاستدرار رحمة الجابي:

- «جئنا رأساً من المستشفى!»

حتى النومة تحت التراب تبدو خفيفة الوطء في القرية. حتى الجثث في مقبرتها أوفر حظاً. هذا ما توحيه لي هنا المدافن وورقة النعوة الملصقة على العمود، والتابوت الذي يخرج من الكنيسة متبوعاً بعشرين شخصاً فقط، والذي لا يستقطب أي متفرج على السطوح، لا يستوقف ولا يسترعي انتباه أحد، حتى اؤلئك الجالسين على الشرفات بطريق الصدفة.

عندنا في البلد السعيد حتى الرموس تتجرد من طابعها المرعب، بنوع انك تستطيع ان ترى، في أمسية صيف مقمرة، تلميذة تستعد للامتحان الرسمي، تحمل كتابها، وتذاكر دروسها، ذارعة الدرب المتاخمة لأسوار الجبّانة جيئة وذهاباً، قبل ان تصعد إلى سطح قبر مرتفع لتتأمل من عليائه صبية يتبارون بقذف الأحجار إلى النهر، والتفرج على الأثر الذي تحدثه في مياهه. حينما يستفحل دائي وينفض الأطباء يدهم مني يبقى لي أمل أخير بالخلاص: «وادي المروج». أما ان لم تستطع هي ان تشفيني فهذا يعني اني انتهيت وان يأس أهلي أصبح في محله.

أحقاً يؤمن هذا الشاب، الذي يحمل مجلة تحت ذراعه، ويعود بها متفائلاً إلى البيت، بامكانية الفرح في هذه القفار؟ ويمضي هكذا مقتنعاً في سذاجته انه يوجد في هذه المدينة ركن آمن يأوى إليه، يقرأ فيه بهدوء ويجني ثمار العزلة

اللذيذة؟ لا مهما كان جميلاً، ممتلئاً بالصحة، ومهما أشارت الدلائل إلى انه موّفق وناجح، لا أستطيع أن أتصوره سعيداً لا لشيء إلا لأنه من سكان هذه العاصمة.

أحقاً تجروء على الزواج هذه العروس، التي ألمح من خلال فتحة باب أطفالاً بلباس جوقة شرف يرفعون ذيل فستانها، ومدعويها ينتظرون في الكنيسة اكتمال النصاب؟ أحقاً تصدق وعود الهناء في هذه المتاهة؟ أنا، إذا تزوجت، فلن اختار شريكة لحياتي سوى إحدى تلك الرؤى السحرية التي تطل بين الحين والحين على شرفات وسطوح «وادي المروج». لن أربط مصيري إلا بخنصر فتاة حسناء المحها صوب ديارنا جالسة ذات ليلة قمراء تحت عريشة عنب في رواقة بيتها تسبل شعرها كحورية، تتسامر مع رفيقتها، وتجود على المارة، بين وقت وآخر، بنظرة رحيمة. ولن انثر بذاري إلا في تربة قريتي الصالحة، فيكمل أبنائي من بعدي هذا المشوار الهنيء، الذي طالما استمرأت القيام به **على ضفاف** نهر «الكرمة». فكم من مرة، مساء الأحد، محاذياً حيطان زقاق، متلصصاً من خلال شق باب مفتوح رأيت امرأة شابة تقوم مع زوجها بزيارة لأهلها، وتقلب قربه مجموعة صور عائلية، فتمنيت لو اني أحظى بعروس شريفة من هذا النوع، وتحسرت على كل فرص السعادة المماثلة التي تركتها تفلت من يدي. نعم أحلم ان يكون لي حياة عادية لرجل نموذجي من «وادي المروج». أتأهل وانجب، اتنزه وأعيش تماماً على نفس الأسلوب الذي يتبعه أبناء عشيرتي. ففي هذا وحده أكبر حصانة ضد الألم.

عقد القران هنا يبدو لي زائفاً محكوماً عليه بالفشل سلفاً، مع منفذ واحد للخلاص: ان ينطلق موكب العرس هذا بعد مراسم الاحتفال لتمضية شهر العسل في مكان ما من الريف، التي تنقلني قرعات الجرس إلى أجوائه: هذا فرن المعلم قبلان المتضوع برائحة القربان والكعك. هذه كنيسة «سيدة المعونة» الآمنة وسط السوق **بقبتها** المشعشعة بأضواء الكهرباء، وداخلها المعتم الحميم العابق برائحة البخور، ومقاعدها حيث تأخذ النساء مكاناً، واضعات المناديل على الرؤوس. حتى **لأنسلّ** خارج المدينة على متن سيارة قديمة واقفة على قارعة الطريق، حاملة على ظهرها علبة كُتب عليها «وادي المروج» لا شك ان الآخرين

ينظرون بازدراء إلى هذه الارسالية المتوجهة صوب الجبال. بينما امنيتي الوحيدة أن أحزم إلى هذا الصندوق وأشحن إلى قريتي. فاصلها مساءً، أصعد الطلعة وأشرب من الحاووز حامداً الله الذي أعادني أخيراً إلى مرفأ الوطن الأمين، خافق القلب بنسبة اقترابي من البيت. لن أجد سوى هيكل الحمصي ساهراً في دكانه على الأزقة المقفرة. لكنه لا يشمت بها، كما يفعل هؤلاء الغرباء لدى مقارنتها بشوارعهم المكتظة. انه يعلم مثلي انها وحدها جديرة بالاحترام والتقديس، وحين افتح الباب سأعثر خلفه على كنزي الثمين: أمي، التي تفتح لي أحضانها، تمسح التعب عن جبهتي، وتطلب مني بحنان أن أخبرها تفاصيل رحلتي. انتهى. اني في مسقط رأسي من جديد، ومع ذلك كم من عوالم مستحيلة العبور تفصلني عنه.

الوادي، «حوش الزهور»، منطقة «المروج»، هذا هو متنفسي الصحيح خارجه اختنق. البوسطات التي امتلأت بالركاب، وأصبحت على أهبة الانطلاق نحو القرى اشيِّعها بحنين، يزكي أواره هذا البيت العتيق الشبيه بمنازل الضيعة: رجلان من الجيل القديم يلعبان الطاولة على شرفة تطل على حديقة ترتعش أعشابها وأشجارها في الريح كنسمة عزاء تهبّ علي من أجواء الريف، حتى لاشعر بتقارب روحي نحو هذين المجهولين السعيدين، لأنهما عرفا بذكاءكيف يخلقان واحة وسط الصحراء، يهربان اليها للنجاة بنفسهما.

الباص يصفّ أمام رصيف تتربع عليه امرأة في الخمسين من العمر، ترتدي معطفاً أسود، وتطالع مجلة رابتة على كتفها وفخذها في حركات عصبية، مؤدية بيديها اشارات متواترة، كأنها تستوقف بها السيارات التي تمر أمامها، أو تلعب بالطابة، أو تقود فرقة موسيقية بابتسامة صفراوية مخيفة وسط وجه شاحب وأسنان نافرة. لكن أحداً من المارة لا يفكر بالتمهل ليعيد هذه المجنونة إلى البيت، أو ليسألها ما بها، أو ليوجه اليها نظرة فضول. حتى البائع المتجول، المفترض فيه، هو الكادح المعذب، شيئاً من الانسانية والحنان وأخلاقية أهل القرى، لا يلتفت اليها، يتخطاها بعربته دون اكتراث، ويتركها مطروحة وحدها على الرصيف تقرأ الصفحة إياها في هذه المجلة القديمة وتعيد متمتمة، مكلمة نفسها، مواصلة حوارها الذاتي بايماءات صامتة. لعلها كانت يوماً ما فتاة هانئة

كاختي سعاد تنتمي إلى عائلة محترمة، ثم جابهتها في الحياة صدمة قوية أفقدتها العقل، فتخلى عنها الجميع. ولعلها بحركاتها هذه تهدهد بالوهم سرير طفل فقدته، ولم ترزق بغيره، وتتلو على مسمعه قصة، مغنية له كي ينام. لكن لا يوجد هنا من يلصق بها سيرة ذاتية، أو يعترف لها بماضٍ معين أو كيان خاص. ولا من يهتم بمشوّه يملك رجلاً مقلوبة، أو شاب مصاب بمرض جلدي فظيع يتفشى على وجهه بثوراً متقيحة تعافها النفس. أو كسيح يضع مؤخرته في قفة من المطاط، وفي حضنه علبة علكة وأوراق يانصيب، وفي يديه قبقابين مربوطين إلى قبضتيه، يجذف بهما على الرصيف. يأتي قبالته شحاذ آخر يزحف على دواليب كرّاجة محطوطة تحت بطنه.

ـ «قربوا لقدام! قربوا لقدام! ممنوع النزول من الباب الوسطاني وحياة حماتي!...»

يصرخ الجابي مهدداً باستهزاء امرأة مسنّة تقف عند الباب الأمامي:

ـ «لا أفتح الباب للعجائز. هذا مخصص للصبايا...»

فتجيبه الشيخة المهانة:

ـ «خلصني افتح بلا طق حنك...»

عندئذ يكبس الزر شاتماً:

ـ «يحرق دينك يا عزرائيل كيف تركتها إلى اليوم بعد!...»

وتترجل الحيزبون مدمدمة:

ـ «عزرائيل يأخذك...»

فيعقب قاطع التذاكر:

ـ «ويقبرني أنا واياك في حفرة واحدة».

وتمضي الحدباء ذليلة وسط الزحام، حيث لا يقل الناس انكاراً لحقها بالبقاء من هذا المأمور الساخر، وحيث تكاد تدهسها سيارة مرسيدس عمومية تندفع بأقصى سرعتها، مقلةً في مقعدها الخلفي زوجين يحتضنان طفلهما، رافعين

رجله الدامية إلى أعلى، هارعين به نحو أقرب مركز للاسعاف.

الجابي يأخذ تحت حمايته فتاة حسناء مرتدية بنطلوناً أحمر، معلّقة جزداناً بكتفها، واقفة وراء حاجز أمان يصونها عن بقية الركاب في حرز حريز قرب حارسها، الذي يصليه بنار عيونه القادحة شرراً شاب يتوعده بيده عن المقعد الأمامي. فاعتقد أول الأمر ان القضية لا تعدو ان تكون مزاحاً، وانه لا يمكن ان ينشب شجار بينهما. لكن الفتى الشرس سرعان ما ينهض ملوِّحاً بقبضته، محاولاً الاقتراب من عازل زجاجي يقبع غريمه خلفه، ويصده رفيقه عن بلوغه. عندئذ أفهم بعض شذرات من ثورة الشاب الغاضب:

ـ «. . . نحكي بالأرمني؟! . . . وإذا حكينا بالأرمني أنا وصاحبي؟ أنتبه لحالك يا ابني أحسن لك. نحن أرمن. اتعرف ما معنى كلمة أرمن؟ يعني أننا نحرق دين ربك الذي **خلقك**. توقف بالمحطة وانزل وتفرج كيف أربيك. اتعرف من انا بالأول؟ أنا عندي قهوة كبيرة على «البرج». أنا ما بحياتي طلعت بالباص. لكن هذه المرة ما أدري كيف خطر ببالنا ان نركب فيه لنصل على مهلنا لأننا لقينا أنه معنا وقت كثير. . . »

وحيال احتداد هذا الرجل الذي يوحي بؤبؤاه الجاحظان، وشيبته الباكرة، انه يعاني ربما من بعض الاضطرابات النفسية، يضطر السائق إلى تخفيف سرعته، حائراً لا يدري إن كان عليه ان يتوقف، او ان يواصل سيره. وتنهض ثلاث نساء في المقدمة خائفات طالبات النزول من الحافلة، خشية ان تسفر القضية عن مضاعفات وخيمة العاقبة. بينما يحاول الركاب عبثاً تهدئة خواطر الشاب وأعصابه المتوفزة: انه لا يكاد يجلس مكانه نزولاً عند الحاح صديقه حتى ينتصب من جديد مرغياً مزبداً متهدداً منددا. فالوقت بدل ان يلطف من فورة حنقه إنما يزيدها احتداماً.

ـ «. . . احترم الناس لا تفتكرني تلميذ مدرسة قدامك هَه! . . . »

فيرد الجابي نادماً ربما على تحريكه لمثل هذا البركان الهائج القاذف يميناً وشمالاً حممه، التي قد تتناثر شظاياها بعيداً جداً، حتى ليمكنها ان تبلغ مرؤوسيه، فتسيء إلى سمعته، وتفتك بملفه المهني، مرتعباً لتفجيره برميل بارود

من هذا العيار لم يكن يحسب له كل هذا الدوي العنيف، آملاً اخماد الحريق برذاذ من لطفه:

ـ «لا، أنا أعرف أن أميِّز بين الاستاذ الراقي وبين تلميذ المدرسة».

ـ «طيب **ما لك وما لنا** . وإذا حكينا بالأرمني أنا ورفيقي. اتفهم لغتنا حضرتك؟ ومن أين عرفت اننا نعاكس البنت ونسمعها كلمات بلا طعمة. نحن عندنا حريم ونراعي شعور الناس. إن كنت تريد ان تبيِّض وجهك معها ما تعملها على ظهرنا. الآنسة تاج رأسنا نحن نحترمها ونعزّها مثل اختنا، وما جئنا صوبها لا من قريب ولا من بعيد.»

كل هذا والجابي يلوي رأسه بابتسامة ذليلة، منتظراً دون جدوى ان تمر العاصفة بسلام. والفتاة التي يحرسها منزرعة قربه كحسناء تحتمي بظهر فارس مجرد من درعه، أعزل من السلاح، عاجز هو ذاته عن الصمود على أرض المعركة. لقد أراد ان يمثل معها دوراً جميلاً، لكن الأجير مسلوب الكرامة ولقمة العيش تلجم الفم. وها هو يتلقى الإهانة في عقر داره صاغراً كأسد نتبين بعد تسريحه من قفصه انه لم يكن سوى هرة كبيرة. وأخيراً يترجل الأرمني العصبي المزاج ومرافقه، ويخلو الجو لقاطع التذاكر كي يدحض الاتهامات الموجهة اليه. فيهجر كرسيه وراء شباك الصندوق، يُجلس محميته، بعد زوال الخطر عنها، على المقعد أسوة ببقية الركاب، كطبيب يُخرج مريضته من غرفة الطوارىء ويعطيها سريراً عادياً في عنبر المستشفى، ويقف في الممر بين المسافرين طالباً منهم بلطف الاستماع إلى دفاعه عن نفسه، رابطاً بالمغيط رزمة من الأوراق المالية:

ـ «أنا لا أتدخل فيما لا يعنيني هذه الصبية بنت خالتي وما هي غريبة عني. من وقت ما طلعت إلى الباص وهو يتوشوش عليها مع صاحبه بالأرمني والتركي ويتغامز عليها ويعمل لها اشارات وحركات. عيب! هل انعدمت الاخلاق من الدنيا؟!...»

ثم يُشهد شاباً رصيناً من الصفوف الوسطى في الحافلة:

ـ «... حضرتك مثلاً انسان مهذب ما تعاطيت مع البنت. وجهت لك أنا أي ملاحظة أو تحشرت بشؤونك؟ لا!...»

فيصدر عليه جمهور المحلفين المتعاطف معه حكماً اجماعياً بالبراءة:

ـ «. . . هـذا الأرمني إما انـه سكران إمـا انه خسـران بالقمـار أو بسبق الخيل. مليح انك طوّلت بالك عليه وكسرت الشر. . .»

ـ «. . . قال زبون العوافي قام يتهددني بجماعته. أنا أبعث له بواحد من جماعتنا يقضي عليه بلمحة عـين. الرجـال لا تخاف ولا تجبن. مـا انحس هذه الأيـام التي وصلنا إليهـا. أول ما تحط بنت رجلهـا في الباص يتعلّقهـا الشباب كلهم. هذه قصة صرنا نفهمها لأننا قلّعنا أضراسنا في هذه الشغلة.»

عندئذ تتوقف الحافلة فتقترب منه نسيبته الجميلة وتهمس في اذنه معتـذرة لأنها تسببت له بكل هذا الازعاج. ثم تودّعه نازلة الدرج:

ـ «بخاطرك سلّم لي على نهاد!»

ـ «الله معك سلّمي لي على امك. تفضلوا شرّفونا.».

فاشيّع بنظري هذه الفتاة التي أرجّح انها ريفية النشأة اضطرت سبل العيش عائلتها ان تنزح إلى المدن، حيث لم يعد لروابط القربى، لزيارات الأهل، وللمحافظة الأخلاق أية أهمية أو معنى. ولعل أخوتها شبـاب من اؤلئك الـذين استوردتهم العاصمة من الأقاليم لتجعل منهم جباة وبوابين، حجاباً في المكاتب، وعاملي مصاعد. إنها حيوان هاجر من ادغال القرية إلى سواحل بيروت التي لن تلبث ان تدجنه، تروّضه، وتكيّفه وفقاً لطقوسها الهجينة.

الباص يستأنف رحلته بوسقـة جديـدة من العمال والمـوظفين والـطلاب العائدين مع شعة الأضواء الأولى، وحلول عتمة مؤنسة كحنين الغريب إلى بيته. أربعة شغيلة انتهى نهارهم في الورشة يصعدون متوجهين إلى غرفتهم المشتركة، متأبطين زوّاداتهم ومطبقياتهم، مستحين بلحاهم الكثـة وثيابهم المهلهلة القـذرة ورائحة عرقهم القوية من باقي الركاب النظيفين. حتى ليجيب أحدهم الجـابي الذي يأمره:

ـ «لقدام! لقدام!»

ـ «عارف، لكن تطلع إلى ثيابي المزفتة.»

مع ذلك يبتسم هؤلاء الكادحون بسعادة بعد ان عثروا أخيراً على راحة لأجسادهم المحطمة، ويسارعون فوراً إلى الدفع، وكأنه لا يحق لهم التأخر أقل دقيقة مثل غيرهم من السادة المهذبين، أو التلاميذ الحاملين محافظهم وكتبهم، أو الموظف الواقف في المؤخرة، مسلّطاً نظرات الصبابة على حسناء تقدم له فرصة مؤاتية لأن يعيش بضع لحظات جميلة بعد يوم مجدب في مدينة هي مقبرة للأحلام. لكنه يشعر أحياناً انه قد بالغ وتعدى حصته في قرص عسل هو من حق الجميع، فيعطي الدور لسواه، ويشيح بصره عنها مسبّحاً بمسبحة يأخذها من جيبته. بيد انه يعجز عن ضبط نفسه طويلاً، ويعود بعد قليل ليأخذ رشفة أخرى من هذه الكأس المسكرة، مذبلاً عينيه بحنان. أما الفتاة فانها تعلم انها مراقبة، وتحاول ان تجسّد انصرافها عن الجو المحيط بها بواسطة لفتات شاردة ترسلها من النافذة، وتتيح لي ان أتملى من شعرها الفاحم المسترخي على كتفها، الذي تهز رأسها لترد خصلاته الساقطة على وجهها الحنطي اللون المنسجم مع أسنان سليمة منضودة دون عيب داخل ثغر صغير جذاب. أرمقها وهي ترنو إلى الخارج بحالمة، أو تتهرب من وقاحة الشاب برفع رأسها إلى فوق وخفضه على حضنها. أتأملها من **جانب ووجهاً لوجه، مدهوشاً** بتنويعات الجمال التي تبدعها مع كل وضع جديد تتخذه. فكأنها تعويض لي عما تحملته من عذاب في هذا النهار، بل نفحة سلوى منعشة بالنسبة لجميع الركاب. لا إن أنامل الخياطة لم تتعب عبثاً في حياكة هذا الفستان، ولا ضاعت هدراً النقود التي اشترت هذا القماش، ولا لوم على شاب في المؤخرة يحدّق فيها بشبق. فأتصوره يلحقها حين تنزل من الباص، حتى إذا وصلت إلى زقاق معتم أنقض عليها، فأكون أنا هناك لأحميها. ولسوف أتعارك معه بضراوة، وأتغلب عليه رغم عنف اللكمات التي يكيلها لي. ورغم مقدرته الجسدية الهائلة، وذلك بفضل ايماني بحبي وظهارة أحلامي. وبعد ان أخلّصها من براثنه، انصحها بحنان: «من كان بمثل جمالك حرام ان يخرج وحده في الليل.» ثم تتطور علاقتي بها إلى غرام فزواج موفّق.

السرير المزدوج في هذه الواجهة هو لنا أوصينا عليه معاً. وها أنا أقصد محل المفروشات بعد يوم من العمل المضني لأدفع ثمنه من عرق جبيني، وأحمله إلى البيت، حيث لا تكون هي على علم بأنه أصبح جاهزاً، فتهلل لهذه المفاجأة الجميلة، ونتمدد عليه لنجرّبه متعانقين من الفرح. وذات يوم ستمنحني الشركة

التي أعمل بها مكافأة مالية تقديراً لنشاطي واخلاصي في الخدمة، فاتصل بالمنزل لأسأل زوجتي العتيدة عن مقياس جسمها، كي ابتاع لها هذا المعطف الأنيق المعروض في متجر الأزياء. وعندما آتيها مساءً تنهال علي بقبلات الود وعرفان الجميل... لكن الفتاة تنزل في هذه المحطة قبل ان يتاح لي تحقيق أي من أحلامي، وتتركني في هذا المنفى دون رفيق. حتى لأشعر بغصة وكأني بصدد وداع حقيقي. يشيِّعني العجوز المتقوقع داخل الباص، سانداً يديه على العصا الموضوعة بين رجليه، بابتسامة رضى وإذعان لعلها تعني: لقد مضى وقت طويل منذ ان اعتزلت الحياة، وانسحبت من معتركها لأتقاعد، واقف متفرجاً عليها من الخارج، حيث لا يسعني سوى الضحك على مهازلها، التي لا تزالون انتم تأخذونها عن جد، وتدورون في فلكها. لاحقت النساء كثيراً في شبابي. ونلت حظوة كبيرة عند حِسان الأيام الخوالي. ثم تبين لي في النهاية بهتان كل هذه المغامرات العاطفية. فلا تنتظروا مني ان اهتم لنظرات الصبابة التي تلاحقون بها الأوهام في هذه الحافلة، وان اعطف على بطولاتكم الزائفة. طالما كافحت وعملت بجد ونشاط. طالما رجعت في المساء إلى بيتي منهكاً إلى أن أتضح لي أخيراً عبث كل هذه المساعي. فلا تتوقعوا مني الاعجاب بأجسادكم **المحطمة، وعوداتكم** بحنين إلى مهاجعكم. لا تتعبوا نفسكم. مهما جاهدتم فانكم لن تبلغوا شأوي. ومع ذلك أقول لكم: باطل الأباطيل وكل شيء صائر إلى زوال. وأفضل حكمة هي الاذعان والترفع عن كل هذه الأمور، هي سحب الدبوس من اللعبة، والاستهزاء بشؤون الدنيا.

أمام موقف الباص ومخرج المدرسة تؤشر امرأة عصبية بيديها كما لو كان الرصيف شقتها الخاصة، منفعلة، محتقنة، صائحة بغضب في وجه زوجها، الذي يرتبك ولا يجروء على الرد، لأنه يعرف ان احتجاجه لن يفعل سوى ان يزيد النار احتداماً. فتعلِّق إحدى الراكبات على هذه المشاجرة العلنية مستاءة:

- «**يا عيب الشؤم. ما عادت طوّلت بالها لتصل إلى البيت وفي بيتها هي** حرة تصرخ تعيِّط تأخذ نهوة رأسها. ما معها حق ان تبين فجورها بنصف الطريق، وتجرِّص حالها قدام الناس.»

ويعقب الجابي ممتعضاً هو أيضاً:

ـ «ومع هذا يركض الشباب على الزواج. مرة تطاولت علي ست وضربتني بالشمسية، قمت ناولتها أول كف والثاني. تشكت عليَّ وعرضت القضية على المحقق العدلي ما كان منه إلا ان حكمني براءة..»

ـ «أين نتعشى الليلة؟!»

يسأل صاحبه شاب يصعد إلى الباص، ويتكوم على نفسه بنشوة، مرتاحاً إلى أناقته، منطلقاً بحماس نحو المغامرة، متقدماً نحو وعود الفرح الأكيدة. أتذكر حين تصادف وجودنا أنا وسعاد في بيروت، وركبنا الباص مساءً، كيف كانت تتلفت حولها بثقة وأمل كهذا الفتى. لأن مستقبلها كان أمامها كعلبة لم يُفضّ ختمها بعد. كانت مسرورة لأنها تعيش يوماً مختلفاً عن مجرى حياتها العادية. كانت مزهوة لأن أحد الركاب أدام التحديق فيها. وكانت مغتبطة على الأخص لأنها ربحت مئة ليرة باليانصيب الوطني، راحت تحلم بما ستشتري بها من هدايا لأهلها. هل تحققت آمالها؟ هل كانت ثقتها بالغد في محلها؟ هل تستجيب الآن لحافز سعادة، أو تؤمن بعد ببارقة أمل؟ هل نفع كل رصيدها من أنوثة العافية وجمال الصبا في إعطائها ولداً؟ لا، لقد حُرمت من نعمة الأمومة، وكُتب عليها ان تعيش منفية في الغربة، هي التي كانت تشتاق لأخوتها إذا ابتعدت عنهم يوماً واحداً، هي التي كانت تستقبلها أمها بالأحضان بعد أقصر غياب، وتقول لها ان البيت موحش بدونها، انها افتقدتها كثيراً ولا تطيق عنها فراقاً.

ترى من يعيش خلف هذه النوافذ؟ هل هم أناس يملكون حياة خاصة لا يستبيحها الغير، ولا تزعجها الزمامير والضوضاء؟ هل بيوتهم هي حقاً مرافىء أمان يأوون إليها مساءً للراحة، ويستطيعون ان يناموا فيها بسلام دون ان تجرح عيونهم الأنوار التي لا يطفئونها في الشوارع طوال الليل، فيظل كل شيء في الغرف مرئياً كما في وضح النهار، ودون ان تقضّ مضاجعهم محادل حافلات وهدير سيارات هي قنابل موقوتة من الضجة مرابطة أمام الأرصفة كأرواح قد تتململ وتخرج من رموسها، متبدية فجأة عن جوهرها الدفين الذي هو بارود متفجّر.

ـ «خلصوني! خلصوني!» أكاد أصرخ عندما يتباطأ الباص، فيدور ويدور

ويظل واقفاً في أرضه، حتى لأشعر باستحالة الوصول إلى اي مكان، أو النفاذ إلى أي جهة في هذا الملجأ الذي ننتظر فيه بين لحظة وأخرى أن تسقط القذائف علينا بوجوه منقبضة كجثث محصورة في علبة سردين يقودها السائق إلى المشرحة أو المقبرة الجماعية. بينما يقرأ جاري جريدته ببرود ولامبالاة. انه من أبناء المدينة الذين اعتادوا ان يقضوا نصف عمرهم في الانتظار عند المحطات وداخل وسائل النقل، ووسط الزحام، حيث يضيق صدري فأكاد استحث الباص بغضب وفروغ صبر ان يبلغ غايته ويضع حداً لهذه المهزلة. لكن لو بدرت مني أقل نأمة لاعتبروني مجنوناً وربطوني وأخذوني إلى العصفورية، أو لاكتفوا بالتقرير بأني معتوه، وتركوني أصيح ملء شدقي.

عندئذ المح ظلي يتمرأى على نافذة الباص، من حيث ينعكس على زجاج بناية غمر قربها. فافاجيء نفسي هكذا من الخارج كشخص ثالث غريب. لا شك ان الآخرين يرونني على هذه الصورة، فيعدوني واحداً منهم رقماً اضافياً في مجموعهم الهائل، وقطرة صغيرة في أوقيانسهم البشري. يُضحكني اناء الماء الذي يضعوني فيه كالسمكة ليرغموني ان أسلك نهجهم، ان أقلدهم، وأرضخ لقوانينهم. لا، لا تنخدعوا بي، ولا تُلحقوني بصفوفكم. أرفض التلفظ بعباراتكم والخضوع لنواميسكم، والانتظار مثلكم على المحطات في فترات معينة، والمضي في هذا الاتجاه أو ذاك في مواعيد محددة. أرفض طريقة استعمالكم للوقت، وأسلوبكم في الحياة. واتضايق حين تضطرني الظروف إلى التفوه بكلماتكم المزيفة والاتيان **بحركاتكم المصطنعة كمهرج يلعب** دوراً لم يُخلق له. لا تحسبوا حسابي إني راحل بعد قليل.

عندما لا أجد محبساً في يد الأجنبية الشقراء المواجهة لي انطلق في أحلامي: لقد تأهلت وهجرها زوجها. أو أنها عرفت مأساة ما. هذا ما يقوله لي الحزن البادي على محياها. ولقد هجرت بلادها، حيث لم يعد لها مستقبل، ونزحت إلى الشرق بحثاً عن السلوى، وعن فرصة جديدة في الحياة أنا من سيهيؤها لها. سأحملها على ان تروي لي قصتها، وأساعدها على تجاوز المحنة واستعادة الأمل. ترى نحو أي شارع تتجه هذه الحسناء، التي تضيّق عينيها، وتنظر إلى الخارج بحنان متيحة لي بغيابها التام عما حولها أن اتفحصها بحرية،

وفي أي بناية تسكن لأتبعها إلى بيتها، علني اكتشف أسرارها الحميمة، ولغز هذه الكآبة المرتسمة على وجهها... ويشرد خيالي معها، حتى لتفوتني المحطة المنشودة وإذ أسأل السائق:

ـ «أين الحمراء؟!»

يجيبني بغضب:

ـ «قطعنا ألف شارع وشارع وتسألني بعد عن الحمراء. من ساعة وانت تتطلع عن يمين وعن شمال، لا تعرف حالك من أين جئت ولا إلى أين رائح. تفضل انزل وانتظر على المفرق وقل للسائق ان يوصلك إلى الحمراء.»

فأترجل وسط شماتة واحتقار الركاب الذين سيوالون تعليقاتهم عليّ بعد ان أديبر ظهري، متطرقين إلى سذاجتي وبساطة أبناء القرى. وأروح أسأل اللافتات أن تهديني وسط هذه المتاهة «انيكار» لقد رأيت هذه الآرمة على مدخل الحمراء: لكن لعلها إعلان آخر عن نفس الماركة «البنك اللبناني للتجارة» «سينما كليمنصو». أين أنا؟

ـ «تفضلوا اشتروا حبة شكلس أو زر ورد! . . .»

بهذه المناداة يستلفت نظر المارة على رصيف «الحمراء» رجل عجوز لعله عزيز قوم ذل، يستند إلى الحائط، ويبتسم مقدماً نحوهم علبة علكة وباقة زهر يحملها في يده، وتحت أقدامه شحاذ مضمّد الساق والذراع يضع رأسه على الأرض، يخفي اذنه بقبضته، ويأخذ له غفوة على الناصية. وأين تريده أن ينام؟ لا مورد رزق، لا عمل، لا أملاك وعقارات يعيش من مدخولها، ولا أهل يعيلونه. أنا لولا بعض الامتيازات العائلية والميراث الأبوي أما كنت عرفت مصيراً مماثلاً؟ وثمة متسول آخر متمترس على باب مخزن كبير يعرّي ساقه اليمنى ليبرهن للمارة انها عوجاء استدراراً للشفقة. وعندما يرى انها لا تستلفت النظر بما فيه الكفاية يبرزها ويلويها مزيداً. حتى اذا رمى له أحد المارة بقطعة معدنية ترن فوق النقود الأخرى، راح يحسب كل الصدقات المتجمعة في يده كتاجر حريص ينقل دراهمه من كيس إلى آخر، فيُسمَع لها طرطقة خافتة وسط الشارع كارتطام حلقات أسوارة ببعضها. وبعد أن ينتهي من العد ويطمئن إلى أن غلة اليوم لا بأس بها، يستأنف ترداد لازمته المعهودة.

ـ «كرامة لله يا اخوان! . . . كرامة لله يا اخوان! . . .»

يفترش الأرض قربه زميلان له هما ولدان قذران يلتهمان بشراهة فظيعة شرائح من البطاطا تفح رائحتها على الرصيف. هل هي وقاحة المدينة تنسيهما ثيابهما الممزقة وأيديهما الملطخة بالسواد؟ أم هي سعادة الطعام تصرفهما عن كل ما يجري حولهما؟ وحتى عن رفيق لهما في العاشرة، ارتسمت على ملامحه علائم الهزيمة من ذل وذبول، من خيبة وامتعاض، واضناه الجوع والتعب واليأس فنام على

عتبة مستودع باسطاً للاستعطاء راحة كف يوجد فيها خمسة قروش، هي بمثابة المسمار الذي ثقب رسغ المسيح المصلوب.

وفيما أنا منتصب هكذا بين أروقة بناية ضخمة إذا بماسح أحذية يمر حاملاً صندوقته بيده ممسكاً بالأخرى كرسيه الواطىء، مدمدماً بمرح لحناً شعبياً. ولمَ لا يكون سعيداً؟ قد تكون حالته بائسة، لكنه يظل، في أسوأ تقدير، أفضل مني. انه يملك على الأقل مهنة وإن وضيعة تدر عليه ما يقيم به أوده. إنه بمنجاة من هذا القلق القاتل الذي ينهش صدري. إنه ليس مهدداً مثلي. إنه يتطلع إلى داخل المحلات لينبّه قاطنيها إلى أنه هنا. ويمد رأسه من الأبواب إلى أن يقطع قربه شاب فيغريه بأسعاره المتهاودة.

ـ «بربع ليرة! بربع ليرة! . . .»

وإذ يقبل عابر سبيل بعرضه يتمركز ماسح الأحذية، وينهمك في عمله مغنياً بفرح. إنه يغنم القرش فوق القرش مراكماً هكذا مبلغاً يكفيه لأن يعيش، ويدفع عنه غائلة الجوع. إنه لا يشغل باله بالأفكار المعقدة والمطامح الكبيرة وأحلام العظمة بل يقنع بحاله ويرضى بنصيبه. لكن لئن كنت أحسده فاني لا أحقد عليه. بالعكس إني أود أن أضمه بعطف، ان أغمره بموجة عرمة من الحنان، أن ألثم شعره حين أراه يفتح مطبقيته ليتعشى منها، وكأن صندوقة الدهان هي بيته على هذا الرصيف. إنه من فئة المحرومين المظلومين التي لا تفصلني عنها سوى طبقة شفافة. لا، انه ليس بغريب عني. ولا بوّاب البناية الذي يكنس أروقتها، ويكوِّم الزبالة عند زوايا أعمدتها، ثم يمسح رخامها بالصابون بآلة خاصة لذلك؛ ولا بائع اليانصيب الواقف الآن يتأمل معروضات المتاجر متنهداً، بعد ان يئس من فرط ما تملق زبائنه بأوراق الحظ؛ ولا صبي المقهى الصغير، الذي يلبس مريولاً أزرق ويحمل على صينية ركوة يتصاعد منها البخار يتقدم بها الهوينى، حتى إذا ما وصل أمام واجهة للأواني الخزفية مليئة بكل تلك الفناجين والصحون والتحف الأثيرة إلى قلب أمي، والتي كنت أود أن اشتريها لها لو أني أملك مالاً، وقف يتفرج مشدوهاً، سارقاً هكذا بضع دقائق من رب عمل ظالم، مموّهاً عن فكره، ناسياً همومه ومتاعب هذه المهنة الشاقة التي اضطرته ظروف الحياة القاسية إلى ممارستها، وهو بعد في هذه السن اليافعة، غير

آبه إذا ما بلغ مرماه وقد أصبحت القهوة باردة. الأسياد لا يشفقون عليه فلماذا يرحمهم. إنهم بلا ضمير معه فلماذا ينصفهم؟ وفيما أنا منزرع في ظل هذه العمارة الشاهقة، شارداً هكذا مع خواطري إذا بي ألمح موظفاً في الطابق الثاني يضع ملفاً على الرف، يرتب الأختام المبعثرة على مكتبه، ويرنو إليّ بدهشة راسماً بيديه إشارة تعني: غريب أمر الناس. ماذا يفعل هذا الصعلوك هنا. منذ مدة وهو يروح ويجيء ويدور حول البناية. حقاً أن الجنون فنون. كما ان عتالين شابين يتداعبان على مدخل هذا الصرح العملاق، ويتربعان أمام مدخله، وكأنهما على عتبة بيتهما، يسألاني عندما يرياني أحوم حول هذه الأسوار أبحث في العناوين الموضوعة على الشرفات عن بارقة أمل، أروح وأجيء حائراً مبلبلاً ضائعاً، وازعجهما بنظراتي المتطفلة:

ـ «عن أي مكتب تفتش؟!...»

وإذ يرمقاني بارتياب، وكأني جاسوس خطر أو عضو منظمة تخريبية يهمُّ بنسف هذا المعقل الحصين، أنأى بخطواتي عنهما، منتقلاً إلى قرب محل كبير يشيِّع صاحبه إحدى عاملاته الشابات، التي تلبس سترتها، تلقي جزدانها على كتفها، وتخرج من قاعدته، آمراً إياها:

ـ «لا تتعوَّقي بالحضور صباح الغد، إن الله أراد، لا تتأخري بالسهرة».

فتجيبه البائعة المراهقة:

ـ «لا، عندي سهرة طويلة الليلة، ومع هذا أرجع إلى الشغل قبل الضوء.»

وتعبر إلى الجهة الأخرى من الشارع، حيث تستوقف سيارة أجرة، تصعد فيها مرخية في مقعدها الخلفي جسدها المحطم، وتتنهد ماضية نحو واحة الراحة التي تأخذ في ظلها هدنة قصيرة، قبل ان تستأنف في اليوم التالي حربها في ترسانة الملبوسات هذه، التي تبقى داخلها كل النهار واقفة على بطة رجليها، تتحمل غلاظة الزبائن، وشراسة ونزوات رب العمل، الذي يسأل أحد مأجوريه زميله القابع على العتبة:

ـ «... من كم سنة دخلت المصلحة؟»

فيجيبه هذا الأخير:

ـ «من عشر سنين.»

ـ «صار يحق لك اذن بتعطيل عشرين يوم وبأسبوع فرصة زواج. وصار يحق لك، إذا تركت الشغل بتعويض كامل تقدر ان تفتح به مصلحة لحسابك الخاص وتعيش حياة حرة مستقلة».

عندما يتخايل طيفي على واجهة هذا المتجر أحنّ إلى مغسلة بيتنا أو مرآة حلاّق القرية، التي تعكس عني صورة جميلة. لا لست قبيحاً إلى هذه الدرجة، فحالما أرجع إلى «وادي المروج» استعيد عياقتي المفقودة، يصبح لوجهي معنى، ويكفّ هزالي عن اثارة الاستغراب، كما يحصل لي الآن لدى تحسس زندي الكليل. هناك التقي بمراد الحاصبيني عند المزيّن فؤاد حوا فأقبل به، كما يرضى هو بي. لا أراه نحيلاً كما يتغاضى هو عن ضعفي لأننا اعتدنا على بعضنا.

الغلاء يستفحل أمره يوماً بعد يوم. هذا ما استنتجه من أسعار الملبوسات المعروضة في الواجهة. الذين يعملون تزداد أجورهم أو تتضاعف أرباحهم بنسبة ارتفاع تكاليف المعيشة. أما المتبطلون فكيف يمكنهم يا ترى ان يقاوموا هذه الموجة، ويكفلوا لنفسهم أسباب الاستمرار في البقاء؟ لا أعلم أكثر من ان ارنو عبر الزجاج إلى عاملة متربعة على الأرض قرب زميلها داخل هذا المتجر، الذي يغيّران له الديكور، واضعين على طبلية أمامهما بعض حبوب من الفستق ينقدان منها. قلوب شابة متآلفة تجمع بينها الصدفة، يوّحد مصيرها البؤس، وتغلّفها عاطفة جميلة تعزلها عن باقي سكان المدينة، فتفترش البلاط هنا ببساطة وعفوية ريفية.

ثم يقف زنجي بصحبة امرأته أمام بائع يحمل لوحاته الزيتية على ذراعه، ويشرع بعرضها واحدة وراء الأخرى على السائح الأسود، الذي يريد بأي ثمن أن يعود إلى بلاده بهدية ما من تلك السلع التافهة التي لا تكتسب قيمة إلا لكونها مشتراة من ديار الغربة، ويدخل شركة «بان أميركان» للسفريات الجوية، التي يخفرها دركي يروح يتمشى أمام مقرها، عندما يلاحظ ان ثمة عيناً تترصده وتنتبه إلى وجوده، كموظف خالي شغل يفلش أوراقه ويتظاهر بأنه منهمك في العمل

حالما يعي ان مديراً أو مفتشاً أو زبوناً عادياً يسلّط نظره عليه. إنه أقل حياة من صندوق القمامة هذا، أو عمود الكهرباء، أو حائط المبنى الذي يحرسه، والذي ابتعد عنه إلى حيث يقع نظري فجأة وسط هذا التصنع والزيف على مشهد حي آسر: لاصق إعلانات مهلهل الثياب يقف على حائط قرب سطل النشا، ممسكاً بيده فرشاة يمسح بها لافتة «أسبوعاً ثانياً بنجاح كبير» التي يتوّج بها دعاية فيلم سينمائي. هوذا واحد من تلك الطبائع الجامحة الأصيلة يمارس مهنة شاعرية لا تخضع لأي نظام أو قانون يعمل وحده عندما يعيِّد الجميع ويأخذ فرصته أثناء دوامهم الرسمي. يغفو عندما يفيقون، ويسهر عندما ينامون، وبهذا الأسلوب يخلق لنفسه حيِّزاً صغيراً خارج الحياة أتشوق اللجوء إلى مثله.

حينئذ اتسمر وسط المارة مأخوذاً، متمنياً ان أضيِّع هويتي، وأفقد كياني الشخصي بين هذه الحشود الغريبة. فأصبح امرأة تكتف يديها مستمعة إلى بائع يغريها بشراء غسالة ويشرح لها طريقة استعمالها، أو عجوز يعود إلى البيت بكيس مليء بالخبز، شاباً يعاكس فتاة، أو والداً يمسك بيده طفلته التي تحاول ان تقطع من فوق السلاسل لتعبر من رصيف إلى آخر. حبذا لو أتحوّل إلى أي من هؤلاء السابلة، كل شيء إلا ذاك العاطل عن العمل، القروي الضائع في المدينة الذي هو أنا. فلا يلتفت أحد إليّ، أو يهتم بأمري ليُشعرني أني موجود، مما يسهِّل علي عملية الذوبان الكلية التي أتوق إليها.

وها أنا أعبر رصيفاً من المحلات: راديوات، تلفزيونات، برادات، غسالات، مكانس كهربائية، آلات تسجيل، عدسات تصوير، ثريات، مزهريات، أواني خزفية، وردهة مصرف كبيرة تبدو موحشة بأعمدتها الرخامية وأرجائها المهجورة، وأرضيتها اللمّاعة التي تشطفها خادمة بماء الصابون. وفجأة وسط هذه الصحراء المادية يبرق أمامي سراب روحي: معرض للوحات الزيتية. فأرتاح لوصولي أخيراً ودون سابق ميعاد، أمام هذه الجزيرة السماوية المربوحة على حساب الأرض، حيث أحسني في بيتي، وأنسى للحظة غربتي.

«نادي خاص بهواة الموسيقى» إعلان أُفاجأ به على أحد أبواب بناية ضخمة أمر بها. فأهلل كثيراً لهذا الاكتشاف. هوذا في نهاية المطاف فلك يتيح لأعضائه النجاة من الأمور الدنيوية والنفعية التي تغرق العالم في طوفانها. أحاول التجسس

عليهم من خلال النوافذ، واقفاً على رؤوس أصابعي، متلصصاً على أسرارهم الداخلية دون جدوى. حتى لأكاد أنقر على الزجاج والكُوى الموصدة لأهيب بهم أن: افتحوا لي، خذوني معكم، اقبلوني واحداً من ركاب هذه السفينة الآمنة. أنا مثلكم عندي أهواء فنية، وميول سامية. لكن من يسمع صوتي أو يحفل بي وبنزعاتي المثالية ومشاعري النبيلة أو يدري بي: رهط من الشباب والصبايا يتجمعون داخل ثلاث سيارات منتظرة أمام بوابة هذه العمارة الأنيقة التي لا يكاد يخرج منها فتى حاملاً قيثارته حتى تنطلق القافلة نحو حفلة، أو نزهة، أو رحلة. لعلهم من عشاق العزف على الآلات الوترية يقصدون دارة أحد أصحابهم، حيث يُشبعون هوايتهم، ويستمتعون بالعشرة البريئة بين الجنسين. إنهم من أولئك المرفهين المحظوظين في الأرض، الذين هيأت لهم الظروف فرصة ذهبية لتنمية مواهبهم وتذوق بهجة العيش. ليتني فرد منهم أسافر قرب رفيقة تحبني، تفهم علي، وتقدّرني. ليتني أملك مؤهلات موسيقية تشجعني فتاة على إظهارها، وتؤمن برسالتي فنرتبط معاً بعلاقة غرام قوامها الاحترام والتقدير المتبادل. لسوف نجوب الآفاق سوية ونحضر معاً مهرجانات الرقص والغناء متحادثين عن أحلامنا وآمالنا. وذات مساء أثناء خلوة في ضوء القمر **سأضغط** على يدها، وأُعرب لها عن نيتي في الاقتران بها، فتكون خير شريكة لعمري، تساعدني في كفاحي، وتساندني في فترات اليأس إلى أن أحقق هدفي الذي آمنت هي به منذ اللحظة الأولى.

الآنسة المنشتلة وحدها عند المستديرة، هل تنتظر صديقاً؟ هل تنصب من شِراك أنوثتها كميناً لصرعى الجمال؟ انها تظل تروح وتجيء إلى أن يلمحها شابان يتنزهان في سيارتهما بحثاً عن صيد مغرٍ من نوعها. فيتوقفان أمامها، يترجل أحدهما، ويدخل في مساومة معها. لكنه عبثاً ما يدعوها إلى مرافقته. إنها تتمنع بغنج ودلال، سابلة شعرها، متغلغلة بأصابعها في غدائرها الطويلة المبعثرة. كلما ازداد الحاحاً كلما اشتدت هي تمنعاً. وكلما أمعنت في صدودها، كلما قويت رغبته فيها، بموجب المنطق العاطفي القاضي بالتعلق بالمحظور والتفريط بالمباح. حتى لتصبح عملية العرض والطلب وسواساً عنيداً: هو، وقد عزّ عليه ان يخرج مهزوماً، يصرّ على النضال حتى النصر، لا سيما وان الثمرة قد طابت في عينه بعد ان وجدها صعبة المنال. وهي، وقد عزمت على فرض كلمتها، تثابر على

المقاومة، كم بالحري وان الرفض صار يعني بالنسبة لها التغلب على ارادة غريبة. أما المرافق الآخر الذي ظل مرابطاً داخل السيارة فانه يرسل اضواءها الحمراء من المؤخرة بمثابة دعوة متواترة إلى هذه الصبية بالصعود للسفر نحو المتع الشائقة. إلى ان يقتنع المغامران بعدم جدوى المحاولة، فيتركان الطريدة لحالها وسط الغابة اغراءً مثيراً للصيادين. ترى هل انجح معها أنا حيث فشل غيري؟ هل تتنازل عن عزلتها من أجلي، فتفتح لي قلبها هذا المساء لأدخل الأنس إلى وحشته المظلمة؟ هذه الماسة المتوهجة بعيونها الوضاءة في الليل، كيف يمكن ان لا تشكل تحريضاً للصوص، وهي مطروحة هنا في الزاوية دون صاحب؟

وفيما أنا شارد مع خيالي يستوقفني بغتة على الرصيف تشحيط دواليب. فأتوهم ان هذه السيارة المسرعة إما انها تتفادى اصطداماً، وإما ان سائقها سكران أو مجنون. لكن عربة ثانية وثالثة من عربات السباق الفخمة تتبعها وتحذو حذوها. عندئذ أفهم معنى ابتسامة الهزء ونظرة الدهاء التي حدجني بها شاب يسير قربي على الناصية. انه يضحك لأن الخدعة انطلت علي، فالتفت إلى هذه الزمرة الهوجاء، ووقعت في الفخ الذي نصبته لي بضوضائها وانزلاقاتها وفرقعة صباباتها المفتعلة. وأدرك ان هؤلاء هم من أولاد الذوات الطائشين الذين يمرون كل يوم في مثل هذا الوقت، ويبعثون مثل هذه الضجة المغتصبة، ويقودون بمثل هذا التهور المصطنع، ليسترعوا انتباه المارة، الذين أرى بينهم حسناءمهندمة، ممشطة، طالية وجهها بالمساحيق تتطلع حواليها بسرور بحثاً عن الإعجاب. فاتذكر صبايا وادينا المتمشيات بعد غروب الشمس بقليل على درب منتزه «عين الغزلان»، حيث المشوار عادةً متأصلة تتم دائماً في نفس اللحظة من النهار، وعلى ضفاف النهر إياه، ونحو محجة لا تتغير. لكن سرعان ما أفطن إلى انه لا يوجد هنا تقليد متبع، أو طقوس معينة يستطيع المرء ممارستها، ليس بمقدور الإنسان هنا أن يحوز على حاجة تكون حقاً ملكاً له، أو ان يترك غرضاً على زاوية ما من الشارع، ثم يأتي في الغد ليجده مكانه. المدينة ليس لها ذاكرة. ما إن يبدأ فيها الصدى حتى يكون قد ابتلعه العدم. العودة فيها إلى نفس الموضع مرتين مستحيلة. لأن معالمها لا تعرفك، مبانيها لا تقر انها رأتك من قبل، وحيطانها لا تحتفظ بأي أثر منك.

عندما يخطر ببالي انه بامكاني انا أيضاً الرجوع إلى القرية، تتراءى لي قناني المشروبات، التي أثارت اشمئزازي من قبل، مقبولة، أليفة، مصفوفة إلى جانب بعضها بانسجام. هذا بالاضافة إلى أن هيئة المحلات الفخمة الزاهية النظيفة يعزّي أشد اليائسين، ويرفع من معنويات أحقر الصعاليك. بالاضافة إلى أن الجالسين في مقاهي الحمراء على الرصيف، حيث تعمر الطاولات بطلبات الاستهلاك، يتفرج شاغلوها ساهمين على فرق الاستعراض الزاحفة أمامهم، يبدون لي ممثلين متمترسين على خشبة مسرح بمواجهة جمهور يتفرسون في وجهه دون ان ينبسوا ببنت شفة، وكأنهم لا يتوّخون منه سوى التصفيق لهذه المهزلة الصامتة، والضحك على هذه الحفلة الايمائية البكماء، التي يحيونها مرضاة لخاطره. وبالاضافة إلى ان منظر هؤلاء الرواد يوحي بالاطمئنان، يعلن ان الحياة ليست معركة ضارية لتأمين الحاجات المادية، ويؤكد ان هناك فائضاً من الخيرات يسد جوع الجميع ويتيح للعالم ان يعيش في بحبوحة تامة. فلا خوف علي ولا ضير على أخوتي. الضروريات مؤمّنة طالما ان الناس يسعون إلى الترف والكماليات: رجل في الستين يجلس مع امرأته ممسكاً بيدٍ طوق كلب صغير يقعي عند أقدامه تحت الطاولة بجلده الشبيه بمعطف من الاستراكان الأسود. شاب يكاد، لولا ملامحه الشرقية، ان يتحول إلى رجل الماني بفضل حذائه وثيابه الأوروبية، وكأس البيرة الكبير الموضوع أمامه من نوع أكواب الجعة في بعض حانات بافاريا.

زئر نساء من رواد المقهى يبحلق في حسناء تمر أمامه على الناصية، يحدق في نهديها البارزين من خلال قميصها المشقوق قليلاً، ويجتذبها بعينيه وبالوضعية الاغوائية التي يتخذها وراء طاولته. لكن الفتاة الواجلة من باب المنتدى الخلفي في كامل أناقتها هي على موعد مع حبيبها في الداخل. إنها حيوان لذة جميل يندفع للاستمتاع بشبابه بكل أنانية، انها مهر صغير يخبّ نحو مباهج الجسد وشهوات الحس المثيرة للشفقة والقرف، حتى لأكاد أشم رائحة كريهة منبعثة من الغبار الذي يثيره وقع حوافره على الرصيف، حيث تصفّ سيارة سبور فخمة، تفتح بابها فتاة شقراء انيقة تودّع صديقها ابن الأكابر المتمركز خلف المقود بعويناته السوداء، وتمد ساقيها الجميلتين وتخرج بصعوبة مع كلب صغير تربطه بسير جلد تجره به على ضفة الطريق فيتقافز على الأرض يداعبه، يصفّر ويؤشر له بيديها

شابان يدشنان بهذا الأسلوب تحرّشها بصاحبته الفاتنة.

وفيما أنا واقف أمام باب مطعم أقرأ على زجاجه إعلان «الصحن اليومي: شرحات أرانب ـ دجاج محمر مع بطاطا.» إذا بي أرى شاباً ينهض عن طاولته ليحكي على الهاتف ما اسمع منه فقط: «نعم أنا رياض.» ثم يعود إلى مكانه ليتناول عشاءه وإلى جانبه رفيقه، وقبالته فتاتان أوروبيتان تأكلان بشهية. إنه سليل أسرة عريقة يهدر ثروة أبيه، يحذق فن الاستمتاع بمباهج الدنيا. وهو خفيف الدم تضحك صاحبتاه لكل نكتة يرميها، وترمقه من خلف المشرب بارميد حسناء تدخن سيجارتها وتنفث مجاتها في وجه زبون يجلس بازائها على مقعد هزّاز، وبعد ان ينتهي من تجرع كأسه تحمل زجاجة الويسكي وتعيدها إلى أعلى رف. وفيما هي تنزل تقع عينها، تحت قناني الكحول، على مرآة لا يسعها إلا ان تروح تتأمل نفسها فيها. تضع يديها على وركيها، وتسهمد المشد راسمة بأصابعها اشارة تعني: ان الشكل من تحت الزنار وما دون لا بأس به. ثم تسوّي صدريتها وتطمئن إلى ان القسم الفوقاني يبعث على الرضى هو أيضاً قبل ان تلامس شعرها وحاجبيها، وتتحسس أنفها ووجنتيها. ترى هل يقصدها الرجال ليشكوا لها همهم؟ هل هي مؤنسة من لا رفيق له؟ هل هي أم للأيتام واللقطاء؟ هل هي ينبوع عزاء للضائعين في متاهة هذه المدينة الكبيرة، حيث أهفو إلى فتاة ريفية الوجه واللسان تمرق أمامي علها تأخذني إلى القرية على أجنحة خدودها الحمراء.

اشتقت إلى صاحبي قهوتين متجاورتين من وادينا، يجلسان معاً في عتمة ردهة غير مضاءة بعد، يتحادثان ويتناجيان بانتظار حلول مساء لا يعلمان ما يخبئه لهما القدر فيه، معللين النفس برزق وفير لليلتهما، التي لم تأزف بعد، والتي هي ملأى بالوعود ككل علبة مختومة، ففي حين ينتهي النهار في تقويمنا نحن ها انه يبدأ بالنسبة لهما. اشتقت إلى معلم ينزوي في جوف مطعمه في مواسم الكساد، ملاعباً خادمة الورق. تعبت من هذه المتاهة حيث ينفذ إلي العدم من ثغرة أخرى هي انفصالي عن نفسي وسيرتي الماضية. فكل هذه الأيام التي عشتها حتى الآن تسقط فعلياً من عمري فوق هذه الأرصفة الغريبة. لقد كانت ملتصقة بي في القرية، التي كان تاريخي السابق مطبوعاً على دروبها وأزقتها، على مبانيها وبيوتها،

على وجوه أناسها وفي مناخها الذي يتوالى ويتغير ويعود هو إياه. أما هنا فأنا مقطوع عن كياني القديم كله، معزول عن أجزاء من ذاتي تناديني بألم، واقف وحدي على نقطة ضئيلة مترنحة فوق الهاوية، غير مرتبط بالكينونة إلا بخيط واهٍ تقطعه أقل نفحة هواء. الوجود هو ان أكون في حي «سيدة المعونة» أصغي إلى قرعات الجرس ودقات الساعة تتناهى من أعلى برج كنيستها، بينما تتسرب من شباك مدرستها هدهدات صوت المعلمة وهي تتلو فقرة من الأمثولة، وإذ يرددها التلاميذ الصغار من بعدها تنتقل إلى النبذة التالية، التي يرجّع صداها أيضاً رجال وأمهات المستقبل بحماس وفرح يذكرني بتلك البهجة الطفولية، التي كانت تنتابني بنسبة اقتراب لحظة الفرج مع الحصة الأخيرة، ودنو موعد الانصراف من الصف. لا حتى مدفوناً هناك في الوادي تحت حجر الكنيسة أظل أكثر وجوداً مما أنا هنا وسط الزحام، حيث لم افترق عن أهلي، عن أمي وأخوتي فقط بل انسلخت عن هويتي الشخصية أيضاً، عن ذلك الشاب الذي كان يرتدي معطفه، ويسير بمحاذاة نهر «الكرمة» العكر، قالباً قبة معطفه، متوجهاً نحو السينما في أمسية أحد ممطرة. هناك في موطني الجميل كل رائحة كتان تفوح من دكان عتيق تحيي تراث ولد صغير كان يهلل حبوراً في أوائل تشرين حين كانت أمه تقص له جهازه استعداداً لالحاقه بمدرسته الداخلية. هناك كل فتاة تلتفت نحو أمها في محل أقمشة وتناشدها بغنج ودلال: «تفرجي! تفرجي!» تعيد إلى بالي صور شقيقاتي البنات قبل ان يتزوجن حين كان المستقبل يمتد أمامهن صادقاً بالعهود، غنياً بالأمل. هناك لا تزال حالة البراءة، وعذرية العمر الأولى. لا يزال عالم ما قبل السقوط، ودنيا ما قبل الشروع بالحياة والتدنس برجاستها محفوظة بكاملها. هناك كل شربة ماء عن الحاووز أغنية ترّجع كل أصداء الأيام والليالي. صندوق سحري تفتحه يد حميمة فيفلت منه القمر والنجوم والصيدلية والسهرات الجنائزية قبل وفاة عمي الشاب وابنة خالتي الطفلة. مرآة تعكس لك على صفحة الجرن المتلألئة بأوراق الخس ونفايا الخضار المغسولة كل أطيافك الغابرة. فكم وكم من وجوه أهل الوادي مرت أمام هذه العدسة فتركت حتى بعد زوال أصحابها أثراً منها على البللورة العجيبة: صورة اللباد الذي يهوي على قش البرذعة بالمطرقة، أو ينهض ليفتل خيطاً يمتد من مسمار على بابه حتى آخر السوق. رسم الخياط كريم العرموني وهو يدرز بذلة على آلة الخياطة محدودباً،

مشغّلاً دواليبها برجليه. لوحة الصياد ديب الهندي وأمه العجوز المثوية الغافية في الرواقة، ينام كلب عند أقدامها في الفيء، وتظهر، من خلال باب مفتوح وراءها، غرف بيتها النظيفة. مشهد البيطار وهو يخلع النعلة من حافر بغلة أو حمار يتفرج عليه عند الظهيرة ولد صغير متجمعاً حوله في حلقة من أترابه الفضوليين، الذين أرى نفسي في كل فرد منهم، كما أعثر على ذاتي في كل صبي يعمل أول مناولة. وأجد والدي في كل رجل يشرب العرق خافياً القنينة تحت كرسٍ واطئة يقتعدها على عتبة دكان. فلو كان لي ان أحسد أحداً حقاً لما فكرت إلا بتلميذ حدث من قريتنا إبان العطلة المدرسية يتلصص من خلال شباك قبو الكنيسة على لا أدري أية أسرار وعجائب؛ أو يقضم بعض الفاكهة في محل بائع الخضار. لأن الفردوس الأرضي ليس له إلا زمان واحد: فصل الصيف، وعَمر محدد: الطفولة، ومكان بعينه: «وادي المروج».

يئست من رؤية المسؤولين الحكوميين وهم يعتذرون مني بشفقة مرددين: «لسنا بحاجة إلى موظفين حالياً. لكن ربما تغير الوضع بالمستقبل. إذا بقيت بلا شغل حتى السنة القادمة راجعنا» وترتسم ابتسامة الرفض الصفراوية على وجوههم، التي تصبح قاسية وعدائية، وكأني ارهابي يتملقونه خوف ان يلقي عليهم قنبلة. ويعلمون رغم ذلك انه لا يستطيع من موقعه المترجرج إلا ان يكرههم.

سئمت من هؤلاء المدراء الذين آخذهم على حين غرة وهم خارجون من مرحاض أو غرفة خلفية، حيث لا تنجح سكرتيرة ولا باب ولا حاجب في صدي عنهم، فيصرفوني بامتعاض وكأني ولد صغير يتحايدون جرح إحساسه، أو مجنون يدارونه لئلا يحكمه عارض يوّرطهم في مشاكل عويصة، أو مصاب بالطاعون يخشون أن ينقل إليهم عدوى الوباء. .

قرفت من مقابلة رجال الأعمال الجالسين بوجاهة خلف مكاتبهم، يدخنون السيجار محاطين بأعوانهم كرؤساء عصابات يؤجلون عدّ ما في يدهم من رزم الأوراق النقدية، لينذرنوني برأفة وفروغ صبر من يضطر إلى تكرار هذه اللازمة الآلية مئة مرة في اليوم: «ما عدنا أدخلنا أي موظفين جدد في هذه الأيام.» «تعرف تاجراً من أصحابك يلزمه موظف؟» «لا، نحن فيما يختص بنا

عندنا يد عاملة كافية يجوز أن يكون عند غيرنا مراكز شاغرة. لا أعرف.»

ضاق صدري من المؤسسات الرسمية التي أغادرها دائماً مجرجراً أذيال الخيبة، فاذا بي أكره عند الخروج كل الرؤوس والممرات ومظاهر الأبهة والوجاهة **التي أحببتها، وتفاءلت بها وتوسمت فيها خيراً عند الدخول. وإذا بالوجوه** التي تراءت لي أليفة صديقة وأنا مُقبل تتراءى لي عدائية غريبة وأنا مدبر مجهضاً كل الأحلام والمشاريع التي غذيتها في خيالي، مفاجئاً، إذا ما تلفت وراءي، سكرتيرة تضحك عليّ مع رفيقتها، هي التي حلمت وأنا الج المقر أن اشترك معها في مغامرة غرامية.

زهقت من كثرة الانصراف مرفوضاً مطأطىء الرأس من مكتب يتفادى موظفوه، عن حشمة ومراعاة للكرامة الانسانية، احراجي، فيديرون رأسهم وكأنهم ما رأوني قط، أو ليسوا على علم بما جئت من أجله، أنا المطرود من هذا البيت الآمن الذي لا يقدّرون هم امتياز الجلوس فيه. ولقد يشفق بعضهم عليّ أحياناً فيقدمون لي كرسياً معربين عن كل نية صادقة في اغاثتي وانتشالي من غرقي، كاتبين لي على قصاصة ورق عنوان شركة ما، في بناية معينة، في شارع محدد، وفي عهدة شخص بالذات يوصوني مواجهته عله يساعدني. لكن لم يعد عندي جَلَد على ملاحقة وهم جديد، والانتظار على الأبواب وعتبات البنايات مجيء رئيس كسول، أو مدير متأخر، أو رب عمل متخلف عن مواعيده.

تعبت من حمل صليبي والاتجاه من جلجلة إلى أخرى على هُدي الأرمات المزروعة على زوايا تلك الممرات العابسة المعتمة.

نفد صبري من تسلق الأدراج ونزول السلالم متلصصاً من شقوق الأبواب نصف المفتوحة على بارقة أمل فيرفع نظره الشامت نحوي مأمور مجتهد مكبّ على الأوراق المنثورة على طاولته، ويرتاب بأمري البوّابون وعمال المصاعد والحجّاب، واتعثر من شدة ارتباكي وعماء قلبي وأنا أتوجه نحو مكتب مدير لأعرض عليه قضيتي، دون ان يكون عندي أدنى حظ بالنجاح.

لا، لا، تبت عن ملاحقة السراب في هذه الصحراء القاحلة، ولن أعود إلى مطاردة أوهام جديدة.

- «برج! برج!»

بهذا النداء استوقف سيارة أجرة أنيقة، فيحدجني سائقها بنظرة الشماتة والحقد، مشيراً بيده إلى فخامة عربته:

- «أهذه من التاكسيات التي تشتغل على خط «البرج» يا فهيم؟!...»

ـ «الله أكبر! الله أكبر! حيى على الصلاة. . . أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. . . »

لا أحد يلتفت إلى هذا الدعاء. المارة يمضون في طريقهم وكأنهم لا يسمعونه، والسيارات تنطلق في شتى الاتجاهات غافلة عنه. لكني أقف على الرصيف باحثاً عن مصدر هذا الصوت الصارخ في البرية، متطلعاً إلى المئذنة الخاشعة المشعة بالأنوار الخافتة، مرتاحاً لاهتدائي إلى جزيرة من الهدوء وسط هذا الخضم المضطرب، وواحة للروح في مهامه هذه الصحراء المادية. لكأن هذا النداء يناشدني إلقاء السلاح والاخلاد إلى الراحة. فسواء انهزمت أم انتصرت هذا أوان إخلاء ساحة الوغى والركون إلى السلام. وسواء كنت من الفاشلين أو الناجحين هذا ميعاد المساواة بين البشر، والأمل للجميع. أن المسجد الساكن، بتواضع مظهره، وتنزهه عن ادران العصر وبهرج المدنية الكاذب، هو غريب في غمرة هذا العالم الصاخب تماماً مثلي أنا، ومثل قريتي، **التي يحثني على** الرجوع نحوها دون إبطاء، ومغادرة هذا الرصيف الذي تتزاحم عليه حشود بشرية كبيرة لعلها مما تلفظه صالات السينما المشعة بأضواء اعلانتها الحمراء الدائرة على نفسها دون انقطاع، والمواصلة قيأها على دفعات متتالية ستظل تتلاحق هكذا لمدة طويلة أيضاً.

امرأة عجوز تتقدم بمعطف رقيق أسود، ومشلح أبيض تقمطه على رأسها، وحقيبة جلد تحملها في يدها، من شاب ينتظر وفتاته على موقف الباص، وتعرض عليه ورقة بلهجة شبه باكية:

ـ «دلوني وقالوا لي: قرب محل حلويات. »

فيقرأ لها العنوان مبدياً كل نخوة ومروءة:

- «نعم بناية معماري ساحة الدباس.»

ويشير لها بأصبعه أن تمشي نحو هدفها. فتدير ظهرها المحدودب، وتغتصب ابتسامة شكر صفراوية، معتذرة بيأس:

- «كتبوا لي هذه الورقة لئلا أضيع.»

سامحيني يا جدتي المسكينة، ولا تتوقعي مني تعاطفاً أو مساعدة. اني صعلوك أضعف من أن أحمل خطاك المتثاقلة. إني لا أملك لأجلك سوى بعض العطايا الوهمية. لكن حتى الأحلام تختنق في هذا الهواء الموبوء: بعد قليل يصل ضيف الليل، ويقرع الباب المجهول، فيفتحون له، ويستقبلونه في دنياهم الغريبة، ويتجمع حوله الأطفال مدهوشين لزيارته المثيرة، متسقطين أخبار رحلته، التي تنقلهم إلى الأجواء العجيبة التي وفد منها. لا، لا، هذه كلها الآن خيالات مجهضة لا يأخذ مفعولها عليَّ أمام سطوة الواقع، الذي يمنح هذه الشخصية المبهمة هويتها الصحيحة: انسانة مقطوعة مكسورة الجناح تنزل في بيوت أقاربها عالة غير مرغوب فيها.

ربما استطاع العاشقان، المرتاحان إلى وجودهما هنا، ان يمدا لها يد العون. أما أنا فلا. انهما في عنفوان الصبا والعافية قادران على الحب مشغوفان بالحياة. الشاب يطوِّق خصر الفتاة، ويغرق في عينيها والهاً، وهي تصبو إليه ذائبة من حنان، ملقية رأسها على كتفه. لقد ارتدت ثيابها خصيصاً للقائه، انتظرته على الموعد، وخرجت عندما صفّر لها. إنهما يتوجهان إلى السينما. إنهما محظوظان أوجدا لنفسهما مخدراً ضد كابوس المدينة، وعلاجاً من مرضها الوبيل. فعبثاً ما تهبّ عليهما رياحها السامة، انهما غائبان عن زحمتها وضوضائها يملكان وسيلة للهرب من همومها، والخروج من محيطها المعقد.

- «الله يخليك أعطني عشرة قروش!»

تتوسل إلي شحاذة عجوز تتلها زميلتها بيدها. وعندما البي طلبها تدعو لي:

ـ «الله يوفقك! الله يحميك!»

وكأن وظيفتها الوحيدة استدرار الشفقة، ثم ارسال الشكر، عندما ينجح الفخ الذي اقامته رفيقتها منها.

رجل يدخن غليونه، ومتسوِّلة مطروحة على الرصيف حاضنة طفلها، شاخصة الى امرأة مثقلة بالأغراض تمسك بيد ابنتها، التي تتأبط ثلاث هدايا خاصة بها، وتسحب بدورها اختها الصغيرة المكتفية بكيس واحد.

هناك ازدحام قوي في محل السكاكر والحلويات، الذي لا يعود يتسع مجاله لفتاتين مزودتين بالوسقة الأولى، تنتظران على العتبة انتهاء امهاتهن من اختيار القطع والاشارةنحوها بالأصابع، فينتقيها الباعة بالملاقط، ويصفّونها في العلب، التي يتوجهون بها إلى كرسي المحاسب، الذي تتراكم تحته تلال من الأوراق المهملة لا يملك أحد الوقت لتنظيفها. وتحسباً لهذه الهجمة المحمومة وضع أصحاب المتجر الملبس مسبقاً في أكياس، يحصل عليها الزبون بواسطة بطاقات دفع يقطعها عن الصندوق الطافح بالنقود. وبين لحظة وأخرى يأتي مستخدم حاملاً على ظهره قفة ملآنة، يسكب محتواها في الواجهة، التي لا تكاد تتعبأ حتى تفرغ من جديد.

ـ «اعطوني حق رغيف خبز بركة للعيد. الله يعيده عليكم وعلى أولادكم!»

بهذا تستصرخ شحاذة ترفع طفلاً مفجوج الرأس الخارجين من باب المحل الذي تمترست عليه. فلا يلتفت إليها سوى بضعة أولاد أفلتوا من قبضة أهلهم، الذين يتبضعون في الداخل، وراحوا يدورون حول الواجهات واضعين أنوفهم على الزجاج، مستعرضين بأمل السلع الشهية التي يحلمون ان تكون من نصيبهم في البيت، والتي يتطلع إليها مراهق محروم متلمظاً، مدمدماً، صارفاً بأسنانه، حاقداً على الشراة المتململين كوكر من النحل، والباعة المضطربين من كل جانب يغرف أحدهم ويملأ الأكياس، التي يقيِّد آخر السعر على قفاها، ويدل الزبون على مكان الدفع، حيث تعتلي فتاة منبراً عالياً متمركزة أمام آلة حاسبة.

ـ «الليلة تظل أبواب المحل مفتوحة إلى الصبح، ويستمر الشغل ليل نهار.»

يعلّق عابر سبيل يتأبط ذراع رفيقه المندهش لهذه الزحمة العظيمة في أرجاء المتجر.

سقى الله أيام كنا نستقيظ على نداءات المعلم شعيا الصبّان «ما كل طعمة حلوة عسل يا جماعة!...» «يا مسترخص اللحم عند المرقة تندم!...» وبالفعل ان آية من صنع هذا الحرفي الماهر هي تحفة فنية لا **تُضاهى**، لأنه لم يكن يعمل لمجرد الكسب المادي، بل لانتاج روائع تثير دهشة الناس وإعجابهم. أذكره وهو جالس بشرواله الرمادي، يدير برميلاً صغيراً محاطاً بالثلج من أربع جهات، كان يبدع فيه تركيبة من بوظة بحليب لا تُنسى، كانت تنفد قبل العاشرة صباحاً. فكان يتفرغ بعد الظهر لتحضير تحفته الثانية: البوظة بلب اللوز والفستق الحلبي. اذكر كيف كان يغسل الأواني بنظافة فائقة، ثم كان يقرفص على الأرض، ويروح بمنشار صغير يفتت الثلج من اللوح بيده، ويمسك بالأخرى فوهة الكباية، التي لم تكن تمتلىء إلى منتصفها بالنثار الهفهاف، حتى كان ينهض، يسكب منها ليموناضة طيبة، يرشها بماء الورد، ويقدمها للشارب المحظوظ الجالس في دكانه القديم أمام رخامة طاولة صغيرة، وبين صور مثيرة للأحلام العجيبة معلّقة على الجدران. لا سيما تلك التي تمثل امرأة بارعة الحسن محاطة بخادمة **تهوّي** فوق رأسها بالمروحة، وأخرى ترفع أمام وجهها المرآة، وثالثة تسفح عند أقدامها قارورة الطيب. في طفولتي كنت اعتقد ان هذه اللوحة هي رسم لزوجة المعلم شعيا، التي كنت اسمع انها ساحرة الجمال حتى لقد بلغ من غيرته عليها، انه كان يحظّر عليها الخروج من البيت أو الظهور أمام الناس. لقد كانت تسكن في الطابق الواقع فوق الدكان الذي كانت تستطيع ان تطل عليه من طاقة عليّتها الحافلة بالأسرار. في الشتاء كان المعلم شعيا ينصرف إلى صنع القطائف. وان المرفع بدون حلوياته يفقد نكهة العيد. طوبى للذين عاصروا حياته المهنية المجيدة، وأعطي لهم ان يعرفوا لذة الجلوس في واحته، كشاويش البلدية السعيد، الذي اعتاد ان يرتاح عنده في هدنة من جولاته اليومية. أما أصحاب الدكاكين من أبناء هذه الحقبة التاريخية الميمونة، الذين كانوا يشاهدون عند العصر صحون البوظة الملفوفة بورقة تروح وتجيء نحو البيوت على الصواني النحاسية، فلقد **انسلبوا أياماً** جميلة من عمرهم. لقد تألمت عندما وجدت **قهوة** المعلم شعيا، وقد تحوّلت إلى مستودع ملحق بمحل السمّان **مليء بفيض** من

المعلبات ترمقني بعيون أجنبية.

أتركوا لنا بيوتنا القديمة في «وادي المروج»، لا تستبدلوها بهذه المباني الحديثة الخالية من الروح. لا تمسوا حيطان الطين، ولا سطوح القرميد القابعة وحدها عند المنحنى قرب شجرة هرمة من عمرها، ترود فوقها أطياف غيوم اليفة. لا تدعوا أياً من المعالم العتيقة يزول ليبرز مكانه أثر جديد هو نسخة طبق الأصل عن الألوف غيره من هذه الصور الغريبة، التي لا تحمل لي أية ذكرى، لا تُرّجع لي أي صدى، لا تستوقفني لتحدثني كصديق وفيّ لم اسمع صوته منذ مدة بعيدة، أو كمهاجر يظهر على التلة المشرفة على قريته بعد غيبة طويلة.

حبذا لو تعود الأمور إلى سابق عهدها: الخبّازية، والكبك، وقبو المؤونة، والخوابىء العميقة الملآنة بالدامـا والباذنجان واللفت والزيتون والكبيس، والتنور، والموقد العازف في ليالي الشتاء الحانة المهمدرة، المزمجرة، المشرقطة، المفرقعة، بدل حدائد التدفئة المركزية العديمة الحس؛ وصبيان الخبّاز الذين يضطربون، عشية عيد، مرحين، ويتقافزون متمازحين، أحدهم يلقي القربانة أمام رفيقه، الذي يطبع عليها ختماً من الخشب، ثم يرسلها نحو المعلم قبلان، الذي يمسح وجهها بالقطر، بدل العمال الواجمين الذين اتفرج عليهم الآن من خلفية هذا الفرن وهم يعجنون بلا مبالاة.

إنها خاتمة النهار، التي تشع فيها أول الأضواء من الشبابيك والشرفات، وتتلألأ الأنوار في الأندية والمقاهي. إنها فاتحة المساء، التي يدخل فيها المسافر الغريب إلى المطعم للعشاء، ثم يصعد وحيداً إلى غرفة ما لينام، ربما في هذا الفندق المنشور على حبلته ملابس داخلية غسلها أحد النزلاء المقطوعين، الذين لا يوجد من يعتني بأمورهم وينظف ثيابهم. أحب أن أتأمل الطاهي، وهو يرتب شراشف الطاولات، وأتصورني سائحاً مجهولاً يؤم هذه الردهة الحميمة، يتناول وجبته، ثم يلتحق بباخرته، أو ينطلق للمغامرة في الملاهي وعلب الليل.

هـوذا المكان الملائم للتحول إلى أين شخص كان، والتحرر من التعريفات، التي يصنفني أبناء القرية ضمنها، والصيغ الجاهزة التي تتبادر إلى ذهنهم أول ما يلمحوني، والإطارات الجامدة التي لا يسمحون لي منها فكاكاً. هنا استطيع أن أبدع نفسي من جديد دون أي اعتراض أو ممانعة خارجية. فأقف

على سجادة الرصيف المتحركة، وأعبر مع المارة غير منظور من أحد، وهناك من يدري ربما ارتبط قدري مع هذه الفتاة الطافرة بصدر ناهد.هو من مقومات الخصوبة والغنى ومن دلائل الاكتناز والتنوع الموجودة في هذه المدينة دونما حساب. سأمضي مع هذه الحورية نحو حياة مجهولة، متغلغلاً، ضائعاً، متخفياً بين رؤوس القطيع، مقتدياً بشاب أمامي يخاصر صديقته التي تلقي ذراعها على كتفه، فيقبل لها زندها ثم وجهها.

وعندما يلتفت نحوي يبتسم وكأنه يعني: هذا واحد آخر من أهل القرى يتفرسني مستهجناً هذه المداعبات العلنية، التي أصبحت شائعة مألوفة عندنا منذ زمن طويل. فهل تغيرت العادات والتقاليد إلى هذا الحد أثناء غيبتي عن العاصمة؟ هنيئاً للحبيبين الملتجئين إلى ملهى أو مطعم أو سينما، الراتعين في جنة الهوى دون رقيب.

لقد وافت اللحظة التي تصبح فيها رائحة القهوة المرة والتنباك العجمي مشمومة على الرصيف، وطرطقة أحجار ونرد الطاولة مسموعة رغم ضجة الشارع، وتغدو فيها المقاهي المكتظة العابقة بدخان السجائر والنراجيل أشبه بحمّامات عمومية غارقة في البخار؛ وتنتظر فيها بدء العمل صاحبة مشرب، هي غانية متقاعدة تجلس مع رجل يلاعبها الورق، هو حاميها، راعي شؤونها، والمتعيّش منها. إنها الفترة من اليوم التي تعود فيها بائعة هوى حاملة كيساً بيد، شابكة يدها الأخرى بحنان في أصابع صديق شاب لعلها التقته في إحدى لياليها الحمراء، فعثرت فيه على الشخص القادر على اشباع حاجتها إلى العطف الإنساني، وتفهم وضعها، على مغفرة خطيئتها، ومعاملتها كمخلوقة بشرية لا كامرأة ساقطة. ها هي تقف على عتبة متجرها دامعة العين، كاسفة الخاطر، كتلميذ داخلي على بوابة المدرسة، يودّع رفيقه الصغير، بعد ان أمضيا معاً فرصة سعيدة، يشير لها زبون عسكري ان تصعد الدرج أمامه فتمتثل لمشيئته على مضض، فكأنه ناظر يقتادها إلى الصف أو سجّان يجرها إلى الزنزانة، بعد ان منحتها السلطة اذناً قصيراً لمقابلة أهلها. وإنها لتهفو وراءها بحسرة إلى الضفة الأخرى، حيث الطهارة والبراءة التي أنسلخت عنها مرغمة، وحيث يقف القلب الأليف، الذي ترتاح إلى قربه، والأخ الوحيد المتبقي لها في هذا العالم العدائي.

لقد أزفت الساعة، التي تعجّ فيها الحانة بجماعات من البحارة تضيء بزاتهم البيضاء النظيفة في الليل؛ تتعلق قبعاتهم، المكتوب عليها اسم الباخرة التي يعملون على متنها، على المشاجب وأطراف الكراسي والطاولات؛ وتلتمع كؤوس الكحول التي يتجرعونها متحادثين. بعضهم يكتب رسالة إلى أهله؛ بعضهم يرنو إلى الخارج بسرور وابتهاج؛ وبعضهم الآخر يصغي إلى الألحان والأغاني المحلية المنبعثة حوله من كل جهة، ويتطلع إلى إعلانات الأفلام العربية، مدهوشاً، مبتسماً بمزيج من سخرية وفرح، منتظراً بأمل وشوق ميعاد اللذة الذي بات وشيكاً، والذي طالما علل النفس به وهو يجوب البحار. تهتدي إلى هذا المنجم الخصب قرصانة سمراء تفوز من كنوزه الثمينة بجوهرتين تجرهما وراءها فخورة بغنيمتها، وبالوقع الطيب الذي ستلاقيه هذه الطلائع المباركة عند زميلاتها.

لقد آن الموعد الذي تتلألأ فيه أضواء النيون، وتأخذ الاعلانات تتوهج باشعاعاتها الكهربائية: مربّع حول واجهة السينما يلتف على نفسه كجنزير دبّابة سائرة تنطفىء لمبة فيه لتتألق التي تليها. دائرة كبيرة ترسل الشرارة الأولى فالثانية والثالثة إلى ان تكتمل بلونها الأحمر، وترتسم وسطها علبة «نيفيا»، ثم تهمد جمراتها لتعاود سيرتها السابقة مسفرة بشرقطاتها عن راديو «فيليبس»، أو قنينة بيرة، عن آلة تصوير «كوداك»، أو**دولاب «بردجستون»** الذي يبدو بإطاره المضاء تدريجياً أنه يسير بالفعل، أنوار حمراء، برتقالية، خضراء، زرقاء، صفراء ترسم حروف «الخطوط الجوية السويسرية» في الفضاء عن الميلين بينما تطبع بطاريات السيارات آثارها المجنونة على الأرض.

لقد حلّت الهنيهة العذبة التي تبعث في قلب القروي الغريب شهوة إلى المغامرة. فيخيل إليه حين يرى بحاراً أجنبياً واقفاً أمام بار، متطلعاً إلى اللافتات المشعة فوق كهوف اللذة، التي يترقب ان تفتح أبوابها، أن هناك تحت كل مصباح، وعند منعطف كل طريق، امرأة وضعتها العناية **والحظ** خصيصاً لاشباع رغبته. فها انه ينضاف عنصر جديد إلى نعمة أن يكون المرء مجهولاً وضائعاً وسط زحام المدن: الظلام الذي يخفي معالم الأشياء، ويدعو المحروم إلى اطلاق العنان لغرائزه المكبوتة دون خوف، يشجعه على ذلك ما يراه من تكالب الناس حواليه

على أماكن اللهو. فالملاهي، ودور السينما، والبارات تغص بالرواد. وعناوين الفنادق وشبابيكها المثيرة تناديه إلى تمضية ليلة يعرف فيها متعة ان يكون مقطوعاً عن بيئته وماضيه، زائغاً عن واقعه، عرضة للمصادفات والاحتمالات المغرية.

بائع جرائد يصرخ على المدخل، فالشأ أمامه المجلات الخلاعية، والمنشورات الاباحية. فهذه هي الدقيقة الحاسمة التي تضاء فيها الآرمات في شارع الشيطان: «ليلى الشامية» «عزيزة التركية» «دلال السمراء» «وداد الشقراء» باطاراتها الملونة المصنوعة على شكل قلوب أو نجمات. ويذرع متسكع الرصيف جيئة وذهاباً، واضعاً يديه في جيوبه، رافعاً بصره بنفاد صبر نحو الطوابق المعتمة بعد، متطلعاً بشبق إلى السلالم اللولبية المؤدية اليها. بينما تقف إحدى القِيان أمام البار، مدخنة سيجارة حشيش ينبعث دخانها في الشارع كمبخرة تعلن بدء القداس الأسود لهذا الليل، وتؤذن بفتح أبواب المقاصير، التي يتوق إليها رجال يجلسون على كراسٍ واطئة في زقاق محشور بين حائطين، يلعبون الورق، يمزمزون شرابهم، ينفثون مجات نراجيلهم، ويمنّون النفس بليلة حمراء تتأجج لها عيونهم المتلهفة في ومضات من الملعنة والشر كنظرات ذئاب جائعة.

ـ «هذه عظيمة!»

يهتف طالب مشيراً بأصبعه نحو زجاج الملهى المشع باللون الأحمر، حيث يدلك رجلٌ ساقَ مدبرة تتربع محاطة بفريقها المكوّن من أربع بنات واضعات رجلاً على رجل، مشمرات عن أفخاذهن، عالكات، مدخنات، ضاحكات، يتجمع جمهور على الرصيف يتفرج عليهن كما على واجهة مطعم. ويتألف في معظمه من الطبقة الكادحة، التي لا تملك امكانية التذوق الحسي والاستمتاع الفعلي، فتقف هنا يسيل لعابها لهذه المأكولات الشهية المباحة لها بالنظر فقط. الطالب يفتح الباب ويدس أنفه في الداخل فيغشى بصر فتيات الليل، اللواتي يجرح ضوء الشارع الفاضح عيونهن، فكأنهن كن نائمات أو متسربلات في عتمة مطبقة. يمازحهن المتطفل الشاب وهو يغلق فوهة القبو المثير وراءه معلناً:

ـ «اني افتش عن رفيقي.»

لقد حان الوقت، الذي تجلس فيه مديرة بانسيون على العتبة لاصطياد

رزقها، صابغةً شعرها الشائب بالأشقر، طالية وجهها بالمساحيق كرأس دمية. بينما لا يزال مقر تابعاتها في الطابق العلوي معتماً. مع ان الجناح المنافس لها يتربع فيه البنات المبكرات مع معلمتهن بقمصان النوم، يتحرشن بالمارة مداعبات. إحداهن وهي كناية عن كتلة ضخمة من اللحم خالية من الروح تتوسط الحلقة كتوجيهة الصحارة، وتدعو كل عابر سبيل يستلفته صدرها النافر المتدلي بأكثر من نصفه إلى الخارج، وأفخاذها العبلة المكشوفة:

ـ «تفضل!»

وتخاطب زبوناً حميماً يعتذر لاضطراره إلى تأجيل زيارته المعتادة قليلاً:

ـ «ارجع بسرعة، لا تتأخر!»

إنه الظرف المؤاتي لدخول ثلاثة من طلاب المتعة إلى أحد أوكارها، يتفرجون على البضاعة المعروضة فيه، فلا تعجبهم. عندئذ يخرجون ويقصدون بؤرة أخرى كعملاء يترددون على عدة محلات تجارية بحثاً عن سلعة معينة لم يوفقوا إليها بعد، على مرأى من النماذج المزروعة في الظلمة على جوانب الأزقة الضيقة، وعتبة قهوة شعبية مزدحمة بشاربي النراجيل من عتالة وعمال وكادحين وذوي أجسام صلبة معتادة على المشقات القوية، قادرة على المقاومة ومعاناة المحن تُقبل على هذه الحمأة الموبوءة دون خطر، وترتمي في هذا المستنقع الملوّث دون خوف. يتغلغل بينهم بضعة شباب من أصحاب الخبرة يعيشون بين الكواليس الخلفية في فترة الانتظار السعيدة، السابقة على اشباع الشهوة، ويتمهلون ريثما ينتهي الآخرون من المبتدئين والناشئين وعديمي الدربة من نيل **وطرهم، كي** يلعبوا هم دورهم الرئيسي، الذي يجيدون ادائه ببراعة فائقة تختتم حفلة هذا الليل بنجاح باهر. تتبوأ مركز الصدارة بينهم نديمة شاكلة في شعرها وردة حمراء اصطناعية، جالسة وحدها في هذه القهوة الفقيرة العابقة بدخان التبغ والتنباك، **الغاصّة** برجال يفيضون على مصطبتها الخارجية، حيث يمزمز شرابه مع أهل البلد مغترب يبدو ان غيبته الطويلة في اميركا لم تغيّر كثيراً في طباعه وعاداته. فالغرائز البهيمية تقضي على الفروق السطحية التي تقيمها الحضارة بين البشر. كيفما كان الحال يظل قعوده هنا نشازاً. إذ أن المفترض في مهاجر عائد، بحسب التقاليد اللبنانية الموروثة، ان يستظل سنديانة الكنيسة مثلاً، أو ان **يتشمّس في** ساحة

القرية.

إنها البرهة التي يقف فيها فلاح على الرصيف رافعاً نظره نحو النوافذ المضاءة بأنوار خافتة حمراءزرقاء صفراء خضراء كما لو ان كل واحدة تعكس لون فستان شاغلتها وشارتها المميزة، متأملاً وعود السعادة المنثورة أمامه بسخاء يجعله عاجزاً عن اتخاذ قرار، لأن أي اختيار يضطره إلى التخلي عن باقي الاحتمالات. وتُطل غادة على الشرفة الموضوع عليها طاولة للعب الورق وتعاطي الشراب، لتنادي بائعاً تحتها طالبة منه بعض الأغراض، يُلمح وراءها في الغرفة بصيص سيجارة زبونها، الذي يتمشى في الغرفة طولاً وعرضاً. بينما يضع شاب رجليه على درابزين جارتها متمدداً على الكرسي حافي القدمين. وهناك رجال على شرفة ثالثة هم من الرواد المداومين عند صاحبتها، يقامرون، يرشفون كأس لذتهم على مهل للاحتفاظ بجمرة شهواتهم متوقدة حتى أواخر الليل.

ـ «تعال لأقول لك!»

دعاء تقليدي ترددده متعهدة عجوز جالسة على كرسٍ واطئة في سرداب مظلم، مدخنة سيجارتها، منادية بصوتها الرجالي المبحوح شاباً يتخطاها دون اكتراث، متغاضية عن رجل يهبط درج بناية معتمة متهدماً متخاذلاً بعد ان هدر حصته من المتعة، وعلى سحنته المتباكية من آثار الخيبة والمرارة، بقدر ما على وجوه الذين لم يصعدوا بعد من بشائر الأمل وامارات الترقب اللذيذ.

بينما تخرج ربة عمل أخرى حاملة سراجاً، وتُبلغ المنتظرين دورهم على الرصيف ان الكهرباء معطلة عندها. فيتطوع شاب لتصليحها وكأن هؤلاء النساء المحرومات من الأزواج يجدن في كل عاشق عابر من جمهورهن الغفل الكبير رجلاً لحمايتهن ينسلخ برضاه عن حلقة ندمائه المتجمعين حول طاولة موضوعة وسط الشارع، عامرة بشتى أنواع المازات والمآكل والمشروبات، يتسامرون متطلعين بشبق ونشوة وانشراح إلى الشبابيك المضاءة، فبعد قليل موعدهم مع اللذة.

لقد سنحت الفرصة التي يضع فيها عامل يديه في جيوبه، ويقف منشدهاً أمام حورية ممددة على مقعد كاشفة عن أفخاذها في وضع مثير، يبتسم، ويجرش

ريقه بشهوة. لكنه لا يملك سوى متعة الصبابة المجانية التي يمنحها لنفسه بعد الفروغ من عمله، حين يروح يتجول هنا كما في معرض أو منتزه، حاسداً أربعة من الكادحين أمثاله ينتشرون على الكراسي داخل الدار، يتحادثون مع ربيباتها بمرح والفة، وكأنهم عائلة واحدة تنعم بعادات خاصة ومواعيد محددة في هذا المأوى الحميم، الذي يصعد درجة ماجن آخر، ويدق جرسه كأنه يطرق باب بيته.

هنا إن مررت في عتمة زقاق ضيق، انتفض قلبك بشدة لرياح المغامرة، التي تهوّم فوقك وتكاد تلامسك. هنا أصغر زفرة أو آهة، أقل همسة أو وقع أقدام صادرة عن حضور بشري وراءك، تصيبك برعشة قوية، وكأنك تلتقي أخيراً بطيف تلك الصدفة المجهولة التي طالما راودت أحلامك. هنا لا أحد يسأل عن مريضة تخطت الخمسين من العمر تسعل بشدة على عتبة محلها، حتى ولا زميلتها التي تنادي السارحين في منطقة نفوذها:

ـ «تفضلوا!»

فهذه المهنة التي تشوّه الأجسام، وتترك آثاراً بغيضة على الوجوه تحاول المساحيق اخفاءها دون طائل، تُخضع ضحاياها لتحولات مريعة. ملامح بعضهن تحاكي تقاطيع الرجال، وأصوات البعض الآخر خشنة مخنوقة نتيجة الادمان المفرط على الكحول والدخان. انهن أشبه بمسوخ عجيبة مفلوتة في بهو السيرك، أو أنواع غريبة معروضة في اقفاص حديقة الحيوانات، ومزروعة على حافة الممرات، حيث يحدق فيها المتفرجون بفضول وإثارة ممزوجة ببعض الخوف. حيث المح من خلال انفراجة باب سري أحد الوجوه، الذي عبثاً ما تسعى اليد، التي تطليه بالمساحيق، إلى ترميم ما حفرته الموبقات عليه من تجاعيد وأخاديد، فاذا به ينعكس على صفحة المرآة كما يتمرأى قصر مهدوم مهجور على سطح مستنقع. وحيث أشاهد سمراء عليلة يحتاج المرء إلى فترة تفكير لكي يتبين إن كانت ذكراً أو أنثى لفرط ما شوّهت الخطيئة ملامحها، ولشدة ما يشبه شعرها المقصوص تسريحة الغلام، جالسة على شرفتها مغندرة متأهبة للعمل، تصفّر لي وتدعوني أن أصعد إليها. ثم تكرر نداءها مراراً، فأشفق عليها لأنها تعتقدني مخدوعاً بها، غافلاً عما أصاب هيئتها من تلف، ولأنها لا تعرف أي مسخ مريع

صارت إليه بل لا تزال تعتبر نفسها امرأة طبيعية قابلة لاستثارة شهوة الرجل. عندئذ يقترب رهط من الشباب يتلفتون تارة إليها، وتارة إلي متضاحكين. وأخيراً يقفون في ظل مخدعها يسألها أحدهم عن التسعيرة، فتجيبه:

ـ «بعشر ليرات.»

فيعترض:

ـ «لا، بخمس ورقات، نحن كثار!...»

لكنها تصر على تعرفتها. فينبري لها نفر آخر من أعضاء هذه الزمرة:

ـ «نحط عشر ليرات أجرة يومين لننبسط لحظة صغيرة؟!...»

ويستفسرها فرد ثالث من الفريق:

ـ «بعشر ليرات كم ساعة؟»

فتضحك:

ـ «كم ساعة؟!... قل كم دقيقة.»

وعندما يطيل هؤلاء الفتية العابثون المكوث تحت أفريزها مبتسمين، مرسلين نظرات الصبابة، ملقين النكات البذيئة تتهددهم بأنها ستقذفهم بجردل ماء، فيتحداها أوقحهم:

ـ «ونحن نرش عليك ما هو العن!...»

بينما تستوقفني مخلوقة أخرى لابسة بنطلوناً رجالياً، ومعطفاً رثاً، وعاقدة مشلحاً حول رأسها، يستحيل على المار اكتشاف انها امرأة إلا بعد مجهود حقيقي. فهي تضع رجلاً على رجل، تدخن، وتكح على باب الخمارة. ثم تنهض وتروح تسعل بعنف يتشنج له كل جسمها. تبصق على زاوية الرصيف عدة مرات، لاوية جذعها كله، تنتصب من جديد، وتعود إلى الانحناء وكأن كل سعلة طلقة يدخل لها بوز المدفع برهة كي لا يلبث ان ينقذف إلى الخارج. بينما يتعالى الصخب والهرج والمرج داخل الحانة، حيث لا يعبأ أحد بهذه المسلولة التي تتلوى من الألم على العتبة. فلقد امتصوا رحيقها وحيويتها وطرحوها على قارعة

الطريق. إنها أشبه بضيفة تنعزل عن الحفلة، وتنسحب لتتقيأ في الحديقة، بينما بقية المدعوين في المقصف يأكلون ويشربون ويبتهجون بالعيد متنكرين لها، جاهلين ان مصيرهم قد لا يكون مختلفاً عنها في نهاية المطاف، وان عواقب التخمة والعربدة قد تكون وخيمة عليهم أيضاً بنفس الدرجة. إنهم لا يرعوون ولا يتخذون عظة وعبرة من هذه الضحية التي تلفظ أحشاءها نتيجة الافراط في تناول هذه الأطعمة الموبوءة والكحول السامة التي يتكالبون عليها، من هذه المسافرة التي أصابتها الدوخة فانزوت في مؤخرة الباخرة تتمزق من الوجع وحيدة أمام البحر، بينما الركاب يتبادلون الأنخاب في قاعة الاستقبال، يرقصون ويهزجون غافلين عنها. لكن هذه الخاطئة لا تتوب حتى وهي تتأود تحت زخم السعالات، حتى وهي ترى في جوف الخمارة العابقة بدخان السجائر والنراجيل زميلة لها تغرق رأسها بين يديها وتنام ملقية وجهها على الطاولة، كتلميذة معاقبة تبكي نادمة على الزلة التي استحقت من أجلها القصاص. بينما تتمخطر رفيقة ثالثة بجرأة وسط الحلبة، وتروح تهز ردفيها على أنغام أغنية شعبية صاخبة منبعثة من المذياع، فخالعة كل عِذار، صارخة بوقاحة على صوت عالٍ. إنها فحلة وبدينة تملك مناعة جسدية قوية جداً، وطاقة هائلة على مقاومة المرض الذي ينتظرها كتتويج طبيعي لحياة من كانت في مثل حرفتها.

ثم أتقدم إلى حيث المح، من خلف واجهة نزل يجتذب الكثير من المتفرجين، جارية ممدة على أريكة، وكأنها في حريم منطقة استوائية، كاشفة عن أفخاذها كلية، رافعة مرآة أمام وجهها، الذي تروح تدهنه بالأصباغ. وعلى الكنبة المجاورة بائع متجول، يقصد هؤلاء النسوة، اللواتي قد لا تسمح لهن ظروفهن بالتجول كثيراً بين المحلات، إلى عقر دارهن، ليعرض عليهن بعض مستحضرات التجميل والمساحيق والعطور، بعض الخلاخل والأساور والحلق. فاذا ما اقترب رهط من الشباب، وقد انبهروا عن بعيد بمنظر السيقان الاباحي، ارتدوا خائبين، مستنكرين أول ما يعاينون عن كثب هذه الدمية المزيفة التي انخدعوا بمظهرها البّراق من خلف زجاج الباب، حيث تقف قهرمانة وفي يدها قنينة فارغة، يقرفص التاجر النقال قربها، ويُطلع من كيسه، كما يسحب الحاوي الحيات من سلته، أو كما ينشل الساحر الأرانب من قبعته، خراريط صفراء زهرية زرقاء، تفلش عميلته بينها ولا تعجبها الألوان، فيستمر في استخراج ما في

جعبته، إلى ان تنتقي ما يرضي ذوقها، وتعده بابها ستدفع له في الغد، ثم تناشد الفضوليين المرابطين أمام عنبرها، المرسلين نكاتهم الماجنة:

- «من يريد ان ينبسط يتفضل. والبقية، من بعد أمركم، تسهلوا في حال سبيلكم!...»

في هذه الأثناء يأتي مراهق من ورائها، يقرفص تحت أقدامها، ويمد يده من تحت الفستان ليقرصها بين فخذيها ويهرب مقهقاً، بينما يضج النظارة على الرصيف بالضحك. فتدمع عين الفاجرة، وقد أهينت في صميم كرامتها، وتخاطب الشاب المازح:

- «عافاك!... عافاك... تعال لأعلّق لك وسام الاستحقاق على هذه الشغلة!... رُح يا ابني الله يستر عرضك...»

وتأخذ دور حواء مظلومة مقطوعة محرومة من بعل يحرسها، يحميها، ويصون شرفها. وتنذر جمهور المشاهدين بأن أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم قد يتعرضن لمثل الوصمة التي لحقت بها، وتطالبهم بضرورة مراعاة أصول الحشمة معها، لئلا يبتليهم الله بمن يجرح كبرياء حريمهم.

وفجأة تجتذبني فتاة صغيرة، تقطع عني، فاستدير وألحقها. وإذا تتلفت نحوي، اتظاهر بأني لا أطاردها، وبأني مشغول بزميلتين لها تطلان من الشباك: الأولى أم ترنو بحنان إلى ابنها الوحيد، وهو يغادر البيت، أو يعود إليه. والثانية عانس متبرجة تجلس وراء نافذتها بانتظار نصيب لم تعلّمها خيبات الأمل المتكررة ضرورة اسقاطه من حسابها. حتى إذا تمهلتْ هذه الغزالة الشاردة حولي، وضعتُ يدي في جيوبي بحثاً عن نقد وهمي ضائع، لتبرير وقفتي المريبة وسط الرصيف. لكنها تقترب مني كمتسولة، وتشخص إلي بعينين يختلط فيهما بؤس القرية بفسق المدينة. وان نظراتها لتكهربني في ظلمة هذا الليل، لدرجة اني لا أصدق، تحت تأثير اغرائها المغناطيسي، أن القضاء يتيح لي أخيراً كل هذه التسهيلات. فهي تملك كل السهام لتصيبني: سحر المرأة المجرِّبة، التي تدرّب الساذج الخجول على طريق الخطيئة، مستلمة دفة القيادة على مركب الشر، حيث يتكل البّحار الجاهل على خبرتها، ويلقي عليها كلّ مسؤولية الملاحة. وبذات

الوقت بساطة الطفلة، التي لا تخيف ظهيرها في حرب السيطرة والتفوق، التي تفترضها كل علاقة بين الجنسين.

وحقاً ان الجزدان الذي تحمله هو عدة شغل في يد هذه الناشئة التي بكرّت كثيراً في احتراف مهنتها، وعلامة أنوثة سابقة لأوانها عند هذه الخادمة الريفية، التي لطخت شمس الحقول السمراء بشرتها، وحفر الفقر والرذيلة تغاضينهما قبل الميعاد على وجهها، الذي بدأت بعض الحبوب وعلامات التفسخ والمرض والانحلال تدب إليه، الذي يحاكي ملامح اؤلئك الأقزام العجائب الذين تمتزج فيهم الشيخوخة بالطفولة، وتلك الثمار التي تذبل قبل نضوجها، والذي ترفعه نحوي ببراءة مفتعلة لتحييني. وإذ ألاَمس أطراف أصابعها يخيل إلي أني أصافح القدر. وحينئذ تمحو رغبتي عن محياها كل بشاعة، فيشرق خلال هالة من الضياء، ملغياً الوجود كلية، لكي لا يبقى إلا هو وحده مشعاً بنبراسه وسط الديجور، إلا هذه الابتسامة المتواضعة، التي تحرص على هدايتي في خضم هذه المتاهة، وخفقات قلبي الطاغية على كل الضجة الصاخبة في الخارج. إن زأرة صاحب القهوة لا تؤثر علي. فليس بمقدور أحد الآن ان يشدني إلى الوراء، ويحجمني عن هذه المغامرة. حتى ولا الحلاق، الذي يوجه لي بدأبه وانصرافه إلى عمله تقريعاً ولوماً. إذ انه يشقى ويثابربجد من أجل تأمين رزقه، في حين انزلق أنا بنزق سادراً في تيار اللهو والمتعة. انه يقف فوق رأس زبونه الجالس يقص شعره في عرض الطريق، حيث يتطلع بنشوة إلى سحنته في مرآة معلّقة على الحائط، كعريس يحلق قبل الدخول على حليلته العذراء، معللاً نفسه بسكرة العمر الوشيكة، يحيط به جماعة من أصحابه كرفاق العزوبية، الذين يلتفون حول زين الشباب في هذه اللحظة المصيرية الحاسمة، ليواكبوه معجبين بفتوته، عندما سوف يتقدم بعد قليل لفض بكارة عروسه.

لطالما حلمت بلقاءٍ غرامي مثير. ليس على هذه الصورة طبعاً، التي تكاد تحفزني إلى رفضه، لولا ان القبول به قد ترسخ في لا وعيي لدرجة انه يتعذر علي مقاومة اغرائه. فأفرح لأنه تحقق على أي شكل كان، كجائع يرضى بأية كسرة خبز تُرمى اليه. لا، يجب ان لا أتردد أو أجبن. إنها فرصة قد لا تتاح لي ثانية. وسيوبخني ضميري لو أنا فوّتتها. قد لا أكون في حالة مؤاتية. قد لا أكون في

ظرف ملائم. لكن ليس لي خيار. فكيف عساني اسفّه نفسي، وأخذلها الآن بعد ان وعدتها أمداً طويلاً بهذه المقابلة، التي إنما أوافق على اجرائها، فيما يبدو، غصباً عني، باسم هذا الكائن اللاشعوري، الذي غالباً ما غذى بها أوهامه، والذي يستصعب ركوب البحر حين يرى الشراع المنشور أمامه، والوداع المفروض عليه. لكنه لا يستطيع ان ينزع من فكره مشاريع السفر، التي تركها تترعرع في عقله الباطن منذ فترة بعيدة. لا، ما في اليد حيلة. هذا هو الكنز، الذي تمنيت بالحاح العثور عليه، ملقى أمامي. هذا هو باب المغارة، التي تشوقت كثيراً إلى رؤية خباياها، مشرّع في وجهي أخيراً عن جواهر مخيبة للأمل قليلاً. ورغم ذلك، ومهما كلف الأمر تمتد يدي نحوها غريزياً. نعم أعرف ما هي الصعاب التي قد تعترض انطلاقتي: قلة المال، حراجة الموقف، ضيق الوقت. فهل ادفع عني هذا الصحن الشهي؟ وكيف أصوم عن هذا الطعام الذي لازم سرابه عوارض جوع قديم؟ لا، اني في حلم يطلب إليّ ان اتصرف بوحي من منطقه الخاص. انتهى. لقد ركبت رأسي. لقد جمح بي المجذاف إلى حد فقدان السيطرة على قاربي، الذي يحمله الوحش على أمواج هوجاء، ويقوده نحو الهلاك، دون ان أبدي حراكاً. والملعونة تمثل مسرحية ايمائية مفادها: لست فاسدة. إنما أنا ضحية نذرت حياتها لمساعدة أهلها، والنضال من أجلهم. فهناك في البيت والدة حنونة ضعيفة، ووالد عاجز عن إعالة أسرته، وأفواه صغيرة، يرنون إليّ، ويباركون خطوتي، وينتظرون بشوق وفروغ صبر ان أقدم لهم المدد المحيي. إنهم يحبوني، ويعتمدون عليّ. إنهم يعلمون أين أنا في هذه اللحظة، وماذا أفعل. بل هم الذين دربوني على انتهاج هذا المسلك. فكما انك لم توفّق إلى عمل. كذلك كان الحال بالنسبة لأبي وأخوتي. ألا تقر معي أن ظروف العيش صعبة، وانه قد لا يتسنى للمرء دائماً كسب رغيفه بالسبل الشريفة. أتلومني إذا استهنت بكل المحاذير توفيراً للقوت اليومي؟... ثم تسألني:

- «أتروح معي؟»

فأجيبها آلياً بهذا الاقتراح، الذي حضرته مراراً في أحلام ليلي:

- «أمشي قدامي وأنا الحقك.»

عجباً انها تنفذ أوامري. الأمور تسير كما في الخيال، والمستحيل يصبح ممكناً.

ترى هل انعزلنا عن العالم، ولم يعد هناك إلا أنا وهي؟ الحيطان، الأزقة، البيوت القديمة تغدو إطاراً مسحوراً لمغامرتنا. حتى لأكاد أتوقف أحياناً من فرط اللهفة والشوق، المس رائدتي، وأعانقها هنا وسط الشارع، ضارباً لها موعداً على منحنى زقاق، أروح أحادثها في خلوته كما يناجي فارس متيم سيدته المعبودة، خائفاً ان تفضحه عين فضولية، وشاعراً، بذات الوقت، لفرط ما هو سكران بعاطفته، ان الناس لم يعد لهم وجود، ان القوانين بطل مفعولها، وان كل المناهل مباحة. المجال أمامي مسرح مهجور سُلطت عليه الأضواء، يدعوني أنا الممثل الرئيسي إلى الدخول للقيام بدور البطولة. فكأن المدينة قد تقلّصت حدودها، وانحصرت بكامل مساحتها في هذا الحيّز الضئيل. أين مقياس المسافة؟ بخطوة ها أنا أقطع الفراسخ. أين معيار الزمن؟ لقد توقف مختصراً ذاته إلى هنيهة مسحورة، يتكثف فيها القدر برمته. رفيقة الرحلة تسبقني أحياناً، تغيب عن نظري خلف غازية تصطحب أسيرها، ثم تتوقف فجأة لتصافح شاباً، لعله حليف سابق أو وسيط سري. وعندما تتأخر عملية الحوار وتشابك **الأيدي يستعجلها** الزبون النافد الصبر:

ـ «خلصينا يا ست!...»

فأخاف ان تتوارى تلك التي تحدو قافلتي إلى المورد العذب. لكني إذ أعود وأراها اطمئن إلى ان وعد السعادة لم يكن سراباً، بل ها هي الواحة الواقعية أمامي، أهفو اليها، انتقيها، أفرزها عن ألوف الأطياف، وأميز فستانها الأحمر وسترتها المقطعة من بين خليط الأقمشة والملابس. أعرف اني متهور، واني سأندم لأني لم أعمل بالنصيحة التي اقرؤها في عيني هذا المقامر، عندما سأخرج وأراه من جديد مقرفصاً على الأرض، يحترف لعبة الثلاث ورقات مع عابر سبيل فوق هذا البلاط الدنس، الذي هو بمثابة نقطة التقاء لكل الآفات، وبالوعة تترسب فيها كل أقذار الشوارع وأوساخ البشر، فأتحسر ساعتها على اللحظة الحاضرة، وكأني أبكي الفردوس المفقود وحالة ما قبل السقوط.

مرشدتي إلى وليمة الحظ تتمهل أحياناً، لكي لا تترك بيني وبينها كل هذا الفاصل، متلفتة إلي بابتسامة تعني: لا تخف. لن أهرب! وكأنها أم حنون تمد يدها إلى طفلها المتعثر خلف ظهرها، كي تنشله إلى بر الأمان، فيعبر معها من

فوق أحجار النهر إلى الضفة الأخرى. نعم إنها تتعهد لي بأنها لن تخلف بمواثيقها، وبأنها ستقطف لي كل ما اشتهيه من ثمار، حتى انها عندما تصعد درج المبنى القديم، الذي تقودني إليه، تسري رعشة النشوة المسكرة في أوصالي، فتكاد رجلاي ان تخذلاني تحت وطأة الانفعال. ويخدِّر التنميل مفاصلي شبيهاً بالكلال والارهاق الذي يعتري العدّاء في نهاية السباق.

إن النزل هو كناية عن ردهة ضيقة، ودار تحتوي على مكتب صغير عليه تلفون مزوَّد بعدَّاد نقدي، وحوله كنبايات عتيقة مرقعة باخت أغطيتها، وأرضية أمحى لون بلاطها، وحيطان غطتها سجاجيد رخيصة تنتثر فوقها صورة رئيس الجمهورية، ورسوم بعض رجال السياسة، ايقونة العذراء، وآرمة مكتوب عليها «شر ما في الانسان زلات اللسان» يجلس تحتها ثلاثة شبان من الكادحين، انتهى نهار عملهم، يرتاحون على مقاعد الانتظار ممشطين، مهندمين، مورّدي الوجوه، منفرجي الأسارير كزهور نضرة متفتحة على عتبة الفردوس، متضامنين فريقاً واحداً وشراكةروحية متينة على وشك القيام بانجاز مصيري، وطرق باب الوعود الخلابة، جميلين كعرسان تأخذهم موجة حنان وتعاطف تجاه بعضهم وتجاه الحياة، تضيق لها عيونهم برقة وعذوبة. وإذ تخرج إليهم إحدى النزيلات بقميص نوم قصير تحته بنطلون بيجامة ملاعبة ابنها، يروحون يتوددون إلى هذا الطفل، يخشخشون له بالمفاتيح، يربتون على كتفه، ينادونه، ويصفقون له. فيما تحرِّضه أمه ان يسبّ لهم. فلعلها تأمل أن يصبح هذا الصبي يوماً ما رجلاً قوياً يؤمن لها الحماية التي لم تعثر على من يوفرها لها لا عند الزوج ولا الوالد ولا الشقيق. هل هذا الولد جبلة خطيئة انقذف في إحدى ليالي المجون؟ أم لقيط تخلى عنه الجاني فاضطرت حاملة العار ان تسلك درب الضلال لتعيله؟ ها هي تجره وتخرج به متجاهلة إنذارات صاحبة الدار، التي تشير إلى مراهق بدين دخل غرفتها ليرابط فيها إلى ان تعود، فتتضايق منه، وتسأل معلمتها:

- «ماذا يريد مني؟»

فتضحك هذه الأخيرة مجيبة بتهكم:

- «ربما يقصد ان يتحدث معك لا أكثر ولا أقل!...»

فلعل هذا الزبون اليافع المتفتح حديثاً على دنيا الرذيلة يزعج الادارة بكثرة لجاجته. وها ضالته المنشودة توافيه بعد ان عهدت بصغيرها إلى إحدى الصديقات، كي تتمكن من الانصراف إلى شغلها بطلاقة، وبدء دوامها الليلي بحرية.

الباب ينغلق وراءنا أنا الفتاة، فأبادرها بخطاب طالما حضرته في خيالي، مع انه لا يتوافق مع المناسبة. قد أكون رسمته في ذهني **لأوجهه إلى عشيقة** أو امرأة متزوجة، تسللت إلى مخدعها، هامساً في اذنها بأني سأهرب أول ما يداهمنا رقيب من هذا المنفذ الخلفاني، لكني لكثرة ما هيأت عباراته الوهمية في **رأسي ها أنا أفوه** بها بطريقة شبه لا واعية. وها أنا أزيح بالفعل الطاولة التي تسد المعبر العتيد، فيما تتمتم هي بامتثال تام: نعم، نعم. حتى اني لأخاطبها **بالاسم** الاعتباطي الذي ابتدعته لها في شطحات البال، وأطوّق ذراعها كما تصورت دائماً. فلقد آن الوقت كي أفيض مخزون هذا الحنان الذي كنت أفجرّه في الهواء عندما يضيق به صدري. وحانت اللحظة التي أدعوها فيها بلطف إلى القعود قربي على الأريكة طالباً منها ان تحدثني عن أحوالها وأهلها وأسرار مأساتها الحميمة لأعزّيها. لكن للأسف كنت أتوقع أن تأتي قصة حياتها أكثر إثارة، وان أقوم بدور المؤاساة بشكل أقلّ بلادة من هذا الوضع الصامت الذاهل الذي تحجرت فيه من فرط التوتر والارتباك. أين أناشيد الغزل التي ترنمت بها في سري تكراراً؟ أين ألفاظ البوح التي نمقتها في خاطري مراراً؟ ما أقواني في الوحدة، وأخصبني في التخطيط، وما أضعفني الآن، وأفقرني في التنفيذ! لقد جاء أخيراً دور العناق، وجليستي وعاء من الفاكهة يقدم ما عنده للمدعوين باذعان متواضع، أو خطيبة منزوية على حافة المقعد خجولة لأن طالب يدها لا يهتم بها كثيراً، ولا يحيطها بكل الرعاية اللازمة، بل يماطل **ويؤجل** ميعاد الزواج كلما عرضته عليه. لكني لا أكاد التصق بها، أمسك معصمها، والثم خدها، حتى يكون الاضطراب قد أفقدني الحس بطعم القبلة، كضائع عن الوعي لا يشم أريج الوردة الموضوعة على أنفه. واتسنم ذروة النعيم دونما حاجة للتمادي مع حوائه الزائفة أكثر من ذلك. لا، لا يمكن للسكرة ان تنقضي بهذه السرعة فلا يعلق من مذاقها في الفم أثر. إلا انها الحقيقة التي لا سبيل إلى انكارها. لقد انتهت المسرحية بشكل مفاجىء وغير منتظر. فالمتعة هي دائماً أقصر بكثير من المدة التي نعطيها لها في

أحلامنا، ومن هنا اخفاقها في تحقيق أي منها. وهكذا اعرف مرارة الخيبة، قبل ان اتمتع من العسل إلا برائحته البعيدة. كيف عساني أقابل أهلي وأنا أحمل آثار الإثم والذل على وجهي؟ مساكين انهم يعتقدون اني دائب في السعي الرصين وراء مستقبلي، ولا يشكون أني يمكن ان انحط إلى هذا الدرك، وان أكون حالياً أمام هذا الباب، حيث تضع وصيفة فنجانين من القهوة تغطيهما بصحنيهما على طاولة، ربما بانتظار ان تخرج معلمتها برفقة زميلة أو زبون. انها من القبح وطيبة القلب بنوع انه لا يصح أدراجها مع المحترفات. لكن الظروف فرضت عليها ان تخدم في منازل الخلاعة، وتعيش في هذه الأوساط المشبوهة. فلقد خُلقت لهذا الدور: مربية مخلصة نقية السريرة تقوم في المغامرات الغرامية بوظيفة الرسول وكاتم الأسرار. عبدة سيدة حسناء، مرضعة ملكة عظيمة، محرومة هي شخصياً، لبشاعتها ووضاعة شأنها، من تذوق ثمار الحب، التي توفرها لسواها بتفان وسخاء.

وأخرج مجرجراً أذيال الشؤم والهوان، نادماً لأني وطأت هذا الشارع، الذي تدخله سيارة فخمة، فيركض **الدلّال** نحوها هاتفاً:

- «وصلت سيارة الزعيم! اعطني لأصفّها عنك! . . .»

ثم يوشوش سائقها لا يبتغي سوى مرضاته. لأن هذا الأخير يأتي لينال بهجته المنشودة في عربة معلمه، مستفيداً من وهجها البراق لإعلاء مقامه، مصداقاً لقول المثل «كلب الأمير أمير.» حينئذ ألاحظ ان هذه الآفة مثلما انها تترك آثارها المريعة على أجساد ضحاياها من الإناث، كهذه المرأة الخمسينية التي ضرب الأكال المزهر رجليها، وشوهت الحبوب وجهها، وهدَّ الإعياء كيانها. فانها كذلك تفتك بالمدمنين المسرفين في تعاطي فواكهها المسمومة من الذكور، كهذا الرجل المتهدم المعسكر في ظل الواحة الاصطناعية خلف اسكملة صغيرة يحتسي كأساً طافحاً بالعرق، وقد مال جذعه إلى جانب، وتدلى بوزه حتى الأرض. لكنه يبتسم بحنان وتستعيد خدوده الشاحبة بعض إحمرار، عندما يلمح شابة تتغاوى على الشرفة قبالته: انه يسترجع ربما ذكريات الصبا. وكأنه يقول للفتاة بعيونه التي تكاد تأكلها: لو صادفتك حين كنت في مقتبل العمر لكان لي معك شأن آخر. مع ذلك لا تعتبريني انتهيت، فجذوة الحب تستمر متقدة في

أعماقي لم تهمد كلية، ولا أزال محتفظاً ببقية من حيوية قد يحسدني عليها بعض شباب اليوم، ادعياء آخر زمان، الذين لا يقدّرون ما تقدمينه لهم من جمال، وما تغرينهم به من نشوة. لا تنخدعي بثيابي الرثة، فأنا انتمي إلى إحدى العيل الراقية، لكن ولعي بالجنس اللطيف انحدر بي إلى أسفل الطبقات، وحوّلني إلى شحاذ مخبول مثير للفزع مقطوع في بلد غريب نزح إليه ستراً للعار، اساء استعمال آلة جسده، وحمّلها فوق طاقتها، وها هي الآن مخرّبة معطلة على قارعة الطريق.

لو تمهلت قليلاً عند لفتة الشارع، أو توقفت لاشتري كعكة كما سبق وعنّ على بالي، إذن لكانت هذه العفريتة عبرت قبل وصولي فما قابلتها. ليتني ما أضعت وقتي في شارع الحمراء، وانصرفت رأساً إلى «وادي المروج»، أو ما جئت أصلاً إلى بيروت، التي نبهتني أمي من مزالقها، ولا نزلت في هذا المستنقع. لا، لم أعد أملك الآن أي رصيد أمل وأحلام. لقد سقطت من كل حقوقي وتطلعاتي القديمة، وفقدت براءتي، ومودة واحترام اؤلئك الأعزاء، الذين كانوا للأسف مخدوعين بي، والذين أحسدهم لأنهم لم يتدنسوا بهذه الرجاسة، التي تهون أمامها كل الوصمات. كنت أجمل. كنت منتفخاً ونفّست بما يتعذر علي معه ان أمشي بخيلاء كما كنت أراني في مرآة القرية. كنت أغني وها أنا قد أفرغت كيسي من قطع ذهبية نادرة، كبخيل جمّع كنزاً وكدسه خلال فترة طويلة، ثم فجأة هدر ثروته الثمينة دون ان يستمتع بها، أو يحسن استعمالها.

ـ «خلص أخذهم وراح. ما عاد يطلع بيدك ان تعملي معه أي شيء.»

يجيب قهوجي، يرتاح على الكرسي واضعاً يديه في جيبة مريوله الأبيض، الصديقة، التي تجلس أمام طاولة على حافة الرصيف، تشرب النارجيلة، وتشكي له همها.

فهؤلاء المطرودات خارج كل مأوى عائلي، يصبح بيتهن الطريق. وهؤلاء الساقطات من حساب الأهل يعثرن في أي عابر سبيل على الأب والأخ الذي يفرض عليهن حمايته، ويؤمن لهن دفء العشرة البشرية، وعزاء الرفقة المؤنسة، اللواتي هن في أمس الحاجة إليها.

عندما أقطع دهاليز هذا الشارع يخيل إليّ، رغم ضجة الجادة التي نفذت إليها، إني دخلت في منطقة من الهدوء والطهارة يتجوّل فيها أسراب من الملائكة. بعدتِ بعدتِ عني كثيراً يا «وادي المروج»، حيث لا يزال الفتيات محتفظات بخفر وعفاف العذارى، والشرف والحياء قانون، والناس أطفال أبرياء.

وعندما يغلّ نظري غصباً عني داخل محل لبيع التوابيت وأكاليل الزهر الجنائزية ينقبض صدري، وامتعض لرؤية الحانوتي الذي أنقم عليه لأنه يأكل، وينتابني حياله نفس القرف الذي كان يستحوذ علي أمام موائد الغذاء المبسوطة في المآتم، والمؤآجرين الداخلين إلى غرفة الطعام، بينما جثمان الفقيد مسجى في غرفة مجاورة. إني استكثر عليه حقه في المحافظة على بقائه، هو الذي اختار تجارة الموت مهنة له. وأتعجب للجرأة التي يتفرس بها وجوه المارة، وللوقاحة التي يمضغ بها لقمته، واثقاً انه يقدم خدمة نافعة للمجتمع، مقتنعاً بأهليته المطلقة لاستهلاك خيرات الحياة، وهدر طاقاتها، بما انه يدفع لها بمجهوده وتعبه ما يعوّض عليها كل عطاياها. لكن بعد أن أبلغ ذروة اليأس والكفر بالدنيا لدى مرور رجل مبثور الذراع أمام هذه الواجهات المشؤومة، إذا بي اختبر اشراقة جمالية لاكتشافي، تحت ضوء خافت، حلقةً من لاعبي الورق متجمعين بين التوابيت في مؤخرة المستودع، وتروح الصور الشعرية تتوارد إلى ذهني: انهم عصابة من اللصوص يتقاسمون الغنائم في قبو معتم متجاهلين نعش رفيقهم أو زعيمهم، الذي يرمون النرد على خشبه لتحديد حصصهم في الكنز المسروق عن طريق القرعة. انهم حراس جثمان يتلهون أثناء السهرة الجنائزية بمراهنات خطرة فوق المائدة الخضراء. انه مقامرون مدمنون ما استطاعوا مقاومة آفتهم، فتركوا تابوت أخ أو نسيب، واستسلموا لإغراءات الميسر، مرجئين إلى الغد أمر مواصلة الرحلة، ونقل رفات العزيز الراحل معهم إلى مثواه الأخير في وطنه الأصلي. انهم صيادون يرتاحون ويتسامرون في كوخ مهجور، يحتسون الخمر، ويتبارون بالشطرنج، ووراءهم جيفة أحد أصدقائهم المغطاة بالأكفان.

مجنون مقطوع يجلس في شبه حاووز محفور في الحائط على مدخل بناية ضخمة كأنه مصمود في واجهة وقابع في زاوية من بيته، وفيما يكلم نفسه، ويؤشر بيديه، أكاد أبكي. لقد نبذت الكائن الأصلي خارج ذاتي، وخنت عهودي معه.

كل رصيدي السابق سقط مني نهائياً، ومعه ماضي أمي وأخوتي. كل هذه الأيام التي انقضت من عمري ضاعت مني إلى الأبد. حتى ليُخيل إليّ اننا متنا جميعاً، لكني بقيت بصورة استثنائية لأشهد هذا الانقراض العائلي. أين بيتنا الذي ينام بهدوء عند أقدام ساعة الكنيسة، كهرة تتوقع تحت بندول متأرجح في صمت الدار، وتغفو على هدير وشرقطات المدفأة. أين أصوات التلاميذ تتعالى من ملاعب المدرسة؟ انها تتناهى إليّ الآن كقهقهات أشباح في المقابر. أين «سوق الخان» ببائعيه المرابطين على عتبات دكاكينهم، يرمقوني بعطف وكأني ضيف أليف يتجول في ممرات منزلهم الخاص؟ الأسم وحده «سوق الخان» تعويذة سحرية تتجاوب بين حنايا قلبي، حيث ينفتح لها أبواب سرية ينشق غبارها عن كل كنوز الطفولة الضائعة. هناك في «وادي المروج» حتى العذاب يرتدي طابع الرحمة. هناك فرح الانسان وألمه ملك له. هنيئاً لكم يا سكان الوادي. حتى أهل العانس المصابة بالسرطان، حتى أم الشاب الذي عاد من أميركا مريضاً ومات بين يديها. ثم ما لبثت بعد قليل ان فقدت ابنتها، التي وقعت عن السطح وهي تنشر الغسيل: انشلوني إلى قاربكم، خلصوني من هذا البحر الصاخب الذي أغرق في لججه. سامحوني، لا تعاملوني كغريب، ولا تلفظوني بقسوة. فأنا لا أزال من فصيلتكم.

أحبك يا «وادي المروج». تستهويني مبانيك: السراي، وكنيسة «سيدة المعونة»، السجن «ونزل الأمراء للمنامة». لي أنت يا معبدي. ساعتك تنبض مع خفقات قلبي، وخارطتك مرسومة بين حنايا أضلعي. أنت عشيقتي ولقد عقدت عليك قراناً لا فراق بعده ولا انفصام لعراه إلا بالموت. وحتى لو تواريت يبقى أثر مني على بيوتك الصغيرة. وطالما انت موجودة يظل لي حصة من الفرح ولا أفقد الأمل. فمهما افتقرت يكفيني ذخراً كنوزي المخبأة في أحشائك.

أعشق فجرك بسمائه الصافية المليئة برنين الأجراس، وظهيرتك المخيمة في الصيف فوق أرجاء «سوق الخان» المقفرة، حيث تمتزج رائحة الصواني المخبوزة المنبعثة من الفرن مع عبق الشواء المتسرب من المحمصة، وتترجع طرقات الاسكافي وحدها مع الدقات الرخيمة التي تعلن انتصاف النهار المنتصب كميزان يوازي سيف العدالة بين كفتيه. اسمع صدى غروبك في كل قرعة

جرس، حين يرقّ الهواء، يرش أصحاب الدكاكين الماء من أباريقهم لاهماد التراب، وتتموج الأرض المغسولة بانعكاسات أوراق الشجر الخضراء، التي ترفع زينة العيد وأعلام النزهة. حين ينتشر باعة الكعك على مفترقات الطرق، ويجلس الشباب على الكراسي ممشطين مهندمين يتفرجون على المارة الذين يتهادون أمامهم على الرصيف في مشوارهم التقليدي. وحين يروح صاحب دكان يلعب الطاولة مع المختار تحت في شجرة جوز متنشقاً عن عتبة بابه عبير الغبار المبلول بالماء المميز لهذه الساعة. أعرفها هذه الفترة اللذيذة. انها محفورة في أعماقي. لقد خبرتها تكراراً. وهي تحمل معها، عندما تعود كل مرة، جزءاً من الوقت الذي عشتها فيه، والذي ظننته هُدر إلى الأبد، وشريحة من عمري مماثلة لها، تفلتها من خزان الزمن، حيث كانت محبوسة كرهينة لا يطلقها من أسرها سوى رفيقة لها تكون صورة طبق الأصل عنها. إنها ليست لحظة عصر واحدة، انها كل مراحل الأصيل والغسق السابقة. إنها ليست موعداً آنياً محدوداً، انها خلودي وسط أمواج الحياة العابرة، ووجودي في خضم تيار الفناء الجارف. يروقني، يا قرْيتي، التجول في طرقاتك المغسولة بالمطر، المتضوعة بروائح البخار المنبعثة من الحمّامات، عشية السبت، حين يتوهج موقدنا في غرفة الشتاء، فانتظر بفرح ان تفور الماء، التي تسخّن فوق ناره الملتهبة، حالماً أن أكون أنا وحبيبتي وحدنا في ليلة عاصفة. تأسرني ترنيمات الخوري المتسربة من كنيستك، صباح الأحد، كما اؤثر، مساء هذا اليوم، ان اتغلغل بين حشود المتنزهين على درب «عين الغزلان»، حيث أفقد أحياناً كياني الشخصي من فرط الغبطة، واقف على عتبة قهوة شاخصاً إلى فتاة ترقص في حلقة حميمة ترافقها بالتصفيق والغناء ونقر الدربكة.

ونحن في «وادي المروج» نستيقظ على حداء الأجراس، ثم فحيح أولاد المدرسة قبيل دخولهم إلى الصف، إلى ان يعلن لنا صخبهم من جديد، انها العاشرة، وانهم قد خرجوا إلى الفرصة. أما تفاقم صياحهم لثالث مرة، فانه يشير إلى انصرافهم ظهراً إلى البيت. حتى اذا ما سمعنا اللغط ثانية متعاظماً شيئاً فشيئاً بنسبة عودتهم من الغداء، فان هذا يعني انها الواحدة والنصف من بعد الظهر، يلي ذلك هدنة الساعة الثالثة القصيرة، وأخيراً انعتاقهم العاصف المرح في الرابعة، بنوع أننا لا نحتاج إلى أي معيار آخر لتحديد الوقت، فالتلاميذ

يتولون هذه المهمة تباعاً بدقة وانتظام لا يخطآن. تبقى على كل حال فكرة تركيز ساعة القرية في برج كنيستها إلهاماً عبقرياً، لأن القداديس والاحتفالات الدينية هي التي تعيّن بالفعل مواعيد النهارات ومواقيت الليالي، فمراحل نضوج العنب مثلاً تتفاوت بنسبة حلول الأعياد التالية: مار الياس، الرب، والصليب.

ارتاح يا مرفأي الأمين إلى روزنامتك، وتوقيتك، وإيقاع الحياة فيك. تسحرني النواقيس المتجاوبة في حناياك موزعة أيامنا على تقاسيم دقاتها، مؤرجحة عمرنا على ترجيعات أصدائها. فتنعي إلينا من بعيد عند المساء المرأة العجوز التي كنا على علم بأنها دخلت طور الاحتضار فأنعقد لسانها، وتلقت الصلوات الأخيرة. وتبشرنا بأن الليلة تبدأ تراتيل الميلاد أو المرفع أو الفصح، وان غداً عيد الغطاس أو البشارة أو العنصرة. كل أحد بعد الظهر سأحشو جيوبي بقطع الحلوى والسكاكر، وأدخل سينما «الروكسي»، حيث أنزوي في العتمة متلذذاً بوحدتي. وكل سنة قبل اسبوع الآلام سأخيط بدلة عند المعلم كريم العرموني.

لكن لقد ماتت جدتي، لقد تزوج بنات جارتنا ونزحت كل واحدة إلى بلد. لقد أصبحت جمعاتنا القديمة مستحيلة. لم تعد ممكنة أيام عيد الكبير وحلوينته، التي كنا نذهب بفضلها إلى السينما، ولا غداؤنا عند بيت جدي، ولا فرحتنا بالكعك والبيض الملوّن. فها انه ينضاف إلى عنصر الغربة في الزمان عامل آخر أشد إيلاماً: الهجرة في المكان. والاثنان ينفياني عن الماضي المكنوز بكامله في «وادي المروج». لا أدري أية نشوة دامعة من حنان تحوم فوق كل هؤلاء الأحباء الغائبين، تنشر جناحها فوقهم، وتضمهم من الأطراف القصية إلى نفس الدائرة الحميمة الضيقة، التي كانوا يجتمعون في قلبها سابقاً. فكأنهم كانوا ينتظرون في زاوية معتمة مليئين بالحنين هم أيضاً أن تلم شملهم من جديد يد رحيمة في ركن بيتي صغير، حيث يلعبون الورق ذات ليلة شتائية، ربما عشية عيد البربارة حين كانت تأتي جارتنا أنيسة لتمضية السهرة عندنا، جالبة معها القمح المسلوق، المرشوش بالسكر وحب الرمان ولب الجوز واللوز.

أهوى يا جنتي أعيادك بلياليها الحافلة بالناس المتزاحمين في محلات الفاكهة والحلويات، العائدين إلى بيوتهم الآمنة حاملين علب الهدايا والأغراض. وبدمائها الفتية، التي تدفق في عروق الوقت الكهل الناشفة نبض الخلود، وتجدد

شبابنا ورونق قريتنا، فنراها تحت نور بكر يشع من نضارة وطفولة القلب. إن «خميس الصعود» عندما يتوالى في «وادي المروج»، انما يقبل مثقلاً بالذكريات فتحضرني حادثة عادل الأشقر، الذي ضبطوه وهو يسرق الأطايب والأواني من بقايا الوليمة، التي تقيمها مدرسة «النهضة» عادة بمناسبة أول قربانة. وهناك كل صبي غض الإهاب تتله أمه من يده، وتخرج به من المطبعة، حيث حفرت له اسمه وتاريخ مناولته الأولى بماء الذهب على قفا صور القديسين التذكارية، ينشر أمامي فصلاً منسياً من سيرة التلميذ الصغير الذي كنته.

أما صبيحة «خميس الجسد» فاني أتأثر واتضامن مع أبناء بلدتي، التي تفشى فيها الكوليرا عام ١٨٢٥، وكاد يقضي على كافة سكانها، لولا ان طاف كهنتها في أحيائها بالقربان المقدس، فانحسر عنها الوباء. وإلا لما كنا عائشين في ربوعها، نحيي هذه الذكرى السنوية، التي اتخلى إبانها عن أناي الضيق لأنصهر من فرط المحبة في هذا الوجود الجماعي الغفل، الذي لا يشمل فقط كل هذه الحشود المشتركة في الاحتفال، بل يمتد أيضاً ليضم الرعيل اللاحق، بالاضافة إلى الغائبين، الذين أوشكوا على الاندثار، والذين يستمرون حاضرين من خلال الأجيال الجديدة التي خلّفوها وراءهم. وإذ تدوم ضيعتنا هكذا فانما نرسخ نحن من خلالها. ان تهيم بها وجداً وكأنها انت هو ان تظل حياً فيها حتى بعد وفاتك، هو ان تصبح أنت هي فتصمد ببقائها متجاوزاً شروط الفناء. وهذا ما يحققه أهاليها باندغامهم الصوفي الرائع في الذات العامة، وهم يزحفون في هذا الموكب الديني، وقد نزعوا عنهم بُردة الموت بتناسيهم لكيانهم الشخصي، وتنازلهم عن فرديتهم، التي هي وحدها عامل زوال. إذ ان تعرّضهم للكوارث والولايات يزيدهم تعلّقاً ببعضهم، وتعبداً لله: تمسكاً بمواطنيهم لأنهم بالتآخي والتآزر والغيرية سيتمكنون من صد الخطر المشترك، وولاءً لربهم لأنهم يؤملون منه ان يحميهم برحمته من الشدائد والمحن، فيذوبون جميعاً عبر تراتيلهم المرفوعة إليه في دمعة واحدة من الحنان: من الدركي إلى الجندي شقيقنا من لحمنا ودمنا الساهر على سلامتنا، ومن الأب، الذي يحمل ابنه، مشكلاً مع زوجته السائرة وراءه عائلة منسجمة، محاطاً هكذا بالعطف، منّصباً له هدفاً نبيلاً يضحي من أجله: طفله، هانئاً بعضد جميل يقف إلى جانبه: امرأته؛ إلى العجوز المرتجفة التي أفاقت مع الفجر، وفتحت بابها لتأخذ بركة من قافلة الإيمان العابرة أمام بيتها، دون ان

تستطيع الالتحاق بركبها، الذي تشيّعه من بعيد مغرورقة العين، مفكرة ربما انها لن تكون على قيد الحياة السنة القادمة لتشاهده مرة أخرى. لكنها لا تنذرني بانقضاء العمر أو تزعزع ثقتي به، وهي واقفة تحت شجرة دارها تصلي على عدد حبات سبحتها، مرتعشة من رأسها إلى أخمص قدميها، ومن فكها وشفاهها إلى أطراف أناملها، ولا نوحي لي بالخوف من الشيخوخة والمرض والموت، بما انها هي ذاتها لم تعد تقلق لهذه الأمور غداة هذا النهار المغبوط، حين تعتبر نفسها سعيدة لأنه سيتاح لها ان تمدد اقامتها على هذه الأرض وان يكن لأسبوع واحد أو ليوم فقط، ان تستمتع بهذه الرحلة الشائقة بفضل شفاعة السماء ولو لساعات معدودة، وان تنعم بامتياز مواصلة هذا المشوار البديع حتى لخطوات قليلة، وحتى لو كان القبر خاتمته الطبيعية. وإلى غندوره، الخاطئة التي تغلق نوافذها، مغطية الزجاج بالخام لدى مرور هودج التقوى، الذي تكتفي بالتفرج عليه من كوة خلفية، كتلميذ معاقب مزروب يتطلع بحسرة إلى رفاقه الذاهبين إلى النزهة، أو كمنبوذ يرنو، والعبرات تتلألأ في بؤبؤيه إلى الأسوياء عله يستثير شفقتهم، فيطلبون منه الانضمام إلى صفوفهم، تعسكر تحت شرفتها فرقة موسيقى الدرك، التي يدوّزن أعضاؤها أبواقهم ويتنحنحون، وإذ يعلن لهم قائدهم «معكم دقيقة لتشربوا!...» يسرعون نحو الحاووز قبل انتهاء المهلة المحددة لهم بموجب أمر صارم؛ والتي تساهم انغامها أمام سور المقبرة مع سحر اللحظة في تفتيت قشرة الأنانية وإرهاف إحساس المحتفلين، وخاصة النساء منهم، فيتأثرون بشكل قوي على موتاهم، الذين نزلوا في حفرة هذه المدافن منذ فترة وجيزة: سيدة مجلببة بالسواد محتقنة الوجه تشهق فتسرح قطرات الأسى على خدودها، وتطلب من الحارس ان يفتح لها باب الجبّانة لتزور ربما ضريح ابنها، وعروس صبية تنتحب بحرقة متذكرة أخاها الشاب الذي ووري التراب لشهور خلت.

أتلهف إلى مهرجاننا السنوي حين يخرج الرسام ناجي شهوان بسالفيه الطويلين، وشاربيه الانيقين، مهملاً قيافته، مدلياً قميصه فوق بنطلونه، عاقداً مشلحه حول عنقه كلورد انجليزي، ويروح ينقل الطرف هنا وهناك مبهوجاً وكأنه لا يتفرج على الاحتفال ويأخذه عن جد، بل يتأمله كلوحة جميلة، أو صورة مؤثرة رابتاً على خدود الأطفال، الذين يجد فيهم ربما أظرف مشهد في الاستعراض. وحين يتوسط البطل الرياضي أسد طعان عربة الزهور عاري

الصدر في دور باخوس إله الخمر. حين يقف الشاعر فايز شعيب على المنصة يخطب ويلهب الحماسة الوطنية وسط عاصفة من تصفيق النظارة على الشرفات، ثم يعانق المطران والمحافظ ويرجع من جديد إلى عزلته، حيث ينزوي في ركنه الخاص في آخر القهوة يدخن النارجيلة، يقرأ، ويكتب، واضعاً حيناً رأسه بين يديه ليعتصر فكره قليلاً قبل ان يصبّ المنتوج على ورقة أمامه، نافثاً حيناً آخر مجة من التنباك قبل ان يفتح صفحة في كتاب يستغرق فيه كلية، غافلاً عما يجري حوله. ويبهجني أن أرجع عشية تجلي السيدة من الكروم، فأرى قبة الكنيسة مشعشعة يتجمع الرجال تحت سنديانتها، ويضيء النساء شموع النذورات تحت صورة عذرائها، يرابط مرزوق أمام بوابتها يبيع السمسمية للأولاد بوجهه السمح العطوف، الذي لم يتبدل منذ ان كنت من زبائنه الصغار، كما لم تتغير نقطة تمركزه في جميع المناسبات الرسمية التي أتيح لي مجايلتها، وتزحف نحو باحثها أم حنون نذرت ان تمشي حافية، واضعة على رأسها صدراً من القربان كي يشفع الله بأبنائها. بينما ينشل الشبان الحبلة المعقودة بطاقة الأفخارستيا، ويأخذون بالتأرجح بها؛ وترجيع صدى الناقوس القديم إياه الذي طالما داعب آذان أسلافنا، والذي يعمّم نداءاته حتى تخوم المقبرة النائمة على هدير النهر. وكأنه يوجه دعوته إلى الأموات أيضاً وليس فقط إلى الجمهور المتململ في الساحة أو المطل عن الشرفات مستمتعاً بجمال الأمسية وهدوء النسيم، مستعيداً بنشوة أحد أيام عمره المشهودة واحتفالات قريته الموسمية. فمع أول قرعة جرس عشية عيد السيدة يصبح أهل الوادي خارج كل تقويم معهود، حائرين في أي يوم هم لفرط ما ترددت هذه الأصداء الخالدة عبر أيامهم. وإذ ذاك يجلسون مسحورين على سطوحهم، أو يضيئون لمبة خافتة في رواقة بيتهم، يستريحون في ظل نورها الشاحب كسكير يمزمز شرابه على مهل. ومع أول قفزة بالحبلة أيضاً تستيقظ من هجعتها على إيقاع هذا الصوت القديم المألوف الذي يرافقني هو هو منذ مطلع حياتي، سعادة حميمة غافية في أعماقي.

ثم يربّع شاب متين البنية الجرس، وقد تدلى قميصه فوق بنطلونه، وتطاير شعره في الريح كخيّال يفلح في ترويض فرس جموح. ويروح الأولاد الصغار يتقافزون في هواء الأزقة المسكر، مقلدين بأيديهم طريقته في القرع، محاكين بأفواههم دوي الدقات. ترنو إليهم من وراء بابها المفتوح جدة لم تتمكن هذه المرة

من الحج إلى المحراب، تكتفي بتكتيف ذراعيها، والاصغاء بحنان إلى ترجيعات الناقوس، وتأمل الأطفال اللاعبين على عتبات بيوتهم. أما أصحاب امتياز الجلوس على مصطبة الدكان المجاور للكنيسة إبان هذا الاستعراض الحافل، فانهم يؤدون التحية لكل ذبيحة قربان يمر بها قربهم موكب الضارعين.

حتى إذا ما تعب الفارس المغوار، وآلم له اللجام الحرون راحة كفه، التي يضعها على خده، معرباً عن توجعه بامتعاضة باسمة من وجهه، أفلت الحبلة نافخاً في يديه، منضماً إلى رفاق له ينتظرونه في الساحة، وكأنه يريد هو الآخران يأخذ حصته من المتعة الجماعية، ان يثرثر، ويتفرج على أسراب الصبايا، على الأولاد الذين يشترون القرمش، وعلى عجوز فقيرة تتستر في ظل عمود، وتشرف على تجارة حفيدها، تحرك خيوطه من خلف الستار، وتعطي عينها على صمدة متواضعة يشقع عليها علب الشمع بغية بيعها للاتقياء، الذين يضيئونها تحت صورة العذراء المشعشعة في هذه العشية المباركة بكل أنوار مجدها العجائبية.

عندئذ يلتقط المشعل عملاق جبار، يربّع الجرس بساعد واحد، مثيراً دهشة الجميع، فاتحاً قميصه، ليُظهر عضلات صدره البارزة، قبل ان يأخذ الحبلة بجمعيّ يديه، ويفجر رنة صافية هي صوت جبلي قوي، والرائعة الموسيقية لهذا المساء، الذي يخرج فيه المعلم قبلان بين الفينة والفينة، ينتصب على عتبة فرنه، حيث تمتد بسطات مفروشة بوجوه القربان الشهية، المقمرة، الملتمعة بالقطر، ويلقي بينها صدراً جديداً، وحيث تنتظر دورها امرأة حافية، حاملة فوطة بيد ومنديلاً باليد الأخرى، مصغيةً بتوتر ونفاد صبر إلى آخر دعاءات الناقوس المتجاوبة من برج الكنيسة. بينما يتزاحم الأهالي على شراء الألعاب النارية لأولادهم.

إني شغوف بدروبك وأزقتك يا مسقط رأسي: «حارة الشيح» هي «معهد المخلص»، الذي تربيت فيه طفلاً. إنها أشجار من السرو سيَّجت به ارسالية الرهبان الطليان ممرات مسحورة تحلو فيها النزهة. انها تلك الفترة التاريخية المعينة من حداثتي. حيطان الحلاق المرسوم عليها نهر البوسفور ومدينة اسطنبول تحوي على ساعات من عمري. دكان بائع الأحذية، الذي تتدلى من بابه جزمة كعلم يرفرف أمام مؤسسة رسمية، هو تلك الأمسية الشتائية، التي وقفت فيها تحت

اسكفته احتمي من المطر. هذه كلها ليست مجرد أماكن ومبانٍ، انها أجزاء من نفسي.

هناك في «وادي المروج» لا تزال أيامي الماضية ملكي. إنها لم تسقط مني إلى الأبد الحصة التي استنفدتها منها إلى هذا الحين لم تضع سدى، النقود التي صرفتها منها حتى الآن لم تُهدر هدراً. إنها مودعة على اسمي في جهة ما من هذه الأرجاء الحبيبة. استطيع على منحنى درب، أو في لحظة صدفة ان التقي بها، فأسحب الأمانة، واستحوذ عليها من جديد. الكنيسة، المزارات، الشعاب الحميمة في «وادي المروج» لا تعني شيئاً بالنسبة للغريب. لكن حياتي السابقة بكاملها تظل محفورة على جنباتها في لوحات تذكارية. إنها أطواق نجاة للتشبث بموانىء العمر وسط بحر الهلاك. هناك تُطل القمم المتوجة بالثلج على روابي «ضهور العرائش» المزروعة بأشجار التين كأهل أحباء وجيران متآخين يحلون ضيوفاً على بعضهم، لا كمجرد جبال وهضاب. هناك حتى الجماد ينطق، أما هنا فالبشر أنفسهم بلا روح.

«حارة الشيح»، و«المحطة»، «حي البيادر» الذي انطبعت على أديمه آثار أقدامي، و«ضهور العرائش» المكسوة بدوالي العنب. هل بقي لي حيز ضيق في حِماك؟ هل حجزت لي ركناً صغيراً في ربوعك، أم ان مكاني احتله شخص آخر؟ ألا تزال أبوابك مفتوحة يستطيع الابن الشاطر ان يدخلها عند المساء، أم انها **أغلقت في وجهه** عقاباً له على عقوقه؟ هل فاتني القطار أم استطيع أن ألحق بركبك بعد؟ ترى هل يرضى ابناؤك بي أيضاً، ويفسحون لي مجالاً بينهم. أم انهم نسوني بالمرة، وطووا صفحتي نهائياً. نبذوني إلى الخارج، واعتبروني غريباً عنهم؟ لا شك ان المعلم قبلان يغفر لي ذنوبي، فاتحاً لي أحضانه بترحاب، ويتغاضى عن أخطائي، مؤكداً لي بوجهه الطافح كالقربانة ان مطرحي المهجور مرهون على اسمي، استطيع العودة إليه ساعة أشاء. نعم هو على الأقل سيشفع بي أمام أهل الوادي، ويناشدهم ان لا يرموني بالحرم، بل ان يعاملوني كامرأة زنت، فما وصمها جيرانها بالعار، ولا طردها أهلها من البيت، ولا تخلى عنها زوجها. بل مهدوا لها سبيل التوبة متناسين الماضي كلية.

الكنز الذي خبأته عند سفح التل هل سرقه أحد في غيبتي؟ سيلازمني

ضيق الصدر ونفاد الصبر إلى ان أرجع في عجلة من أمري، فأتفقده، وأطمئن أنه في حرز حريز في موضعه الأمين، وان الرابية لم تتزحزح من مكانها، وان بمقدوري دائماً ان أهبط منحدرها عند الغروب، ميمماً شطر البيت. زقاق «ساحة الورد» هل بقي على حاله، أجد فيه إن عبرته ساعة الأصيل امرأة عجوزاً جالسة على كرسي واطىء تحدث جارتها عن يوم عرسها؟ «سوق الخان» هل بعده على سابق عهدي به، أجتاز بعد ظهر الأحد ممراته المقفرة وأرجائه الخالية إلا من العظام المتكوِّمة أمام باب اللحام المغلق؟ هل أحمل بعد حق الانتساب إلى موطني الأصلي، فأتقمص ثانية شخصية بعض الوجوه التي ظهرت بها في فترات متنوعة تحت أنواره، والعب من جديد أحد أدواري المفضلة على مسرحه؟

نعم سيؤذن لي ان أعود إليك يا «وادي المروج». سيتاح لي ان أشارك في حياتك كما من قبل. لم أسقط من حقوقي المدنية. باستطاعتي دائماً أن أنضم إلى الكائنات المحظوظة التي تملك امتياز الاقامة في أغوارك السعيدة، وإلى أصحاب الدكاكين الذين ينعمون عن عتباتهم بشمسك الدافئة. لم أصبح بعد مغترباً كهلاً يرنو بعيون دامعة من حنان إلى أهالي قريته العاجزين عن التعرف على هويته. بامكاني أن أتساوى مع سكانك، وأعاملهم معاملة الند للند، فلا أعاني من النقص تجاههم لحظوة العيش بين ربوعك التي يستأثرون بها.

هل لف الظلام حارة «سيدة المعونة»، فغفا ابناؤها، خلت أزقتها، وسهرت اضواؤها الناعسة كزينة في ليلة عيد؟ هل هدهدتها نباحات الكلاب، وران السكون على دروبها، التي لا يجوبها سوى ديب الهندي الصياد الأعزب، قاصداً أقرب دكان لشراء قنينة عرق، واضعاً نظارتيه على عينيه الكليلتين من فرط تبحره في صناعة الخرطوش، مدخناً بيد، ممسكاً بالأخرى علبة «بافرا» فارغة؟ سأصل الحي النائم وأوقظ أهله، وأطلب منهم ارتداء ثيابهم والنهوض معي لأخذ استحكاماتهم في الأماكن المعهودة، حيث يؤدون ادوارهم كما في الماضي، ويوالون أمامي فصولاً من حياتهم العادية، كممثلين يستدعيهم ثري من بيوتهم، ويرجوهم اعتلاء خشبة المسرح المهجور للقيام بتشخيص إحدى المسرحيات التي يحبها. أو كأطفال يعود أبوهم من الغربة ليلاً، فينتشلهم من أسرّتهم، لأنه من الشوق إلى رؤيتهم بحيث لا يقوى على الانتظار حتى الصباح.

مدخل «وادي المروج»، المحاط بالأشجار عن الميلين كرحم حنون، يفتح لي أحضانه بترحاب، ويناديني مشيراً لي بيديه ان ألج قدس أقداسه، وأعود إلى أحشائه الأمومية. فكأن الأغصان وُجدت هناك خصيصاً لدعوتي فاتحة ذراعيها، واستقبالي هازجة بأوراقها. و«سوق الخان» يستحثني على اختراقه بسرعة ونفاد صبر، قاطعاً من آخر زقاق ضيق وحميم فيه إلى دارنا، التي أكاد أصرخ مبشراً أهلها بوصولي، صاعداً درجها بلهفة، قارعاً بابها، الذي اسمع وقع الأقدام الحبيبة، التي تتقدم وراءه لتفتح لي أخيراً المغارة السحرية، متهافتاً على صدر ربته اغترف من كنوز حنانها ما لا أصدق أنه أصبح في متناول يدي من جديد، وانه اللقاء الثابت، الذي ليس بعده أسفار وعرة. ووالدتي تبني لي بعينيها بيتاً ألوذ به من الغابة، انعزل عن العالم العدائي، واحتمي من الأخطار الخارجية. عائد عائد يا أمي، هارب من هذه الحمأة الموبوءة، التي لم أنجرف في تيارها، ولم أتدنس برجاستها، بل احتفظت بطهارتي، وبقيت على حالي دون تبدل. أرى الباص يتقدم من بعيد فأكاد أضحك، حين أتصور انه لا يزال هناك أناس ينتظرونه عليّ المحطات، كما كنت أفعل أنا طيلة هذا النهار. لكن هذه الخدعة لم تعد تنطلي عليّ. لقد أنسحبت من اللعبة، وخلعت عني ثياب التهريج. وها انا أقف بين النظارة اتفرج على هذه المهزلة من الخارج هازئاً، شامتاً، مشفقاً على الممثلين الآخرين العاجزين عن مغادرة خشبة المسرح، والمضطرين إلى الاستمرار في تقمص أدوارهم السخيفة. مساكين لقد حُكم عليهم بالبقاء إلى الأبد في هذا الجحيم لافتقارهم إلى مرافىء أمان يقلعون نحوها.

عندما تتناهى إلي من بعيد مناداة السواقين «المروج! المروج» اسرع الخطى خافق القلب، ملبياً بشير الخلاص بلهفة. حتى لأكاد أصرخ وسط الشارع «الوادي، الوادي». جئتكم أخيراً. تنفست هواءكم النقي بعد طول أختناق. فمدوا لي يد الرحمة وأرموا لي طوق النجاة. اسحبوني بالحبال إلى النور، ثم انتشلوني بزورق الإنقاذ إلى الشاطىء. أنى توجهت، وكيفما سرت، اينما وصلت، ومهما سعيت، يظل هدفي الأقصى وفردوسي المفقود العودة إلى بيتنا الهادىء، الذي ينام على ايقاع دقات الساعة المتصاعدة من كنيسة «سيدة المعونة»، ويستيقظ على انغام الجرس، وصياحات أولاد المدرسة. حتى لاهفو

بانشراح وعزاء إلى سيارة عساف المرابطة على الموقف، وأدنو من بابها، حيث يُخيل إلي أني سأرتمي في أحضان أهلي باكياً، فكأني مركب اضطرب في عواصف البحر يلمح ضوء المنارة عند المساء.

ـ للمؤلف ـ

- عبر الزمان (رواية) ١٩٦١ .
- نهر الوادي السعيد (سلسلة روائية) :
  - ١ ـ نهاية العيد ١٩٧٤
  - ٢ ـ صعلوك المدينة
  - ٣ ـ الدوام الشتوي (جاهز للطبع) .
  - ٤ ـ المساكين بالروح (جاهز للطبع) .
- رامبو ١٩٧٧ .
- روح الموسيقى ١٩٨٠ .
- لحظة الأبدية (دراسة الزمان في أدب القرن العشرين) ١٩٨٠ .
- «أناشيد مالدورور» ـ لوتريامون (ترجمة) ١٩٨٣ .

الصعلوك المدينة

هذه الرواية تنطوي على الحب الأكبر حب الإنسان لتراب وطنه، حبه لمسقط رأسه، حبه لمطارح هواه وذكريات فؤاده؛ واليك واحداً من مقاطع كثيرة امثاله تتخلل هذه الرواية:

«هناك إذا جلست تحت التينة في ليلة مكوكبة، عضك الجوع إلى الحب، الذي ينثر في هذا الإطار المسحور ثماره دانية القطوف، ويبيح أقبيته للجميع. فالقمر الذي يعكس وجه حسناء، النجمة شامة على خدها، والصفصافة مروحة تهوّي بها، الذي يسهر على الدوالي ككلب يحرس خرافه، يأمرها ان تنام، ولا تأتي بنأمة، والذي يفرش من التربة الحمراء سجاد المخمل النبيذي تحت اقدام العشاق، وأشجار التين التي تنبسط على الهضاب كمظلات حنونة، والنجوم التي تنطفىء كشموع كتومة في الهزيع الأخير من ليلة غرام، متورعة عن ازعاج احد بحضورها، كلها تتعهد اهل الصبابة بالرعاية، تعدهم بالحماية والأمان، وتأخذ كامل المسؤولية ع عاتقها، وكأنها تحرضهم: انصرفوا انتم إلى شؤون الهوى، عليكم، انا اتكفل بالباقي».

صمم الغلاف: كريم الحاج

الثمن ١٦ ل.ل

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩..
برقيا موكيالي بيروت - ص ب: ٥٤٦٠ ١١ بيروت